ليالى ودموع

أطياف

يوسف السباعى

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقى - الفجالة

ليلة بلا نوم

كانت الساعة قد جاوزت الحادية عشرة وأنا فى طريقى الى البيت ، وكنت مرهقا مكدودا ، ضيق الصدر بمتاعب اليوم ، ولم أجد هناك مايدفعنى الى التعجيل بالعودة الى الدار ، وداخلنى احساس بالحاجة الى الانطلاق بالعربة فى الطرق الخالية بأطراف هليوبوليس .

ولم أعرج على البيت وتركت العربة تنطلق بى فى شارع السباق ، وأحسست من فراغ الطريق وسكونه وهبة الهواء الرطب التى لفحت وجهى بشىء من الانتعاش ، فتمهلت وأخذت أدندن بصوت خافت .

ولم يبدو على طول الطريق أثر لعابر ، وقامت الدور على يمينى ساكنة مظلمة الا من بضعة أضواء تناثرت من نوافذها ، وعلى اليسار امتد سور السباق المنخفض وقد ترامى وراءه الفراغ الفسيح يلفه وشاح من الوحشة والظلمة والصمت المطبق .

وعلى أضواء الطريق الباهتة .. ووسط سكونه المخيم بدا لى شبح امرأة تستحث الخطا . وترامى الى أذنى وقع خطواتها جادة متعجلة .. كأنها خطوات جندى فى طوافه .

وبغريزة الرجل .. ازددت تمهلا .. وأخذت أرقب شبحها المقبل .. الذى لا أكاد أميز منه سوى حدوده الخارجية وطريقة سيره .

وأنا أميز المرأة بطريقة سيرها وهيكلها .. وأكاد أحس بمدى جمالها أو قبحها من هذين المنظرين . ولا أظنهما خدعانى الا فى القليل النادر .. ولقد أحسست من خطوات المرأة المقبلة وتخطيط شكلها فى الضوء الباهت .. أنها شيء لطيف يستحق الرؤية .. أو أكثر من الرؤية ان أمكن .

وازداد تمهلى وهى تزداد اقترابا .. وأيقظت الوحدة والظلمة ونسمات المرأة المقبلة مشاعرى وأرهفت حواسى ، فانحرفت بالعربة الى الجانب الأقرب اليها – وهو جانب السباق – حتى أتمكن من رؤية وجهها .

وعندما دنت من العربة .. أحسست أن ضوء الطريق الخافت لن يهيىء لى فحصها جيدا .. وأضاءت ضوء العربة الكبير .. فسطع عليها فجأة وبدا عليها الضيق والانزعاج وبدت لى فى خطواتها العجلى وسيرها المندفع كطائرة أمسك بها ضوء كشاف وهى تحاول الفرار منه .

وخرجت عن نطاق الضوء .. واستمرت فى سيرها العجل .. وخطواتها الجادة ، غير متلفتة حولها .. أو ملقية الىّ أدنى اهتمام .

ولم أحاول التوقف .. فقد كانت الفترة التي وضعت خلالها فى نطاق الضوء . كافية لكشفها .. وكافية بالتالى لأن أواصل السير بعد أن أحسست أنه ليس بها مايجذبنى اليها .. أو يغرينى بها .. أو يهيىء لى فيها أى نوع من أنواع المغامرة . وبعد أن أيقنت أن المشية والهيئة قد خدعانى – الى حد ما – هذه المرة .

كان وجهها نحيلا .. شاحبا .. وقد بدت حول عينيها من تجاعيد الإرهاق والذبول .. ما دفع فى نفسى الظن بأن عقدها الرابع يوشك أن ينفلت .

ودفعنى الكسل وهزال الصيد الى معاودة الانطلاق بعربتى مفضلا الليل ونسماته الرطبة والاستمتاع بالسرحان والدندنة .

وواصلت السير فى الطريق مخلفا ميدان السباق ، والعمارات الجديدة المشرفة على ساحته ، عابرا خط المترو الجديد حتى بلغت نهايته وأدرت العربة حول المحطة الأخيرة عائدا فى طريقى من حيث أتيت .

ومرة أخرى .. بدا لى الشبح فى خطواته العجلى ومشيته الجادة الصارمة .. وسط الفراغ العريض والسكون الشامل .

وأدهشنى استمرار المرأة فى السير بلا هدف واضح . فقد كنت أتوقع أن تكون قد اختفت فى احدى الدور التى لاشك تقصد اليها .

ولم تكن فى سيرها مستعرضة ، ولاكان الطريق الخالى بميدان صيد .. حتى أظنها امرأة ليل تبغى صيدا .. ولاكان الوقت الذى تسير فيه أو المظهر الذى تسير به يدفعان الى الظن بأنها تمارس نوعا من الرياضة .

وعادت غريزة الرجل وحب الاستطلاع والرغبة فى المغامرة توقظ حسى وترهف أعصابى .. وكنت قد أشرفت عليها .. وأوشكت أن أجاوزها .. دون أن أستقر على أمر أو اتجاه .

وبلا خطة موضوعة .. أو تفكير مرتب .. أو هدف واضح .. أوقفت العربة .. وفتحت الباب .. وفى لهجة جادة مقتضبة قلت لها .

— تفضلى .

ولم أشك فى أنى قد فاجأت المرأة بدعوتى .. بل بمجرد وجودى .. وقفت تنظر الىّ على ضوء العربة الداخلى الذى أضاءه فتح الباب .. وقد بدت مشدوهة مأخوذة .. ومرت لحظة صمت .. حاولت خلالها أن أضع خطتى للحظات القادمة وردودى للاحتمالات المنتظرة .. ووسائلى لمقاومة التمنع المحتمل .

ولكن المرأة فاجأتنى مفاجأة أشد ، وبلا كلمة تمنع .. أو سؤال استفسار .. وفى ثانية واحدة .. كانت تستقر على المقعد بجوارى دون أن يختلج فى وجهها عصب أو تفتح شفة .

وسمعت صفقة الباب .. وساد السكون .. وعم الصمت الا من صوت أنفاسها تتلاحق لاهثة كأنها جواد فى سباق .

وسرت بالعربة .. ومضت برهة .. كان كلانا يشرد ببصره من زجاج النافذة الى الظلمات المترامية .. وكان علىّ أن أفيق من المفاجأة وأن أقول شيئا .. ألم أكن الصائد صاحب الدعوة ؟

وكانت أقرب الألفاظ الى شفتى .. كلمات التحية .. فقلتها .. أكتسب بها الوقت .. وأتمالك أعصابى .. وأستعيد طبيعتى المغازلة المرحة ، فقلت .

وأخيرا قالت :

– مساء الخير .

ولم تكن كلمات الغزل قد لانت على شفتى بعد . اذ لم أجد بها ما يدفعني الى الغزل المخلص الطبيعي .. ووجدت رغبتى فى الاستطلاع تسبق قدرتى على الغزل المجامل المتكلف فقلت متسائلا :

– الى أين ؟

وببساطة أجابت .

– أحضر العشاء .

(عشاء !!) وكادت تنفلت منى صيحة دهشة .. أسرعت فى كبتها .. ولم يكن فى مظهرها المحترم ولا فى الساعة التى تسير فيها .. مايبرر خروج سيدة مثلها لإحضار عشاء ، وسألتها فى لهجة غير مصدقة :

– الآن ؟ تحضرين العشاء ؟

– أجل .. لقد عدت فلم أجد فى البيت طعاما .

– وأين البيت ؟

– فى احدى العمارات المطلة على السباق .

– ولكن ألم تكونى تعرفين أنه لايوجد فى البيت طعام ؟

– انى أنسى هذه الأشياء .. لاأذكر شيئا عن البيت الا عند عودتى اليه .

مخلوقة عجيبة .. ورد أعجب !

وعدت أتساءل .. دون أن أتنبه الى أن المرأة الغريبة قد حوّلتني من صائد ليل مغازل .. الى وكيل نيابة محقق .

قلت لها :

– ولماذا لم ترسلي أحدا من البيت يحضر لك عشاء ؟

– لأنه لايوجد معي أحد .

وطرقني ردّها طرقة مثيرة .. لقد بات أمرها سهلا ، من حيث المكان ، فهي تقطن وحيدة .. ويمكنني أن أعود معها الى بيتها .

وكان عليّ أن أتولى احضار العشاء .. وبحثت في ذهني عن محل ابتاع منه .. دون أن أسلك طريقا مطروقا يعرضني واياها للأبصار .. وقبل أن أستقر على رأى سمعتها تقول .

– من فضلك اتجه يسارا .

ع الجانبي الذي يلف يسارا حتى ينتهي الى
ء بالمارة والحوانيت .

وأجبت مترددا :

– لماذا ؟

– لأحضر العشاء .

– سأحضره لك أنا من محل أعرفه .

– لا داعي لأن تتعب نفسك .. يوجد بقال على الناصية لي عنده نساب .

وحاولت أن أجادل ولكنها أصرّت .. فلم أجد بداً من الذهاب الى حيث تريد .

ووقفت بها أمام البقال وهبطت من العربة لتعود بعد لحظات وقد حملت معها بضع لفائف صغيرة .

ومرة ثانية استقرت بجوارى وقلت متسائلا :

– أتعودين الى البيت ؟

وترددت لحظة قبل أن تجيب متسائلة :

– ألا تحب أن تلف بالعربة برهة ؟

– أجل .. أجل .. كما تشائين .

وأدرت العربة مرة أخرى الى شارع السباق وانطلقت أجول بها متتبعا الطرق الخالية فى أطراف الضاحية .

وبدا عليها الشرود وهى تستقر بجوارى فى هدوء وصمت ولم تعد أنفاسها تتلاحق لاهثة ، بل بدت عليها السكينة ، والطمأنينة والاستقرار .

وكان علىّ أن أوالى بقية تحقيقاتى .. لأستفسر منها عما غمض علىّ .

قلت أستدرجها من شرودها وأقطع عليها صمتها :

– أتعيشين وحدك .

– أجل .

– ألست متزوجة ؟

– لا .

– ألم تتزوجى ؟

– تزوجت وطلقت .. وتزوجت وطلقت .. وقد أتزوج وأطلق .. وأن الزواج فى حياتى من الحوادث العابرة وليس من الأحداث المقيمة .

– أليس لك أهل ؟

– لى .. ولكنى أفضل أن أقطن وحدى .. انى أعمل فى الفن .. أقوم ببعض الأدوار الثانوية فى السينما والمسرح وأحيانا أعود فى الليل متأخرة .. وأحيانا سكرى .. ولا أحب أن أقلق راحة أهلى أو أسىء اليهم .. ولذلك أفضل السكن وحدى .

ولم يكن هناك شك بعد هذا .. أن المرأة صيد سهل ميسور .. زواج وطلاق .. وفن .. وسكن وحدها ، وسهر ، وسكر .. كل هذا .. ترك المسألة كما يقولون (على بلاطة) .

ولكن المشكلة لم تكن مشكلة السهولة واليسر .. بل كانت مشكلة القابلية والإثارة .

ان المرأة لم تثرنى من اللحظة الأولى .. بوجهها الشاحب المرهق ، وهزالها البادى ، ولقد ظننت أن التلاصق والحديث قد يمنحنى شيئا من الإثارة ، ولكن مشاعرى لم تثر بأكثر من الشفقة والعطف .

ومع ذلك .. وبدافع من العناد .. والإصرار على اتمام المغامرة وجدتنى أسائلها :

– ألا نعود الى البيت ؟

وبلهجة الاستسلام والرضوخ أجابت :

– أمرك .

ووقفت أمام باب البيت ، ووجدتها تجمع اللفائف لحملها فقلت :

– عنك .. دعيني أحملها لك .

– لاداعي للتعب .. سأحملها أنا .

– ألديك ما يمنع من الصعود معك ؟

وصمتت .. ومضت بها برهة وجوم وتفكير وما لبثت أن تساءلت :

– أتصر على الصعود ؟

– اذا لم يكن لديك مانع .

– أبدا .. لامانع لديّ .. فقط .. أخشى لغط البواب والسكان وأكره أن يقولوا أني أحضر رجالا فى البيت ، فانتظر حتى أتأكد أن البواب قد نام وأن الطريق خال .. وسألوّح لك بضوء ثقاب من وراء النافذة الكائنة فى أعلى الدار .

– واذا لم أر الضوء ؟

– يكون من الخير أن تنصرف .

ودلفت الى البيت وجلست أرقب النافذة الصغيرة التى أشارت لى اليها .

أى، أحمق أنا ! ماذا يدفعنى الى الزج بنفسى فى مثل هذه المغامرة ؟ أدخل بيتا لا أعرفه فى منتصف الليل .. مع امرأة لا أكاد أعرف عنها الا ما حدثتنى به عن نفسها مما قد يكون باطلا مكذوبا .. وقد تكون ذات زوج .. وقد يكون بيتها كمينا لاصطياد المأفوفين السذج من أمثالى .. للاعتداء عليهم وسلبهم نقودهم !

ولماذا أفعل كل هذا ؟ من أجل امرأة لا أريدها .. ولا أشعر لها بأية قابلية ، ولم تثر فىّ جارحة .. أو تهيج لى حسا .

يجب علىّ أن أنصرف .. وكفانى هذا القدر من المغامرة . خير لى أن أعود الى البيت لألوذ بأطراف الأمن والراحة وأجنب نفسى شر الكوارث والفضائح .

ومع ذلك لم أتحرك فكثيرا ما ينطلق تفكيرى فى ناحية ويتبلد تصرفى فى ناحية أخرى .. فأظل مقيدا فى موضعى لا سلطان لتفكيرى على تصرفاتى .

وتعلق بصرى بالنافذة العالية التى بدت وراءها رقعة السماء الداكنة بنجومها المتناثرة وقطعة ضئيلة من القمر تعدو على صفحتها نتف من السحب تحجبها تارة وتبرزها أخرى .

وفجأة لاح لى الضوء الباهت يتحرك وراء النافذة ، وأحسست بأعصابى تتوتر .. وبمشاعرى ترهف ، وتملكنى وهم شاعرى ممتع مثير .

نافذة فى السماء .. وسحب متحركة ، وقمر شاحب ، ووقفة مسترقة فى عرض الطريق المظلم الخالى .

وأخيرا ضوء باهت يتحرك المظلم الخالى .

لا .. لا .. انها مغامرة ممتعة .. أيا كانت المرأة التى سأغامر من أجلها . .

وببلاهة المغامرين .. طرحت مخاوفى فى عرض الطريق واندفعت اصعد السلم .

وبدأت ألهث عندما وصلت الى الدور الرابع .. فتوقفت وأنا لأأجد أمامى سوى سلم ضيق يؤدى الى السطح ولم أكن واثقا بالضبط من عدد أدوار البيت .. كل ما كنت أعرفه أنها تقطن فى الدور الأخير وأن نافذتها مطلة على الشارع .

ووقفت برهة حائرا وأنا أجد الأبواب أمامى موصدة دون أن أعرف بابها .. ولم يكن من المعقول أن أغامر بطرق أحدها خشية أن أخطىء بغيتى وأفضح نفسى فى مثل هذه الساعة من الليل .

وأنقذنى من حيرتى همسة استدعاء آتية من السطح ورفعت بصرى فوجدت وجهها يطل من أعلى السلم الصغير .

وصعدت السلم فأفضى بى الى حجرة صغيرة فوق السطح .

وأحسست بشىء من الخذلان والخيبة وأنا أرقب الحجرة المتواضعة بمظاهر الفقر والرثاثة البادية منها ، وحاولت جهدى أن أخفى مظاهر خيبتى وأن أسترها بمظاهر المرح المفتعل .

وسمعتها تتمتم فى استحياء وهى تقدم لى مقعدا من الخيرزان :

– أنا متأسفة .. الحجرة لاتليق بك .. ولكنك أنت الذى أصررت على الصعود .

وزاد اعتذارها الخَجل من احساسى بالشفقة عليها .. وصممت على ألا أخذلها وأن أجعل من مرحى المتكلف مرحا أصيلا .. فقلت ضاحكا :

– انها مكان شاعرى لطيف .

ورمقتنى فاحصة ، ثم أطلقت من أنفها ضحكة قصيرة ساخرة وأجابت :

– انك أنت المجامل اللطيف .

وخيمت على وجهها سحابة معتمة كبتت دوافع المرح فى نفسى وأوقفت كلمات التهريج التى أوشكت على الاندفاع من شفتى .

ومدت يدها الى الدولاب الوحيد الموجود فى الغرفة فأخرجت زجاجة ويسكى قد امتلأ نصفها ووضعتها على المنضدة الخشبية الصغيرة بجوار اللفائف التى أحضرتها من البقال وقالت متضاحكة :

لعلك لاتمانع فى مقاسمتى الزجاجة .. انى فى حاجة اليها كلها ، ولكنى على أتم استعداد للتنازل لك عن نصفها .

– انى لا أشرب .

– غير معقول !

– ولماذا ؟

– مغامر مثلك يطارد النساء فى منتصف الليل .. ويتبعهن الى خدورهن .. ثم لايشرب ؟ خذ لك كأسا .

– حقيقة لا أشرب .

– اذا أصنع لك فنجانا من الشاى ؟

– لا لزوم له .

– أو فنجانا من القهوة ؟

– لا داعى للتعب .

– اذاً تشاركنى عشائى ؟

وسارت الى باب صغير يفضى الى دورة مياه ، وما لبثت أن عادت ومعها بضعة أطباق أخذت تفرغ فيها اللفافات : جبنة وزيتون ، ومرتدلا ، وطرشى .

ودرت ببصرى فى أنحاء الحجرة .. فوجدت خليطا عجيبا من البوهيمية والرثاثة والفوضى .

فراش ما زالت أغطيته مشوشة من نوم الليلة السابقة ، ووسائد بدت عليها آثار الرأس بقذارتها الدهنية جلية واضحة ، وفردة شبشب مقطوعة ، وأعقاب سجائر ، وزجاجات ويسكى وبيرة ونبيذ فارغة .. ومشجب تراكمت عليه مختلف أنواع الثياب النسائية : روب حريرى ، وكورسيه ، وفستان أزرق ، وعلى الأرض بجوار الفراش كوم آخر من الملابس وأعقاب السجائر والصحف والمجلات .

وبجوار الفراش والمشجب استند الدولاب على الحائط بمرآته المشروخة وضلفه التى لاتغلق وأحشائه المطلة بخليط عجيب من الثياب والأوراق والزجاجات ، وتتوسط الحجرة سجادة ناحلة استقرت عليها المنضدة الخشبية وأحاطت بها بضعة مقاعد من الخيزران ومقعد كبير متهالك منهار ، ووسط هذه الفوضى والرثاثة بدا الشىء الوحيد المعتنى

به في الحجرة والذى لم أجد لوجوده مبررا ولا معنى وهو رف للكتب وضعت عليه عدة كتب مرصوصة بعناية .

وسألتها مستوضحا :

– يبدو لى أنك تقرئين كثيرا ؟

– ان القراءة هى الشيء الوحيد الذى أدمن عليه دون أن ينالنى منه سوء .

وكانت قد انتهت من رص الصحاف ورأيتها تمد يدها الى المشجب فتتناول القميص والروب وتتجه الى الباب الصغير الذى أحضرت منه الأطباق قائلة :

– دقيقة واحدة .. أبدل ملابسى .. انى أحب أن أجلس معك على راحتى .. ألديك مانع ؟

– أبدا .. افعلى كل ما يحلو لك ، ولاتقيمى لوجودى وزنا .

– معك حق .. ما دمت قد غامرت باحضارك هنا .. فليس لى أن أخشى بعد ذلك شيئا .. ليس لدىّ أسوأ مما ترى .

ولم يكن هناك فى الواقع أسوأ مما أرى ، فلا أظن المرأة قد أدخلت فى حسابها قط .. أن رجلا سيزورها فى حجرتها .. فالمرأة التى تتصيد رجلا لتقدم له جسدها لايمكن أن تعرض عليه كل هذه الخفايا المنفرة التى تحرص فى العادة على اخفائها .

ولقد قلت أنى من بداية الأمر لم أحس للمرأة بأى قابلية وأنى كنت أرجو أن تثيرنى المغامرة نفسها ، ولكن جو الحجرة بكل مافيه

من فوضى وقذارة ورثاثة قد قضى على كل ما يحتمل أن تثيره فى نفسى خلوتى بامرأة ، واندماجى فى جو المغامرة .

واختفت المرأة لتبدل ثيابها وبدأت أجد أن مهمتى التى كانت فى مثل هذه المواقف – تنحصر فى استدراج المرأة – قد باتت تنحصر فى كيفية التخلص منها دون أن أجرح مشاعرها أو أولم نفسها .

وعادت الىّ قائلة فى مرح :

أما زلت تصر على ألا تشاركنى الزجاجة ؟ سأضطر اذاً أن أشربها وحدى .. واذا سكرت فأنت المسؤل .. تفضل .. كل على ما قسم .

ولم تكن لى قابلية للطعام .. ولكننى خشيت أن أولهما برفض مشاركتها اياه فاقتربت بمقعدى من المائدة وتشاغلت بالأكل .

وبدأت الخمر تتدفق من الزجاجة الى الكأس .. ومن الكأس الى حلقها .. ورفع الشراب ستار الكلفة والاستحياء الذى كان يسدل عليها وفك عقدة لسانها ، فاندفعت تثرثر فى خفة مستحبة ومجون لذيذة ، وأخذت تروى النوادر عن عملها فى المسرح والسينما وتحكى عن حياتها وراء الكواليس ، ومغامراتها مع المنتجين والمخرجين .

وظللت أجد فى حديثها تسلية ومتعة حتى بدأت الكأس تثقل عليها وأخذت تخبو رويدا رويدا ذبالة المرح التى أشعلتها بضعة الكئوس الأولى ، وبدأت تغمرها موجة من الحنين الحزين .. وكف لسانها عن الثرثرة ليستعيض عنها بالتنهدات والآهات وبدت عليها هيئة العشاق السكارى .

وهنا أحسست أن مشكلتى قد بدأت تتعقد .. وأن علىّ أن أبدأ مهمتى الشاقة فى التخلص منها دون أن أخذلها أو أولمها .

وقرعت المائدة بكأسها ومدت ساقيها وألقت برأسها الى الوراء وأطلقت تنهيدة حارة ، ثم سمعتها تهمس فى شبه أنين :

– دنيـا !

ووجدت أن علىّ أن أقطع سلسلة التنهدات ، وأن أحسر عنها موجة الحزن المرهفة التى تعقب فى نفوس السكارى موجة المرح . وقلت ضاحكا :

– سأروى لك آخر نكتة سمعتها .

ورفعت الىّ رأسها فوجدت فى عينيها عبرتين وعادت تقول فى صوت خافت وكلمات بطيئة متقطعة :

– بل سأروى لك أنا أول مأساة عرفتها .

ومدت يدها فوضعتها على ظاهر يدى وأطبقت كفها عليها ثم رفعتها الى شفتيها ومست باطنها فى رفق .

وأحسست بأنفاسها تلهب أصابعى .. ووجدت أن المسألة تتطور سريعا .. وأن علىّ – ما دمت لا أريد المغامرة – أن أضع حدا لها .

وسحبت يدى .. فسقطت يدها على المنضدة .. وقلت وأنا أهم بالوقوف :

– يبدو أنك متعبة .. وأظن من الخير أن أنصرف ، وأدعك تسترحين .

وانتفضت كأنما لسعتها عقرب وتساءلت وقد فغرت فاها :

– تنصرف ؟ لماذا ؟

– الوقت متأخر .. وأنت متعبة .

– أنا لست متعبة .. انى فقط سعيدة ، وأنا أبكى عندما أكون سعيدة .. أجلس أرجوكِ .

وجلست . لقد كان علىّ أن أحتمل .

وعادت المرأة المخمورة ، الباكية من فرط السعادة ، تواصل سلسلة تنهداتها السعيدة .. وتهمس الىّ فى صوتها المبحوح :

– ألم تذق الحب ؟

– ذقته مرارا .

– مرارا ؟ أنت اذا لم تذقه .. ان الحب لايذاق الا مرة واحدة ..

– اما ان ترديك صريعا . او تبعثك حيا .

– وماذا فعلت بك أنت ؟

– أردتنى صريعة بالطبع .. لم تدع لى سوى هذا الحطام الذى تراه .

وخشيت أن تطلب منى أن أبعثها حية فقلت لها مستضحكا :

– أنت ما زلت بخير .. أنك فى أوج صباك .

– صباى ؟! كم تعطينى من العمر ؟

وأنا خبير بعمر النساء .. أعرف أنه لايمكن أن يتعدى الثلاثين .. ولا بعد مائة عام ، وأنهن يعقدن على هذا السن فلا يتجاوزنه أبدا ..

أعرف كذلك أنهن جميعا تزوجن فى الثالثة عشرة ، وأنجبن الإبنة الأولى فى الرابعة عشرة .

وقلت لها لكى أقطع عليها خط الجدال .

– ثلاثون عاما ؟

– انقص عامين .

– ثمانية وعشرون ؟

وهزت رأسها موافقة .. وهززت رأسى مسلما . لم يكن هناك وقت ولا داع للجدل حول عمر المرأة الهاذية .. لتكن فى الثامنة عشرة إن أرادت .. المهم هو أن تتركنى أنهض ، وهممت بالنهوض مرة أخرى عندما أحسست بكفها فوق كفى وسمعتها تهمس :

– كنت فى الثالثة عشرة .

وتوقعت أن تقول (عندما تزوجت) ثم تردف بالجملة الطبيعية (وأنجبت ابنتى الأولى فى الرابعة عشرة) ولكنها خذلتنى وقالت :

– عندما أحببت .

وكان علىّ أن استسلم لسماع قصة حبها .. الذى أرداها صريعة . وتركها حطاما .. واستمرت تتحدث فى صوتها الخافت وتنهداتها المتقطعة :

– وكنت وقتذاك .. على النقيض مما تراني .. كنت سمينة .. سمينة جدا .. وكانت أمي فخورة بسمنتي .. كأنما كانت تثبت بى قدرتها على التغذية .. أو كأنما كنت لديها وزة أو بطة ، ولم تكن

سمنتى كطفلة شيئا مزعجا .. بل كانت أمرا مستحبا .. وكنت طفلة نموذجية اذ كان وجهى جميلا متوردا ، وأنت تدرى قيمة سمنة الجسد وحلاوة الوجه فى الأطفال .. ولكن هذه السمنة المستحبة بدأت تنقلب أمرا بغيضا ، ولاسيما أنها أخذت تزداد عاما بعد عام ، وبدأت أضيق بسمنتى .. بعد أن بلغت الثالثة عشرة .. ودخلت فى دور المرأة .. ورغم ضيقى بها لم أكن أجدها شيئا مخيفا .. حتى أحسست بالحب .

– أحسست بالحب ، وأنت فى الثالثة عشرة ؟

– أجل .

– أهذا هو الحب الذى حطمك ؟! انه عبث صبية .

– انتظر حتى أروى لك .. كان يقطن على مقربة منا ، وكانت بين أمى وأمه صداقة جيرة ، وأحببته أنا .. أحببته حبا حقيقيا . وليس عبث صبية كما تقول .. وأحب هو أختى النحيلة .. النحيلة بالنسبة لى طبعا .. أو ربما لم يحبها .. بل عبث معها .. ما سميته أنت عبث صبية .. ولم يحاول أن ينظر الىّ فقد كان جسدى السمين .. لايمكن أن يجعل منى أكثر من مادة للفكاهة والضحك .. وطويت مشاعرى فى صدرى .. وكانت كتل الشحم الراسخة عليه .. أسمك من أن تشع عاطفة أو احساسا .. كنت يائسة منه يأسا مطلقا .. زاده ما سمعته من أمه .. من أنه يكره السمان .. ويحب الفتاة الخفيفة كالفراشة .

وتستطيع أن تتخيل أية عقد ركبتها السمنة فى نفسى .. ولاسيما وأنا أسمع فى كل آونة من أمى هذه الجملة التقليدية (لو وضع وجهك على جسد أختك .. كوّنتما أجمل مخلوق فى العالم) .

وكان وجهى جميلا حقا .. ولكن ماذا يمكن أن يجدينى وهو على هذا الجسد الهائل .. لقد كنت على استعداد لأن أمنحه لأختى .. أو لأى مخلوق اذا استطاع أن يأخذ معه هذه الكتل الشحمية التى ترسب علىّ .

وسمعت من أمه ذات مرة أنه قال ان وجهى جميل .. فبدأت أحدق فى المرآة .. وأحسست بشىء من الاعتزاز به .. ونفذت الى نفسى بارقة أمل لأول مرة .

ان هناك ما يعجبه فىّ .. وأنا أستطيع أن أفوز بحبه .. لو حطمت هذا السد الكائن بينى وبينه ، أعنى : جسدى .

وهنا بدأت معركة هائلة .. بينى وبين جسدى .. أو على وجه أدق .. الكتل الشحمية المرصوصة عليه .

وصممت على أن أكسب المعركة .. فقد كنت أشعر أنها معركة فى سبيل حياتى .

وسافر هو وقتذاك فى بعثة الى أوروبا ، وأحسست بشىء من الغبطة ، وبدا لى أن سفره كان تدبيرا من عند الله حتى أخلو بجسدى فى المعركة .. وحتى أفاجئه عند عودته بمخلوقة أخرى .. تكون أهلا لحبه .

واندفعت فى المعركة .. بجنون وقسوة .. وبغير رفق ولا هوادة ، ولست أريد أن أثقل عليك بالتفاصيل .. المهم هو أنى كسبت المعركة .. والدليل الواضح هو هذا الهيكل الذى تراه أمامك .. انتصرت .. ولكن بثمن .. ثمن ضخم .. كاد يكلفنى حياتى .

لقد أعيانى (الرجيم) الحاد .. والإجهاد المضنى .. وبدأت كتل الشحم تنهار ، وتنهار معها قواى ، وعندما بدأت أجنى ثمار المعركة وأختال بجسدى الضامر النحيل .. خررت صريعة .. بعد أن أصبت بنزيف فى الرئة .. عرضنى للإصابة بالسل .. وكاد يدمر حياتى .

وصمتت المرأة وبدا عليها الإعياء وانتظرت أن تقول شيئا عن نتيجة انتصارها .. عن الهدف الذى من أجله دخلت المعركة .. عن الربح الذى كانت ترجوه ، والثمن الذى كانت تأمل فيه .

وطال صمتها حتى اضطررت الى أن أستحثها قائلا :

— وصاحبنا .. ماذا فعلت معه ؟

ورفعت كتفيها وأطلقت من أنفها ضحكتها القصيرة المريرة الساخرة :

— لاشيء .. لاشيء أبدا .. عندما عاد .. كنت أرقد صريعة الداء .. وكانت جيرتنا قد انتهت منذ فترة طويلة .. ولم يكن لديه أقل فكرة عنى .. كنت بالنسبة له شيئا مجهولا ، وعندما شفيت من الداء — ان كنت قد شفيت — طوتنى أعاصير الحياة .. تزوجت وطلقت .. وتزوجت وطلقت .. واندفعت ألاطم أمواج العيش .. فلم يبق منى أكثر مما ترى .. لقد ضاع انتصارى فى المعركة سدى ، وذهب ربحى فيها هباء .

ومددت يدها مرة أخرى لتضعها على يدى ، ولكنى سحبت يدى ونهضت .. كانت الساعة قد بلغت الثانية وكان علىّ أن أعود الى البيت .

ورأيتها تتطلع الى فى جزع متسائلة :

– إلى أين ؟

– أظن الوقت قد حان للعودة .

ونهضت متساندة الى المنضدة ونظرت الىّ نظرة راجية :

– ألا تبقى قليلا ؟

– سآتى اليك مرة أخرى .

وكنت قد وصلت الى باب الحجرة وفتحته مصمما على الخروج .. ومددت يدى أصافحها مودعا .. وأمسكت بيدى لاتريد أن تتركها ، وهتفت فى توسل أليم :

– ألا تريدنى ؟

وأحسست أنى أذللت المرأة باضطرارها الى عرض نفسها .. وخيل الىّ أن خير ما أفعل هو أن أعوّضها بالنقود .. وأن أدفع لها ثمن ما كان يجب أن أفعله .

ومددت يدى فأخرجت بضع ورقات مالية ، ثم دسستها فى يدها .

وبدأ عليها ألم مروّع كأن الأوراق جمرة لسعتها ، ووجدتها تطبق عليها بعصبية وتدفعها الىّ وتهمس :

– أهذا هو الذى أقبضه بعد طول انتظار ؟

وفجأة .. وكما يبرق وميض البرق .. بدت لى فى ملامحها الشاحبة الهزيلة .. صورة قديمة باهتة لوجه سمين متورد ممتلىء .. وجه طوته الأيام ومحاه الزمن .

وتذكرت بيتنا فى حى السيدة .. والصبية الصغيرة السنمينة التى لمحتها فى دارنا مرة أو مرتين .

أحسست بأنى أكاد أتهاوى فى موضعى ونظرت الى الطير الجريح وهو يترنح أمامى وقد بدت فى عينيه نظرة عتاب أليم ، وانساب الدمع من مآقيه .

وشددت على يدها فى صمت مشدوه دون أن أجسر على أن أقول شيئا .. وانحدرت على الدرج كالهارب من شبح ، أو العائد من جنازة .

وعندما وصلت الى الطريق رفعت رأسى ، فوجدت شبحها فى النافذة العالية تلوّح بيدها فى بطء وقد أحاطت بها الرقعة الداكنة والنجوم المتناثرة وقطعة القمر المختفية وراء السحب .

وانطلقت بى العربة وأنا أطبق على عجلة القيادة بيد ، وباليد الأخرى أطبقت على الأوراق المعادة .. أو على الثمن المرفوض .

★ ★ ★

دموع في ليلة حمراء

كانت بداية ليلة حمراء .. وكل شيء بدا معدا بمهارة وذوق واتقان ، وقد تعاونت مركبات الحجرة من عطر نفاذ ، وموسيقى ناعمة ، ولهب حار يتراقص فى جوف المدفأة ، وضوء خافت ينبعث من مصباح أحمر أنيق .. تعاونت كل هذه المركبات .. بالإضافة الى الأنثى الساخنة المتعطشة المتأهبة .. على خلق جو أحمر حار يرهف الحس ويؤجج المشاعر ، ويدفع الدماء حارة فى العروق .. ويهمس أو يصرخ .. فى غير تحفظ ولاحذر بأن فعلا ما – مما يسمونه منكرا – على وشك أن يحدث .

وكانت تجلس متربعة على أريكة منخفضة فى ركن الحجرة وقد شمرت كمى وساقى بيجامتها الصوفية الفضفاضة المخططة .. التى تعوّدت أن تسرع بارتدائها بمجرد أن تعبر قدماها بابه .. وبعد أن تنزع عنها جميع ملابسها .

وكان يجلس متكئا برأسه على كتفها ممددا ساقيه على الأريكة .. وأحس بأصابعها تعبث فى شعره وبأنفها يمس رأسه وبشفتيها تهمسان :

– أحب رائحة شعرك .

ولم يجب ، ورفع شفتيه فألصقهما بشفتيها فى قبلة قصيرة ثم عاد يحملق فى اللهب المتراقص .

ومرة أخرى عادت تهمس فى حرارة :

– انى أحبك .. حبا كامنا فى أعماقى .. أكتشفه كلما خلوت الى نفسى وحاولت سبر أغوارها .

ومرة أخرى لم يحرك شفتيه .. بالكلام ولا بالقبل .. وطال الصمت فعادت تهمس متسائلة :

– وأنت ؟

– انى أعزك ..

– ومن تحب اذن ؟

– لا أحب أحدا .. أو أحب التى معى ساعة أن تكون معى .

– هذا ليس حبا .

– هذا خير لى من الحب . عندما يحب الرجل عشر نساء .. يمتلك العشر .. وعندما يحب واحدة تمتلكه الواحدة .

– اذن فليس هناك من تمتلكك ؟

- أجل .

- ان فى هذا لى بعض العزاء .. وبعض الأمل فى أن أمتلكك يوما .

وساد الصمت مرة أخرى ومدت يدها فتناولت كأسا من فوق المنضدة ، ورشفت منه رشفة .. ثم أعادته .. وتساءلت فجأة :

- ألم تحب يوما ؟ ألم يمتلكك أحد ؟ أأمضيت حياتك هكذا .. لاتحس بنعمة الامتلاك ؟ أتجلس على قارعة الحياة .. لاتعرف سوى الإيجار .. ايجار نفسك وايجار الغير ؟

وضحك وقال وهو يرفع اليها عينيه :

- الإيجار يمنحنا نعمة الحرية .. ومتعة التغيير والتبديل والانطلاق ، وقتما نشاء وحيثما نشاء .

- ومتعة الاستقرار والسكينة والطمأنينة .. والحب ؟ ما رأيك فيها ؟ .. لقد كنت أظنك من قراءتى لك .. لاتفعل شيئا سوى الحب .. عجيب هذا التناقض بين ما نتوهمه فى الكتاب ومانجدهم عليه .. أمعقول أنك - مع كل ما كتبت - لم تحب أبدا ؟ لابد أن تكون اذن مخادعا كبيرا !

ولم يجب ، وبدا فى صمته كأن الحديث لايعنيه فهمست به عاتبة :

- لماذا لاتجيب ؟ حدثنى عن الحب ؟

وحوّل اليها بصره ناظرا اليها فى شيء من الدهشة وقال متسائلا :

- ماذا بك الليلة ؟

– انى أحبك ، واذا كنت لاتريد أن تبادلنى الحب .. فبادلنى أحاديث الحب .. ألم تحب ؟

وعاد يحملق فى اللهب المتراقص وبدا عليه شرود حزين وأجاب فى لهجة مقتضبة وصوت خافت :

– أحببت مرة .

– حدثنى عنها .. متى ؟ وكيف ؟

وبدأ كأنما ينفض عن نفسه شبحا جثم عليه وقال وهو يمد يده ليتناول كأسه ويهم بالنهوض :

– دعينى من هذا .. سأروى لك آخر نكتة .

وأحاطته بذراعيها وأبقته حيث كان وقالت فى اصرار :

– لا أريد أن أسمع نكتا .. أجلس وحدثنى عن الحب ..

وأحس بأصابعها تعاود العبث فى شعره وبأنفها يتشممه وبشفتيها تتسللان الى جبينه وعينيه ، وغمرته بموجة حنين جارفة أثارت فى نفسه شجنا كامنا وذكرى هاجعة ، ووضع الكأس جانبا وأخذت الألفاظ تنساب من شفتيه بطيئة هامسة كأنما يحدث نفسه .

– بدأت الصلة بيننا بالكتابة .. وكانت تقطن احدى بلدان الساحل ، وقرأت رسالتها أول مرة ضمن عشرات الرسائل التى يحملها البريد الىّ طالبة صورة أو امضاء أو كتابا أو اجابة لبضعة أسئلة أو حلا لمشكلة .. ورددت عليها فى بضع كلمات مهذبة مهديا اياها الصورة أو الكتاب – لست أذكر – الذى طلبته ، وردت علىّ – كما يردّ عنّى سواها – شاكرة فى رقه .. واسترسلت تعبر فى بضعة سطور عن

اعجابها بى وتقديرها لى .. ولم تكن فى هذا أيضا تفترق كثيرا عن العشرات غيرها .

وتبادلنا بضعة رسائل تقدير من جانبها وشكر من جانبى ، وبدأ التقدير يتطور الى أكثر من تقدير ، وبدأت الرسائل تطوى فى خلال سطورها كلمات الصداقة والأخوة .. والصلات الروحية وغيرها من التغييرات التى لايفصلها عن الحب سوى خيط دقيق .. أو التى يستغلها الحياء للتعبير عن الحب .

وحتى هذه التعبيرات لم تميز صاحبة الرسالة عن العشرات غيرها فقد كانت كلها تحمل مثل هذا التطور ، وكان علىّ أن أجيبهن جميعا كصديقات صغيرات عزيزات .. ولقد كنت أحس لهن كذلك فعلا ، فكنت حريصا فى ردّى على ألا أفرط فى الرقة .. فأمنحهن أملا أحمق أو أفرط فى الجفوة فأصدهن صدا موجعا .

وحملت الىّ احدى رسائلها أمنيتها فى أن ترانى قائلة : ان تلك قد باتت أقصى أمانيها وأنها لابد مع الزمن أن تنالها . وحتى هذه الأمنية لم تستطع أن تميز صاحبة الرسالة فقد حملتها الىّ غيرها من الرسائل .

وأنا أعرف نفسى جيدا .. أعرف أنى لاأستحق شيئا من هذا كله ، ولم أملك الا أن أضحك من نفسى ساخرا أن تكون رؤياى قد أضحت أمنية .. لكائن من كان .. فما بالك بهؤلاء الصغيرات العزيزات اللاتى أحب أنا نفسى رؤيتهن !

وهيأت لى الظروف فرصة السفر الى بلدتها .. ووجدتها فرصة سانحة لأن أراها هى وغيرها من أصحاب الرسائل المعجبة اللاتى يقطن نفس البلد ويتمنين رؤيتى . فأرسلت اليهم أنبئهن بقرب قدومى اليهن .

وكان علىّ اما أن ألقاهن جملة فى موعد أحدده لهن فى الفندق الذى أنوى النزول فيه .. أو ألقاهن فرادى ، كل فى موعد مختلف ، وكان لكل طريقة عيوبها ومزاياها . فالأولى تفضل الثانية فى أنها توفر علىّ الوقت والجهد فى الحديث ، والثانية توفر علىّ الحرج فى جمعهن سويا وفى خذلانهن عندما ترى كل منهم أنها ليست الوحيدة التى أخصها بالكتابة واللقاء .. وأنها لاتعدو واحدة مجهولة ضمن بقية المعجبات .

وفضلت الطريقة الثانية ، فقد خجلت أن أحيط نفسى فى الفندق بمظاهرة فتيات .. ووجدت أنى أول من سيحس بالحياة والحرج أمامهن .

واخترت منهن خمسا .. كنت أحس من كتابتهن شيئا – حرارة أو لطفا أو رقة – يميزهن عن غيرهن ويجعلهن أقرب الى نفسى .

وكانت هى .. ضمن هؤلاء الخمس .. اللاتى كتبت اليهن أنبئهن بقدومى وأحدد موعد اللقاء .

ولم يكن لدىّ من الفراغ سوى
بينهن ، فحددت المواعيد الخمسة
الظهر وتنتهى فى التاسعة .. وقدرت آلا يزيد [illegible] .
نصف ساعة تاركا ربع ساعة بين رحيلها ووصول الأخرى حتى لايحدث ارتطام بينهن .

وذهبت الى البلدة وأتممت أعمالى بها ، وقبيل الرابعة فى الأمسية الموعودة اتخذت مجلسى أمام منضدة فى ركن التراس المطل على

الشاطىء وكنت قد كتبت ورقة بأسمائمن وأمامها موعد لقاء كل منهن حتى لا أخلط بينهن .

وكنت أعرف سلفا أى نوع من الفتيات أوشك أن ألقى ، ولم أحاول أن أخدع نفسى فأمنيها بمتعة منتظرة .. بل أقنعتها بأنها تؤدى واجبا لابد من تأديته .. ولم أكن أتوقع قط أن أبصر بهن أى نوع من أنواع الجمال والإغراء .. وأكثر من هذا كنت أعرف من خلال رسائلهن ، سيذهب بها الحياء والارتباك الذى سيصيبهن عند أول لقاء لى .. وأن علىّ أن أمضى نصف الساعة التى سأجلس خلالها مع كل منهن فى دفعهن الى الحديث وفى خلق موضوع له .

وحلت الرابعة – موعد قدوم الأولى – وأنا أرقب مدخل التراس ، محملقا فى كل قبيحة صغيرة مرتبكة ، معتمدا على أن تعرفنى هى فتتجه الىّ .

ومضى ربع ساعة ولم يحضر أحد .. ونصف ساعة ولم يحضر أحد .. وبدأت أسترخى فى مقعدى مخرجا الأولى من حسابى ، تاركا لنفسى فرصة ربع ساعة راحة قبل أن أبدا فى انتظار الثانية .

ولكن .. لم يكد يتجاوز العقرب النصف ببضع دقائق .. حتى لمحت فتاة تجتاز المدخل ووجدت أعصابى المسترخاة تتوتر ، واحساسى يرهف .. وأخذت أرقبها جيدا .

ولم أتوقع قط أن تكون احدى المقيدات فى جدول مواعيدى .. اذ لم يكن ينطبق عليها الكثير من المقاييس التى فرضتها عليهن والصور التى تخيلتها لهن .. حقيقة كانت الى حد ما صغيرة .. والى حد ما .. مرتبكة مترددة ، كمن تبحث عن شىء .. ولكنها لم تكن قبيحة أبدا ..

بل كانت جميلة .. الجمال الأمثل الرقيق الذى يمس شيئا فى أعماقى .. والذى أشعر أن كل حواسى قد شدّت اليه .

وأخذت أرقبها .. ليست مراقبة منتظر موعدا .. أو متوقع لقاء .. بل مراقبة ملهوف مأخوذ .. متناسيا كل شيء عن معجباتى وعن جدول مواعيدى .. وتطايرت منى كل مظاهر الكبرياء والغرور الذى كان يفرضه علىّ الموقف فرضا .

ورأيت خطواتها تتباطأ وعيناها تبحثان فى حيرة بين المناضد ووجدت الحمق البيانى الذى لا أستطيع التخلص منه يدفعنى الى أن أتمنى أن تكون احداهن .. وأن أذهب اليها لأقول لها أنى أنا هو أنا .. وقبل أن أراجع حماقتى الصبيانية كانت عيناها – فى جولتها الباحثة – قد وصلتا الى الركن الذى أجلس فيه .. والتقتا بعينى .. وفى ثوان معدودات تصاعد الدم الى وجهها ، وافتر ثغرها عن ابتسامة جميلة وتلألأت عيناها بفرحة ممزوجة بدهشة .. ثم وجدتها تتجه الىّ فى خطوات سريعة وجلة .

ونهضت أتلقاها فى لهفة أطاحت بكل ما رسمته فى ذهنى من سمات التؤدة والهيبة التى كان يجب علىّ أن ألقى بها معجبى . وشدّت على يدى ، ومازالت تعلو ثغرها الابتسامة الحلوة الخجلة ..وقالت لى :

– لم أكن أتوقع أن أميزك بهذه السهولة .. انى أشعر أنها ليست المرة الأولى التى أراك فيها .. لقد عرفتك بمجرد أن التقت عيناى بعينيك .. وأنت .. أعرفتنى ؟

وقلت وأنا أقدم لها مقعدا وأجلس قبالتها .. محدقا فى وجهها :

– طبعا عرفتك .

ولم أكن مدعيا في قولي .. فقد أحسست أنى عرفتها من الصورة المرسومة فى باطنى منذ عشرات السنين .

ورمقتنى بعينيها الحلوتين الباسمتين وقالت مازحة :

- من أكون ؟

ولمحت الساعة فى معصمى .. كانت الخامسة الا ربعا .. وأحسست أنى قد أسقط فى يدى .. من تكون ؟ الأولى .. أم الثانية ؟ .. كوثر .. أم بثينة .. الاحتمالان جائزان ، فقد تكون كوثر متأخرة فى موعدها .. أو بثينة مبكرة فيه .

ولو قلت لها هذه وكانتت تلك .. أو تلك وكانت هذه .. لجرحت مشاعرها .. وأظهرت أنى لا أتوقع مجيئها هى .. بل كنت أنتظر أخرى .. وأنى أخطأت فيها .. وتحتم عليها الرحيل لتترك مجالا للأخرى التى قلت اسمها .

وكرهت أن أفقدها بعد أن أقبلت علىّ بمثل هذه اللهفة ، وبعد أن أقبلت أنا عليها بلهفة أشد وكأنى لا أنتظر سواها .

وكانت لم تزل تنظر الىّ فى ابتسامتها الرقيقة ، وقد بدت عليها أقصى مظاهر الرضاء والسعادة .. وعادت تتساءل :

- لم تقل من أكون ؟

- وكان علىّ أن أقول شيئا لايفضح أمرى ، وأن أستدرجها فى الحديث ، علها تفصح فى أقوالها عمن تكون .

وقلت محاولا اكتساب وقت يمنحنى فرصة التفكير :

— أتعتقدين حقا أنى لا أعرف من تكونين ؟

ومرّ بذهنى أن خير طريقة أعرفها بها هو أن أعرف منها حقيقة موعدها ، فاذا كان الرابعة فهى كوثر ، واذا كان الخامسة فهى بثينة .

وقبل أن تجيبنى أردفت قائلا :

— كيف لا أعرفك .. أليس بيننا موعدك ؟

— أجل .. لقد تأخرت عليك .. وكنت أخشى الأ أجدك .

— أتتاخرين دائما فى مواعيدك ياكوثر ؟

وأحسست بموجة من السعادة تغمر وجهها وأنا أنطق باسمها .. ولم يكن من العسير علىّ أن أعرفه وأغامر بنطقه بعد أن اعتذرت عن التأخير ، فأيقنت أنها لابد أن تكون فتاة الرابعة كوثر .. ولكنى أحسست بمشكلة جديدة تطل برأسها بيننا .

كانت الساعة قد بلغت الخامسة الا الربع ، ولم يبق سوى ربع ساعة على الموعد الثانى ، واذا كانت فتاة الرابعة قد تأخرت نصف ساعة فليس هناك من يضمن لى أن فتاة الخامسة لن تأتى مبكرة عن موعدها .. ولاسيما بعد أن بت أتمنى تأخيرها ، والأقدار تأبى دائما أن تنيلنا مانتمنى .

وتملكنى قلق وحيرة ، فقد كرهت أن يحرمنى مخلوق — أيا كان — من هذه الأمنية العذبة الجالسة أمامى .. وأحسست أنه لاتوجد على ظهر الأرض قوة تستطيع أن تنزعها منى بعد بضع دقائق .

ووجدت هذا الشىء الذى أثارته فى أعماقى .. يملؤنى رغبة فى أن أفر بها بعيدا .. وتلفت حولى وأشرت الى الجرسون ، وبدل أن

أطلب لها شيئا نقدته حسابه عما طلبت وبمنتهى البساطة ، وبمنتهى الحمق وقلة الذوق نهضت قائلا :

– المكان مزدحم .. (ولم يكن مزدحما) .. ألديك مانع من أن نتمشى على الشاطىء .. أو نذهب الى أى مكان آخر ؟

ويبدو أن فرحتها بلقائى كانت على استعداد لتغطية كل مساوئى وتصرفاتى غير الطبيعية ، فقد رأيتها تتبعنى فى استسلام ومازالت يكسو وجهها الإشراق والسعادة والابتسامة المتلالئة .. وأحسست بالراحة تملأ نفسى وأنا أسير واياها متلاصقين على رمال الشاطىء .. ووجدتنى أستعيد رسائلها فى ذهنى .

كانت أرقهن قولا ، وأحرهن مشاعرا وأجملهن روحا ، وأشدهن صلة بى واجتراء فى الحقوق علىّ ، ولم أكن أشك – من سابق تجاربى – فى أنها لابد أن تكون أقبحهن شكلا .. فقد علمتنى التجارب أن جمال البعد غالبا ما يتناسب تناسبا عكسيا مع جمال القرب ، وأن الله يوزع المزايا على الناس بقدر .. اللهم الا قلة شاذة يتجمع فيها الفضل كله أو السوء كله .

وتحدثنا كثيرا ، ولم يصعب علىّ أن أزيل عنها الرهبة الأولى . وأن أجعلها تؤمن بسهولة .. بعد أن كانت – على حد قولها – لاتصدق أنها معى وأنها تسير بجوارى جنبا الى جنب .. بأنها أصبحت أقرب الأصدقاء الىّ .

فعلت هذا بلا جهد ولا كلفة .. لم أتكلف سوى أن تركت نفسى على سجيتها . وليس أسهل على نفسى من الانطلاق على سجيتها

عندما أكون بجوار شخص أحبه ، ولقد أحسست من اللحظة الأولى التى رأيت فيها هذه المخلوقة .. أنى أحبها .

وأنا على مرّ السنين .. وعلى ما يفرضه علىّ السن من تؤدة واحتشام .. لا أستطيع أن أنتزع نفسى من طفولتى وصباى فى لحظة انسجامى مع من أحب ، فانطلقت مع الحلوة الرقيقة المرهفة السائرة بجوارى أمرح وأضحك خارجا عن كل قيود الكلفة والتزمت داخلا فى نفسى الشاعرة الذائبة .

وقلت لها الكثير ، وقالت لى الكثير .. حدثتنى عن أمها وأبيها وأخواتها ومدرستها وزميلاتها ، ثم عند بدء قراءتها لى وكتابتها الّى وأحاسيسها نحوى .

وكان البحر قد اقتضم الشمس وأخذ فى ابتلاعها على حافة الأفق . وامتدت يد الظلمة لتمسح بقايا الدماء المنتشرة فى الشفق . ودون أن نشعر وجدنا الظلام يحوطنا فيما أحاط .. واستقر بنا المقام على حافة صخرة يتطاير من حولها الرذاذ ويتلاطم الموج .. ورأيتها ترفع الّى وجهها وعلى شفتيها ابتسامتها المشرفة وهى تتساءل فى استحياء :

– لم تقل لى حتى الآن .. كيف وجدتنى ؟

– لم أقل لك حتى الآن ؟ . أحقا تعنين سؤالك هذا ؟

– أقلت لى ؟

– لم أقل بلسانى .. ولكن ألم تحسى أنت كيف وجدتك ؟ وبعد أن نسيت نفسى .. ونسيت كل ما حولى وأخذت أسير معك كصبية العشاق تسائلينى كيف وجدتك ! لقد كان مفروضا ألا يزيد

لقائى لك عن نصف ساعة أعتذر لك بعدها بأنى على موعد ، ثم ألقى بعدك أربع معجبات أخريات ، ولكنى لم أكد أراك حتى اختطفتك وفررت بك الى هنا . أعرفت الآن كيف وجدتك ؟

وبدا على سيمائها التأثر وأطبقت شفتيها على ابتسامتها الدائمة .. وسمعتها تهمس فى سرور وقد أطرقت برأسها وحدقت أسفل الصخرة :

– عجيبة هذه الأحلام !

– كيف ؟

– لقد حلمت ليلة أمس أنى معك .. كان حلما لذيذا ما قضيت فى حياتى لحظات أمتع منه .

– قصيه على .. لعلى احققه لك .

ورفعت رأسها وارتسمت على شفتيها ابتسامة مستحيية وقالت فى حياء لذيذ :

– لاأستطيع .. انى أخجل أن أقصه .

– أين كنا ؟

– فى حديقة دارنا ، وقد أتيت تسأل عن عنوان مجهول .. فعرفتك ، وادعيت أن عنواننا هو ماتريد ، وتحايلت على ادخالك .. وجلست معى فى الأرجوحة الكائنة أسفل حجرتى والتى تعودت أن أقرأ فيها كتبك ، وعندما اعترفت لك بخدعتى قلت انك تعرفها وأنك تريدنى أنا ، وكان الليل مخيما ، والسكون سائدا ، والقمر مطلا ، وجلسنا نقرأ سويا .. ثم أدرت لك الموسيقى .. التى كنت أطلب منك فى رسائلى سماعها . وسألتك أن تنهض لترقص معى .

وصمتت مطرقة برأسها ، فعدت أتساءل :

– وبعد ؟ أكملى الحلم .. حتى أحققه لك .

– لا أستطيع .

– أنهضت معك ؟ ..

– وأشارت برأسها :

– أجل .

– وأمسكت بيدك ؟ ..

ومددت يمناى فأمسكت بها كفها ، ثم عدت أتساءل :

– وضممتك بيدى ..

وأحطتها بذراعى الآخر فى رفق روجدتها تغمض عينيها كالمستغرقة فى حلم ، وهى تشير برأسها اشارة خفيفة (أجل) .

وفى صمت وضعت شفتى على شفتيها فى مسة خفيفة وبدا لى وجهها فى الظلام كأنه وجه قديسة . ومضت برهة قبل أن تفتح عينيها المغرورقتين وتهمس فى لهجة ذائبة :

– لست أدرى كيف أشكرك .. ما ظننت أن حلمى سيحققه الله بمثل هذه السرعة .

وافترقنا ليلتذاك ، وعدت وأنا محمل القلب بأجمل ما حمل قلب بشر من حب .

واستمر الحب بيننا يزداد على مرّ الأيام .. حب حقيقى كأعنف ما يكون الحب وأحرّ ما يكون الهيام ، وانكمشت رسائل المعجبين بعد أن تركز كل ردّى على رسالة واحدة .. حارة ملتهبة .

وقد يبدو الحب غير متكافىء الكفتين ، وقد يثير الدهشة والعجب ألا يسقط ماهرا محنكا خبيرا بالنساء مدرعا بتجاربه ضد فتنتهن سوى طفلة بريئة عاطلة من كل قدرة وخبرة .. ولكننى أعتقد أن هذا الشيء يجب ألا يبعث على الدهشة .. فلست أرى هناك مقاييس معينة يمكن أن نخضع لها الحب .. بل يبدو لى أن المسألة على النقيض ، وأن أخطر أنواع النساء ، وأشدهن تأثيرا على الكتاب والفنانين وأصحاب التجارب هن أشدهن سذاجة وبراءة وبساطة .

على أية حال .. لست أجد هناك ما يدعو للمناقشة ، أو التبرير أو الاعتذار .. فالأمر قد وقع .. ولم يكن هناك مفر من التسليم بالواقع . وبدأت أدبر أمرى وأنظم حياتى على أساس حالتى الجديدة .. حالة أنسان محب جاد فى حبه مخلص لمن يحب .

وبدأت بعد عمر طويل من العبث واللهو .. تصيبنى حالة من الزهد والقناعة .. وتساقطت الرفيقات من حولى كما تتساقط أوراق الشجر .. واستطاعت الفتاة الصغيرة أن تدفع عني من الخطايا ما عجزت عنه نذر السماوات وعظات الرسل .

وبلغت بى الجدية فى مشاعرى الى الحد الذى هانت على فيه حريتى .. ولم يعد الزواج فى نظرى مصابا يتحتم تجنبه وبلية يجب اتقاؤها ، بل وجدت نظرياتى فى الزواج تنقلب رأسا على عقب واذا بتفكيرى ينتهى الى أنه خير وسيلة للاستقرار والطمأنينة .

وكنت أذهب للقاء فى كل فرصة تسنح لى .. صيفا وشتاء . ولم يتعد اللقاء بيننا صخرة الشاطىء أو ركننا فى أحد مقاهيه .. ولاتعددت علاقتنا .. مسة الشفاه .. التى حققت لها بها أول حلم .

وبدأنا نطرق حديث الزواج طرقا خفيفا ، وحاولت هى تجنبه فى أول الأمر ليقينها مما تعرفه عن آرائى وطريقة حياتى أنى أكرهه .. ولقناعتها بما كان بيننا .. وعدم محاولتها التطلع الى تجاوزه أو الطمع فى أكثر منه .

وزاد حديثنا عن الزواج والعائلة ، وربة البيت والأولاد فى لقائنا ورسائلنا ، حتى انتهى الأمر بيننا الى قبوله كفكرة ، ثم تأكيده وتحديده كأمر واجب منته .

ولم يبد لنا اندفاعنا فى الحب .. اى نوع من انواع الموانع تقف امام رغبتنا فى الزواج .. لا ارادة اهل ، ولا فارق سن ، ولاشىء ابدا .. كل ذلك كان حصى صغيرا امام تيار حبنا .

وحملنى القطار اليها ذات ليلة .. بعد اتفاق على لقاء يتبعه تقدم لطلب يدها .. وجلست فى عربة القطار اضيع الوقت بمراجعة مقال وبضعة بروفات ثم اعدتها الى الحقيبة واخرجت بضعة الرسائل التى تسلمتها قبيل الرحيل ولم يسمح لى الوقت بفضها .

ولم اجد بالرسائل جديدا .. نفس الطلبات ونفس الأسئلة ونفس المشاكل .. حتى توقفت امام احداها ومررت بصرى بخفة على بضعة الأسطر الأولى .. ثم وجدتنى اتمهل وتمعنت فى القراءة وقد تملكتنى الدهشة .

انى أذكر الرسالة كلمة .. كلمة .. لقد كانت كما يلى :

(لا أريد أن أثقل عليك بكلام كثير لا أجد فى النفس الصبر عليه ولا الجهد له . كان يجب أن أكتب اليك من قبل لامنعك من الاستمرار فى الطريق الذى انتهى بك الى ما وصلت اليه ، ولكن لم يخطر لى ببال أن العلاقة مستمرة ، وأن طريقا واحدا مازال يضمكما سويا ليؤدى بكما الى هذه النهاية المذهلة . كل ما رأيته هو رساله منك اليها تبينت منها أنها رد على احدى رسائلها ، وأحسست برجفة عندما قرأت امضاءك .. ولم املك أن أزجرها عنك ،وآمرها بالكف عما سمي عبث اطفال) .

(ما أحمقنى .. كان يجب أن أقول لك أولا من أنا .. ولكنى افترضت أنك تعرفنى كما أعرفك ، أنا الآن – ام كوثر – وأظن هذا تعريفا كافيا بالنسبة لك .. لانك لاشك تعرف كوثر جيدا .. تشهد على ذلك كومة رسائلك الملتهبة اليها) .

(أظن كوثر قد حدثتك عني .. وأظنك قد كوّنت فى ذهنك صورة معينة لى .. وان كنت أعتقد أنه لايمكن أن تنطبق بحال على الصورة الواقعة لى .. والتى يمكن لو قلبت اليوم ذهنك أن تجدها قابعة ضمن عشرات أو مئات القابعات فيه) .

(لست أدرى ما اذا كنت أستطيع تذكيرك بنفسى .. وان كنت سأحاول .. فاذا فشلت فيجب عليك أن تأخذ كلامى قضية مسلما بها ، فأنا أذكرك جيدا ، لأنك تمثل لى خطيئة واحدة فى حياتى .. بينما أمثل فى حياتك واحدة من آلاف الخطايا .

(لقيتك أول وآخر مرة وأنا حديثة عهد بالزواج فى زيارة لى بالقاهرة . وكنت شديدة التأثر بك وبكتابتك .. تأثرا قد يبلغ حد الوله . ودعوتنى الى زيارتك لتناول الشاى .. ولم أستطيع رفض الدعوة .. وأنا أجد فى لقائى بك شبه معجزة .. وكانت لم تزل أمامى بضع ساعات على القطار .. وذهبت معك بعد أن دعتنا واسطة التعارف .

(وضمنا واياك بيتك الساحر لبضع ساعات . لا أعتقد أنك تذكرها .. أو تذكرها كعينة لمئات الساعات المشابهة ، ومع ذلك فما زلت أذكرها أنا بعد كل السنين الطوال كأنها حدثت بالأمس ، أذكر أريكة الركن الخضراء المنخفضة واللهب المتراقص فى المدفأة والأشعة الهادئة المنبعثة من المصباح الأحمر والموسيقى الناعمة .. أذكر كل هذا جيدا ، وأذكر اللوحة فوق المدفأة وأذكرك ترنو الىّ فى لهفة وأذكر استسلامى بلا مقاومة .. وأذكر بعد هذا أمتع ساعات عمرى .

(وتركتك بغير ندم والى غير رجعة ، وأحسست أنى قد ذقت طعم شىء .. كان يتحتم علىّ أن أذوقه ، واعتبرت المسألة تجربة أولى وأخيرة فى سبيل ما يسمونه بالخطيئة .

(ونسيت كل ما كان من أمرى معك .. وصددت نفسى عن القراءة لك خشية أن يدفعنى الحنين اليك مرة أخرى .. وأنجبت ابنتى الوحيدة .. ومرت بى السنون وأنا مثال للزوجة الصالحة والأم المثلى التى لم تشب حياتها شائبة .

(وعندما بدأت ابنتى القراءة لك لم أحاول أن أصدها فقد كنت أجدك – مع السنين التى كرت ، والبعد الذى طال – أناى من إن تكون مصدر خطر حتى وجدت رسالتك اليها وعلمت أنها كتبت اليك فنهيتها عنك .

(ومرت الأيام .. وأنا آمنة مطمئنة .. لم يطف شبحك بذهنى مرة واحدة .. حتى وجدت بالأمس .. كومة رسائلك اليها .

(عجيب هذا الذى حدث ! كيف ؟ ! ومتى ؟ ! ولماذا ؟ ما الذى دفعك اليها ؟ وما الذى دفعها اليك ؟

(ولقد رأيت صورك ، وقرأت رسائلك ، وعجيب فى نفسى كيف استطعت أن تحتفظ باشراقة وجهك وفتوّة روحك ، ونضارة قلبك .. ان السنين السبعة عشر لم تغير فيك كثيرا .

(وأدركت ببساطة كيف أحبتك .. ولم يصعب علىّ بالطبع أن أدرك كيف أحببتها .

(ان المسألة فى نظرى لاغبار عليها لاسيما وقد كنت معها — على غير ما كنت مع أمها — مهذبا أمينا .. وقصدت واياها الى الطريق الصواب وتعاهدتما على الزواج واتفقتما كما أرى فى آخر خطاب على أن تتقدم لطلب يدها .
(كل هذا معقول .. ولكن ثمة أمر بسيط أريد أن أنبهك اليه . أمر قد تكون خالى الذهن منه .

(لقد حملت فى كوثر فى الشهر الذى لقيتك فيه ، ولست أستطيع أن أجزم بالضبط من يكون أبوها أنت أم زوجى ؟ ولكن الشىء الواضح الذى أستطيع أن أجزم به .. هو أنى لم أحمل بعد هذا من أبيها أبدا .

(أنا لا أستطيع أن أجزم بشىء .. وقد يكون أبوها هو فعلا أبوها .. وقد يكون أصيب بالعقم بعد ذلك .. أجل قد يكون ذلك ، وقد لايكون .

(وانى لم أفكر فى المسألة سوى اليوم ، وكوم الرسائل أمامى ومن ورائه شبحك يتقدم لطلب يدها .. والشك يكاد يقتلنى .

(لماذا ؟ من بين بقية بنات الأرض ، يقع اختيارك عليها ؟ ! .

(لقد عرضت عليك الأمر ، وسواء ذكرتنى أم وجدتنى ضائعة فى غمار مغامراتك .. فثق أن ما قلت هو الحق .

(واذا استطعت بعد كل ما قلت أن تقاوم الشك فتقدم لطلب يدها .. انى فى انتظارك .

وانقضت الصاعقة لتتركنى حطاما عاجزا عن الحراك والتفكير ، وأطبقت على رأسى بكتفى أمنعه من الانفجار والتطاير .. وأحسست بصوت عجلات القطار المنتظمة كأنها مطارق تهوى علىّ وأحسست من تباطؤ سير القطار بأنه يوشك أن يصل الى المحطة .. وودت لو استطعت أن أوقف القطار أو أعيده من حيث أتى .. ولكن أضواء المدينة بدأت تتواتر مؤذنة بالوصول .

ووجدت نفسى قد جمدت فى مقعدى كأنى قد أعجزنى شلل ، ومر الوقت بطيئا وأنا جاثم لا أتحرك حتى دق الجرس وعلا الصفير ، وبدأت عجلات القطار تدور وأخذ القطار يتباعد فى بطء .

وعلى ضوء أحد المصابيح لمحت وجهها يبحث فى لهفة بين النوافذ وفجأة التقت عيناها بعينى وأنا متصلق بالمقعد فى جلستى الصامتة العاجزة فهتفت باسمى فى صرخة مجنونة وانطلقت تعدو وراء القطار .

وأخذت أرقب شبحها يتضاءل وصرخاتها باسمى تخفت رويدا رويدا حتى غلبتها ضجة القطار وابتلعتها الظلمات .

وساد الصمت .. صمت أليم موجع .. ومد طرف لسانه يلعق دمعة ساخنة مالحة .. انسابت حتى شفتيه .. ولم تستطع صاحبته أن تكبح جماح دمعها .. تركتة ينساب فى غزارة .

وكان هو أول من تملك نفسه .. ورفع اليها بصره وقال فى مرارة :

– ألم أقل لك .. ان الإيجار خير من الامتلاك .

★ ★ ★

ليلة حب

كان يكره نفسه !!

يكره منها ذلك الحذر والتردد والضعف ، والخوف كلما أضحت محطا للأنظار .

لم تكن القدرة هى التى تنقصه .. ولكنها كانت الثقة .. كانت الجرأة والإقدام .

انه لم يكن عاجزا ولاضعيفا .. وكان يملك الجهد والقدرة ، ولكن هذه القدرة لم تكن تستطيع أن تتعدى النطاق الضيق الذى يقوم فيه بالتدريب والمران حيث يشعر أنه ليس هناك من يرقبه ، وأن عمله لاتتوقف عليه نتائج حاسمة أو كسب خطير مرتقب .

فاذا ما خرج من ذلك النطاق الضيق وأحس بالأنظار تتطلع إليه .. وبأن على جهوده تتوقف نتائج خطيرة لنفسه أو لفريقه أو لمدرسته .. طارت من نفسه الثقة .. وضاعت القدرة وبدد الجهد .. وتملكه الاضطراب والخوف .. وتمنى لو استطاع الفرار من الميدان .

تلك كانت شيمته فى كل عمل يؤديه .. سواء أكان عمله ذهنيا أو جثمانيا .. وسواء أكان امتحانا دراحيا أو مبارة رياضية .

ما استطاعت نفسه أبدا أن تنصفه أمام الغير .. بل كانت تخذله فى كل مباراة وامتحان ومسابقة .

واتهمه رفاق الطفولة والصبا بالجبن .. واقتنع هو بتهمتهم .. ولم يكن يملك غير ذلك .. وكل الشواهد .. والظواهر تدل عليها وتؤكد وجودها .. وهو يشعر فى قرارة نفسه .. انه حقا يفتقد الثقة والجرأة والشجاعة والإقدام .

ودخل الكلية الحربية .

والكلية الحربية – لمن لايعرفها – أشبه بدوامة فى أيامها الأولى .. التى يطلقون عليها .. أيام المستجدين .. والطلبة فيها أشبه بكوم من القش تدور به الدوامة .. لايميز فيها واحد عن غيره .. ولايعرف فيها الطالب رأسه من قدمه ولا بداية يومه من نهايته .. بل تظل الدوامة تلف وكأنها تلعب به (دوخينى يالمونة) فلا تتركه عند نوبة نوم الا وقد أضحى جسدا هامدا لاتبعث فيه الحياة الا نوبة الصحيان .

وأضاعت رهبة الكلية ومشقتها والذعر الذى يشيعه صف الضباط فى نفوس المستجدين .. والبقية الباقية .. من الثقة التى كان يحتفظ بها لنفسه .. فى نطاقه الضيق .. عندما كان يشعر أنه وحده ليس هناك من يرقبه .. لأنه لم يشعر قط فى الكلية أنه وحده .. وأنه ليس هناك من يرقبه حتى فى ساعات النوم .

ووجد نفسه .. يتحرك فى دوامة الكلية ضالا نكرة مجهولا .. كأنه فرد فى قطيع متشابه لايميزه مخلوق ، ولايشعر به انسان .

حتى أحس ذات يوم بأنه ليس مجهولا تماما .. بل ان هناك – لدهشته الشديدة – من يعرفه ويميزه .

لم يكن مخلوقا ذا بال .. ولا مكانة ولاحيثية ، ولكنه مع ذلك سرّه أن يميزه .. والإنسان النكرة المجهول .. لايدقق كثيرا .. فى حيثية من يمنحه شرف التمييز بين القطيع المتشابه المجهول .

ومع ذلك فلم تدم فرحته بالتمييز طويلا .. عندما اتضح له أن الرجل .. قد منح هذا الشرف جميع زملائه من الطلبة .. وأنه قد ميز القطيع فردا .. فردا .

ولم يمنع ضياع فرحته بالتمييز .. وسخطه على الرجل الذى أشرك الكل فى التمييز والمعرفة واعجابه المفرط بذكائه ودهشته الشديدة من قوة ذاكرته .

كان معقولا أن يميز الرجل صف الضباط فهم قلة معروفة مسيطرة مميزة .. وكان معقولا أيضا أن يعاونه بعض الذكاء المفترض – رغم أميته وتقدم سنه – على معرفة طلبة القسم المتوسط فهم لايزيدون على بضعة عشر طالبا وقد مضى عليه عام وهو يبيع لهم (الاسباتس والسيدر وبقية أنواع الكازوزة) .

كل هذا كان معقولا .. أما أن يميز الرجل دفعة المستجدين بأكملها وقد بلغت الخمسين .. ولم يمض عليها أكثر من شهر فى المدرسة .. فقد كان أمرا بلاشك يستحق كل اعجاب وتقدير .

ولقد وضحت قدرة الليثى (اسم الرجل) لصاحبنا عندما اندفع اليه أول مرة وقد استقر بصندوقه المليء بمختلف أنواع الكازوزة تحت

السلم الحجرى المفضى الى عنابر النوم يرجوه أن يحتفظ (بالبل) حتى يأخذه منه عقب انتهاء الحصة .

(والبل) لمن لا يعرفه من غير العسكريين ، هو مجموعتان من الأكياس المزررة توضع فيها الطلقات وتشدان الى الكتفين بحمالات والى الوسط بحزام ويلبسهما الطلبة فى طوابير التمرين على البندقية .

ولم يكن صاحبنا وحده الذى اندفع الى الليثى يرجوه الاحتفاظ بالبل ، فقد اندفع بعض أفراد الفرقة يرجونه نفس الرجاء اذ كانت الحصة تقع بين طابورين ، ولم يكن لدى الطلبة وقت للصعود الى العنابر لوضع البل والهبوط الى الفصل ، ثم الصعود لإحضارها مرة أخرى بعد الانتهاء من الحصة للبسها فى الطابور التالى ، اذ كان المفروض ألا يدخلوا الحصة بها ، وكان الزمن بين الحصص لايكفى للصعود الى العنابر والهبوط منها .

وكان أكثر ما يقلق صاحبنا وهو جالس فى الحصة ، هو ما يخشاه من خلط البل .. ولكن لم تكد تنتهى الحصة ويذهب الى الرجل حتى وجده يسلم كل واحد بلة ، بابتسامة مرحبة وكأنه يعرف كلا منهم معرفة وثيقة .

وبدا له أن قدرة الرجل على تمييزهم سببها قلة عددهم ، وأنه استطاع ببعض التذكرة أن يعى صورة لكل منهم ويعرف أين وضع بله ، ولم يعجزه بعد ذلك أن يسلمه له .

ولكن الأمر تكرر بعد ذلك ، واستقرب الطلبة كشك الليثى الكائن أسفل السلم .. وازداد عدد الطلبة الذين يحتفظون بالبل عنده .. ومع ذلك فلم تخن الرجل ذاكرته .. بل كان يأخذ من كل منهم بله ،

بابتسامته المرحبة ، فاذا عاد لأخذه سلمه له بلا أدنى تشكك .. بل كان يبدو وكأنه يعرف كلا منهم معرفة وثيقة .

ومرت ايام المستجدين بصاحبنا وهو يعدو مع القطيع فى الدوامة .. نكرة مجهولا .. لايميزه أحد .. ولايحترمه مخلوق .: سوى عم الليثى .

حتى بدأ الخروج فى عطلات الخميس والجمعة ، فاذا به يجد نفسه مميزا ، ومعروفا .. بل وأكثر من هذا مما لايجسر على تحديده بالضبط .. من مخلوق .. أجل وأخطر .. من الليثى .

كان مخلوقا ناعما رقيقا .. وعلاقته بالمخلوقات الناعمة الرقيقة .. كانت كلها فيما مضى .. علاقة من طرف واحد ، فما كانت خشيته ووجله وخوفه واضطرابه ، وحاجته الى الثقة والإقدام تهىء له أكثر من التطلع والتمنى والهيام المطوى فى الصدر والجوى الخبىء بين الضلوع .

وكان المخلوق الناعم الجديد الذى أحس به وميزه ، وربما أكثر من ذلك .. هى مديحة صغرى أختى رأفت أعز أصحابه فى الكلية .

رآها أول مرة فى دار صاحبه ، وقد دعاه ذات خميس لسماع أول اذاعة لأنشودة عبد الوهاب (كليوباترا) .

والصوت منبعث فى سكون الليل .. بشعره الرقيق ، ولحنه العذب ، والناعمة متكئة بذقنها على كفها ومرفقها على ساقها ، وقد مالت فى مقعدها الى الأمام مأخوذة بالإصغاء .. وقد انعكس ضوء المدفأة الأحمر المتراقص على جانب وجهها فبدا رقيقا رائعا بطرف أنفه الأشم وفمه الرقيق المضموم .

وهو موزع المشاعر بين اللحن المنبعث والوجه المصفى وكل ما حوله من تعاون على ارهاف حسه والهاب عواطفه والصوت يردد :

(ياحبيبى ! هذه ليلة حبى آه لو شاركتنى أفراح قلبى)

وتنهيدة رقيقة تنبعث من صدر الناعمة الحالمة المصغية النشوى .

ولم يكن هناك أعنف من هذا هجوما على قلب ، ولا أحر من ذلك دعوة الى حب .

وأحبها صاحبنا .. بكل ما يملك من عجز وخشية وضياع للثقة .. وفقدان للجرأة والإقدام ، ومرّت أيامه حثيثات سراعا .. وهو مغرق فى حبه السلبى ، وعاطفته المستسلمة العاجزة .

وفى المدرسة بدأت طبيعة خلقه تظهر أشد ما تكون وضوحا وجلاء .. قدرة فى المران والتدريب .. وعجز فى المباريات والمسابقات .. قوة بينهُ وبين نفسه وضعف أمام المشاهدين . .

وفى كل مرة يحاول التماسك والتجلد والاحتفاظ بثقة فى نفسه وقوته وقدرته .. ولايكاد يشعر بالأنظار تحيط به ، ويحس بأن عليه تتوقف نتيجة المباراة حتى تتسارع دقات قلبه ، وتتوتر أعصابه ويفقد كل سلطان على نفسه .. ولايبقى منه الا انسان عاجز يكاد يخر جزعا واعياء .

وحلّ موعد الحفل العام الذى تقيمه المدرسة آخر السنة وكان أكثر مايخشاه هو حضورها لمشاهدته .

وبدأ الحفل وهو يعلم أنها فيه .. ولكى لانظلمه نقر بأنه بذل أقصى مايمكن أن يبذله مخلوق للسيطرة على أعصابه والاحتفاظ بقدرته

وبثقته فى نفسه .. ولكنه رغم ذلك كان فى مباريات الحفل مثلا للعجز والضعف .. حتى لقد كان فى معظمها السبب الأول لهزيمة فريقه .

وتسلل من الحفل وحيدا .. يائسا .. منهارا .. وقادته قدماه الى أسفل السلم الحجرى .. الى كشك الليثى .

وتلقاه الرجل هاشا مرحبا .. وقدّم اليه زجاجة (سيدر) مثلجة يتصاعد من فوهتها الدخان ، ويعلو صدرها ندى الرطوبة .

وجلس يشرب فى صمت مطرقا حزينا .. وحانت منه التفاته الى العجوز البادى الرضا والقرارة .. وطاف بذهنه أن يسأله سؤالا طالما تاق الى الاستفسار عنه .. وهو كيف يحفظ الوجوه بمثل هذه السهولة .. وكيف يميزهم فردا فردا ، ويرد اليهم حوائجهم التى يحتفظ بها دون خلط ولا خطأ .

ورفع رأسه ووجه السؤال الى الرجل .

وابتسم الرجل .. ثم اتسعت ابتسامته حتى كشفت عن بضع أسنان معلقة فى لثته .. ثم انطلقت منه ضحكة طروب وأجاب :

— تريد أن تعرف حقا ؟
— أجل .
— على أن تبقيه سرا ؟
— أجل .. أجل .
— انى اميز كلا منكم بظاهرة فيه .. فى وجهه .. فى جسده .. فى صوته .. فى خلقه .. فى أى شىء مميز به .. وأسميه بهذه الظاهرة .. فهذا مثلا ذو الأنف الكبير .. وهذا الطويل وآخر ذو

الرأسين .. وآخر الجعجاع .. وآخر الأخرس .. والحمار .. والعاقل .. والأنيق .. والمفشكل .. والدّهل .. والحدق . هذه كلها أسماء أميزكم بها ولا أخطئها أبدا .. فاذا ما أعطانى أحد منكم احدى حاجياته .. دخلت لوضعها فى الكشك وأرفقت بها ورقة صغيرة كتبت عليها الإسم الذى أميزه به .. فاذا أتى لأخذها رددتها اليه بعد أن أمزق الورقة دون أن يرانى .. وهكذا أبدو كأننى أعرفكم جميعا .. وأرضى غروركم جميعا .

ورغم ما كان بصاحبنا من حزن وضيق فقد أطربته اجابة الرجل .. وكان السؤال الطبيعى الذى يجب أن يسأل بعد ذلك .. والذى يرضى به حب استطلاعه هو (وأى ظاهرة ياترى سميتنى بها ؟ .

ولقد أوشك أن يسأله لولا أن أضاع الفرصة فوج من الطلبة .. أقبل متدفقا على الكشك وحال بينه وبين السؤال .

ومرّت أيام أخر .. وتخرجت دفعته .. وهو هو .. لايتغير طبعه ولاتتبدل حاله .. حتى كلمة حب .. لم يجسر أن يقدم على قولها .. لمن ولهت قلبه حبا .

ولقد فكر فى خطبتها .. ولاسيما بعد أن خطبت أختها الكبرى وعقد قرانها ، ولكنه يتجاوز نطاق التفكير .. لعجزه عن أى عمل ايجابى ، وفقدانه لكل قدرة على الإقدام على شىء ، وضياع الثقة من نفسه .. وأكثر من هذا وذاك ، احساسه بأنها تعرف فيه ذلك العجز والجبن .. ألم يتأكد لها أمره من يوم الحفل ؟ أتراها تحتفظ له بعد ذلك بأى احترام أو حب .

ورحل مع وحدته الى فلسطين ، ولم يكن فى قرارة نفسه يخشى الحرب فى حد ذاتها ، ولكن خوفه كان من نفسه .. كان يخشى أن تخذله ، كما سبق أن خذلته ، فى كل عمل أقدم عليه .

ومرت بضعة شهور وهو محتل بجنوده أحد المواقع ، دون أن تسنح فرصة الاختبار أعصابه ، وامتحان قدرة نفسه .

وفى ذات ليلة علم أن العدو قد نفذ من الخطوط وأنه قد احتل احدى التباب المشرفة على خطوط المواصلات وأنه يهدد بعزل كل المواقع .

وحلت اللحظة الرهيبة ، واستدعى لتلقى الأوامر لكى يسترد بجنوده الموقع الذى ملكه العدو .

واذا كانت أعصابه .. قد خانته فى ملعب كرة .. أو فى ساحة قفز .. أو فى حلقة ملاكمة .. فقد كان أولى بها أن تخونه فى ميدان قتال .. ولقد خانته فعلا .. فقد عاد الى مواقعه .. متوتر الأعصاب .. خافق القلب .. شارد الذهن .. ولم يكن هناك مفر من تنفيذ الأمر .. فان النكوص مستحيل .. ولم يسعه الا أن يلم جنوده .. ويبدأ الهجوم .

وأجرى المراحل الأولى للهجوم .. بطريقة آلية .. وهو يشعر أن الذعر قد ملك عليه نفسه ، وأن زمام أعصابه يوشك أن يفلت منه .. وأنه لولا بقية من تماسك لأسرع بالفرار .

وبدأت المراحل الجدية للهجوم .

واستمرت قواته تتقدم ، وهو يسير مع الرئاسة فى المؤخرة ، وما زالت نفسه المنهارة ترتجف وتنتفض .

وانطلقت قذيفة من مواقع العدو .. فأطاحت ببضعة من جنوده وأبصر بعينيه أعضاءهم تتناثر فى الهواء كأنها رشاش الماء .

وتوالت القذائف .. ودوّت الانفجارات .

وأحس بالدم يجرى فى عروقه حارا .. وبمراجل الغضب والانفعال تغلى فى صدره .

وفجأة .. شعر بأنه فقد نفسه .

أجل .. لقد فقدها تماما .. بذعرها وخوفها .. وتفكيرها .. وخشيتها .. وانطلق وسط جنوده .. بلا وعى .

وهو لايذكر جيدا ما حدث .. فقد كان حقا يتحرك بغير وعى .. كل ما يذكره هو أنه استمر يندفع بجنوده حتى مواقع العدو .. ثم يذكر صوت انفجار بجواره .. ضمن بقية الانفجارات التى كانت تدوى حوله .

وقد عرف فيما بعد أنه أصيب بشظية أصابت ساعده ومزقت كتفه .. ولكنه يؤكد تأكيدا جازما أنه لم يشعر بها ساعتذاك .. وأنه لم يحس من اصابتها أى ألم .

ورحل فى قطار الجرحى الى مستشفى العجوزة .. وأدهشته أن يسمع ممن حوله أنه قام بأحد أعمال البطولة الخارقة .. وأنه كان شجاعا .

ولم يستطع بالطبع أن يكذبهم .

ماذا يقول لهم ؟ أيقول أن كل ما حدث هو أنه فقد نفسه ؟ . أيقول لهم أن أعمال البطولة .. يقدم عليها الإنسان بلاشعور .. وأنه يفعلها لأنه يجد نفسه لايستطيع أن يفعل سواها ؟

لا .. لا .. يجب أن لايخذلهم ويحرم نفسه من التقدير والاعجاب اللذين طالما حرم منهما فيما مضى .

وخرج من المستشفى .. وكل مايتوق اليه .. هو لقاؤها .. كان يريد أن تراه كما يراه الناس .. فى صورته الجديدة .. كان يريد أن يزيل من نفسها الصورة الضعيفة .. العاجزة .. الخائرة .. والتى يتوهمها عالقة بنفسها .

انه بحالته الجديدة .. يستطيع أن يقدم على خطبتها وأن يبوح لها بمشاعره .. وهو يجد فى نفسه الجرأة على ذلك .

وفى طريقه الى باب المستشفى التقى بأحد زملائه الذى أتى لزيارته ولم يكد يراه خارجا حتى هتف به :

– حمدا لله على سلامتك .. ان رأفت (سيخبط مشوارا على الفاضى) .. لقد لقيته الآن .. فى شارع فؤاد .. وأنبأنى أنه سيزورك .. على أية حال سيسر كثيرا لخروجك اليوم .. لأنه كان يود أن تحضر الاحتفال بعقد قران شقيقته فى نادى الضباط .. لقد دعوا عبد الوهاب لإحياء الليلة ، وهو يعلم أنك تحبه .

ولم يسمع من كل ماقال صاحبه .. سوى جملة (عقد قران شقيقته) .. لقد كانت السهم الذى مرق فى صدره ، والأنفجار الذى دوى فى أذنيه .

أبعد كل هذا .. يفلت الطير ؟ يالها من سخرية !

وانطلقت العربة به تعدو على غير هدى .. وعندما عاد فى النهاية الى البيت .. أكدوا له وقع المصاب بقولهم : ان رأفت أتى لدعوته .. لحضور قران شقيقته .. فى نادى الضباط .

وأقبل الليل .. وبنفس يائسة منهارة ، وذهن شارد ذاهل .. ارتدى ملابسه ليشيع أمله .. الى مثواه الأخير .

واجتاز بعربته كوبرى أبو العلا ، وهو لايكاد يبصر ما أمامه .. وانطلق فى شارع الزمالك ثم دلف من بوابة النادى ووضع العربة فى حشد العربات المصطفة .

وبدا النادى مضيئا متلألئا ، ونغمات الموسيقى تتردد فى أنحاء الحديقة ، وأحس من كل تلك المظاهر امعانا فى السخرية .. ووجدها تنعكس فى نفسه وكأنها النواح والعويل .

واجتاز مدخل النادى ، وعلى يسار المدخل أبصر الغرفة الصغيرة التى تحفظ فيها الكابات والعصى والمعاطف ، ومد يده فرفع الكاب من فوق رأسه وسلمها الى الحارس العجوز الواقف وراء الحاجز الخشبى ، ولم يتمالك نفسه من الدهشة عندما وجد الحارس هو نفسه الليثى بائع الكازوزة فى الكلية .

وسبقه العجوز الى التحية والترحيب ، وتسلم الكاب دون أن يعطه رقما يتعرف به عليها عند استردادها .. ولم يستطع هو أن يجزم بحقيقة ترحيب الرجل به .. اهو قد عرفه حقا وميزه .. منذ ان كان طالبا .. أما تراها مجرد مخادعة كعادته ، وأنه لايلبث أن يكتب صفته المميزة .. ويضعها فى الكاب .

على أية حال لم يملك الا أن يبادل الرجل ترحيبا بترحيب ، ووقف ينتصت مجاملا الى بعض أحاديثه عن أيام المدرسة ، واستطاع الرجل ببشاشته وافراطه فى الترحيب أن يقنعه بأنه يذكره تماما .

وخطا الى الداخل وكان المكان يعج بمن فيه .. فتسلل بين المدعوين واتخذ لنفسه ركنا قصيا .. وجلس يرقب المكان فى صمت وشرود وبنفسه احساس من يجلس فى سرادق عزاء ينتظر خروج النعش بين آونة وأخرى .

وفجأة بلغ مسامعه هتاف باسمه ، وأصابته من الصوت رجفة شديدة .. فقد ميز فيه – على طول الفراق – صوتها .

وتلفت فاذا بها تقف بجواره ترنو اليه بنظرات ملؤها اللهفة والشوق .

ونهض يحييها فى كلمات متحشرجة وهو يشعر بغصة فى حلقه ويسألها قائلا :

– كنت أظن أنى سألقاك فى ثوب العرس ؟

وأجابته فى دهشة :

– ثوب العرس .. لى أنا ؟

– أجل .. ألن يحتفل اليوم بعقد قرانك ؟

ولم تستطيع أن تكبت ضحكة انطلقت من شفتيها :

– .. قرانى أنا .. انه قران أختى سميحة .

— سميحة ! ولكنى أعلم أن قرانها قد عقد قبل أن أسافر فلسطين .

— لم تحدث قسمة فافترقا قبل الدخلة وقد خطبت ثانية واليوم عقد قرانها الثانى .

وأحس بأن الميت الذى أقبل لتشييع جنازته .. قد عاد الى الحياة .. وخيل اليه أنه يوشك من الفرحة .. أن يجن .

وسنحت الفرصة ثانية .. ولم يكن هناك سبيل للتردد والانتظار والخشية والرهبة .

وهمس بها وأنفاسه تتلاحق وكأنما يخشى أن تضيع الفرصة مرة أخرى :

— اسمعى يامديحة .. أريد أن أحدثك على حدة فى أمر هام يخص كلينا .

وتلفت حوله ثم جرّها من يدها قائلا :

— ما رأيك فى جولة قصيرة بعربتى على النيل ؟

— الآن ؟

— أجل .. هيا بنا ننسحب دون أن يحس بنا .

وتسللا من الصالة المزدحمة ، وقبل أن يجتازا الباب مدّ يده فتناول الكاب من الليثى وهو يحس أنه يوشك من فرط السعادة أن يطير .

وشيعه الليثى كعادته بألفاظ الترحيب والمعرفة ، وبعد لحظة كانت العربة تنطلق بالإثنين وقد سرى فى الجو صوت عذب يلاحقهما متباعدا خافتا رويدا :

(يا حبيبى هذه ليلة حبى   آه لو شاركتنى أفراح قلبى)

وفى الليل عاد الى بيته وهو يشعر بالسكينة تملأ قلبه والسعادة تفعم روحه .

وقذف بالكاب على المقعد وخلع ملابسه ، وهو يدندن بأغنيته المحبوبة .

وهمّ باطفاء النور عندما أبصر فى الكاب ورقة .

يا للرجل المخادع .. انه مازال يتبع نفس الوسيلة .. ترى ماذا كتب عنه ؟

لقد آن له أن يعرف صفته المميزة عند الرجل .

ومد أصابعه فالتقط الورقة وقرأ بها :

(الرجل الذى كان جبانا) .

وانطلقت منه ضحكة طروب وهتف لنفسه : الحمد لله على أنه (كان) .

★ ★ ★

نحيب في الظلام

لم تكن مجنونة بمعنى الكلمة .. ولكن كان بها مظاهر شذوذ عجيبة .. تكاد تجعلها فى عداد المجانين لولا فرط رقتها وهدوئها وسكينتها .

لقيتها أول مرة فى دارها خلال زيارة لها بقصد استئجار الدار فى الصيف ، وكانت تقطنها مع أب عجوز وهن العظم منه فهو لايكاد يغادر مقعده .

وأحببت الدار لقدمها وفساحة حديقتها وكثافة أشجارها اذ كانت احدى الدور العتيقة الكبيرة الكائنة فى رمل الاسكندرية بالقرب من زيزينيا ، ولم يدع لى رخص ايجارها مجالا للتردد ، فسرعان ما استأجرتها فى فترة الصيف ونزلنا فى الدار ، وانتقلت الإبنة وأبوها الى جناح أشبه بالسلاملك قائم فى أقصى الحديقة منفصل عن الدار .. ومرت بنا الأيام ونحن نستمتع بالدار والحديقة والشاطىء الى أقصى حدود الاستمتاع حتى لانكاد نشعر بأصحاب الدار أو نبصر لهم وجها الا فى النادر القليل .. ولولا ذلك الطاهى العجوز الذى كنا نبصره حاملا

سلة الخضار فى ذهابه وأوبته لما أحسسنا أن هناك أحياء يقطنون بجوارنا على قيد خطوات منا .

ولقد كان انطواء الأب العجوز فى داره وقبوعه فى عقرها أمرا لايستثير دهشا ، فقد كان الرجل من فرط عجزه يكاد يكون مقعدا .. ولكن ما أثار عجبنا هو انطواء الابنة وامعانها فى التباعد والاختفاء .

وظننت بادىء الأمر أن انطواءها مرجعه الى انكبابها على العناية بأبيها ومداومتها على خدمته وقضاء حاجاته .. ولكنى وجدت هذا العذر – بفرض صحته – أمرا مبالغا فيه لأن الرجل لم يكن مريضا .. وكل ما به لم يكن يعدو عجز الشيخوخة .. وما كانت حالته بالتى تستدعى منها أن تهجر الدنيا والناس لتربط نفسها بجواره . وأكثر من هذا ، لقد تبين لى .. فى الأوقات المتباعدة التى ذهبت فيها لزيارة الرجل .. أن الإبنة لم تكن ملازمة له .. ولا كانت منكبة على العناية بأمره .. بل انى لم أحس لها وجودا .. أو أرى لها أثرا .. وكان الطاهى العجوز .. وهو وحده القائم على خدمته المتولى أمره .

كانت الفتاة ولاشك مخلوقة شاذة .. نفورة .. مستوحشة .. ولكن شذوذها لم يكن يعتينا الا بقدر ذلك العطف الذى أثاره فى نفوسنا عليها .. فلقد كنا نراها فى مظهرها مخلوقة حلوة رقيقة .. لطيفة المعشر مستحبة الرفقة .

أقول ان شذوذها .. لم يكن يعنينا فى كثير ولا قليل ، اذ كان شذوذا سلبيا .. لا ضرر منه على أحد .. فقد كنا لانكاد نحس به ولابها .. حتى حدث ذات ليلة .. وأنا أتقلب فى الفراش مستجلبا الكرى .. أن بلغ مسمعى صوت بكاء أشبه بالأنين .. يحمله نسيم الليل خافتا من الحديقة .

وأصابنى الصوت برجفة .. فهو بكاء مفاجىء فى وحشة الليل وسكونه .. والبيت كما قلت عتيق فسيح .. والحديقة متكاثفة الشجر .. شديدة الوحشة .. كل ذلك لايجعل النفس تتقبله بسهولة .. وبغير فزع .

وعدتُ أنصت .. مرهف السمع .. حاد الأذنين .. ولكن الصوت لم يتكرر .. حتى خلتنى واهما .. وخلته مواء قطة .

وفى الليلة التالية .. سمعت الصوت .. ولم أكن وحدى الذى سمعته .. بل سمعه نفر غيرى من الأهل الراقدين فى فراشهم .

وأقض الصوت مضجعى .. فقد أحسست منه بخوف مزدوج .. الأول خوفى منه كشىء مفزع .. والثانى خوفى من الأهل الذين سبق أن اعترضوا على سكنى فى مثل هذه الدار الفسيحة العتيقة الموحشة .. والذين سبق أن توجسوا خيفة من رخص ايجارها .. ولكنهم لم يملكوا سوى القبول أمام الحاحى .

وفى الليلة الثالثة لم آو الى فراشى .. فقد كرهت أن أسمع الصوت راقدا مستسلما وصممت على أن أعرف مبعثه .

وهبطت الى الحديقة المتسعة المتكاثفة أجول خلالها . وحمل الىّ النسيم رائحة أزهار الياسمين الهندى الذى تكاثف على أشجاره المكدسة فى الحديقة .

ولم يكن القمر قد اكتمل وكانت الحديقة تسبح من ضوئه الباهت فى شبه ضباب أغرقها فى غموض ووحشة وروعة .. وأحببت الحديقة فى منظرها السحرى العجيب .. وأمعنت فى السير والتجوال بلا رهبة ولا خشية .. حتى سمعت فجأة .. صوت النحيب .

وفى هذه المرة .. كان جليا واضحا محددا .. لا لبس فيه ولاغموض .

كيف لا .. وقد كان مبعثه على قيد خطوة منى .

وأصابتنى رجفة شديدة .. رغم انعدام عامل المفاجأة فى هذه المرة .. (وعلام المفاجأة .. وأنا ما خرجت الا لأسمعه) ورغم أن مصدره لم يكن مجهولا .. ولا غامضا لأنى لم أكد أسمع الصوت حتى أبصرت مصدره . ومع ذلك فقد ارتجفت رجفة شديدة .. بل انى لا أكاد أستعيد الموقف الى ذهنى لأكتبه .. حتى تصيبنى نفس الرجفة .. وأنا جالس أكتب على مكتبى .. بلا ظلمة ولا وحشة .. ولا أنين ولانحيب .

لقد أبصرت فى مصدر الصوت .. مخلوقا لفته الظلمة فجعلت منه مايشبه الشبح .. وكان يقبع على مقعد تحت احدى الخمائل وقد انحنى ظهره واتكأ بمرفقيه على ركبتيه ودفن وجهه فى راحتيه . وأخذ يهتز على نبرات النحيب .

أنا مخلوق عصى الدموع جاف المآقى .. لا تدر مقلتى عبراتها بسهولة حتى وأنا واقف أرقب الموتى يهبطون بهم الى القبور .. ومع ذلك لم أكد أبصر الجسد المهتز فى الظلمة ، وأميز صاحبه .. أو على الأصح صاحبته .. حتى تجمعت الدموع فى مآقى .. وانسابت برغمى .. وبرغم أنى لم أعرف علام تبكى المخلوقة الشاذة المنطوية فى الظلمات .

لقد كنت اعطف دائما عليها .. وكنت فى قرارة نفسى أرجع شذوذها الى شىء فى باطنها .. أو فى قلبها .. قد أغلقت عليه صدرها .. وكبتته فى حناياتها .

ووقفت برهة صامتا .. أفكر بسرعة فيما يجب أن أفعل .. ولم أجد خيرا من أن أنسحب فى هدوء .. دون أن أجعلها تشعر بى .. وبأنى أبصرتها وهى تبكى .

وهممت بالعودة ، ولكن قدمى ارتطمت بحصاة .. جعلتها تتلفت نحوى دهشة فزعة .

ولم أملك الا أن ألقى عليها التحية فى رقة وعطف .

ولم تجب لأول وهلة .. وبدت كأنها لاتميزنى ، وكان ذهنها لايعى شيئا مما حوله .. ووقفت أرقب وجهها فى الضوء الباهت وهو يحملق فىّ جزعا مرتابا .

وبدا وجهها عجيبا .. بخصلة الشعر المتهدلة على جبينها وأهدابها السوداء الطويلة وعينيها الخضراوين تبرقان من وراء الأهداب ، وأنفها الأشم المستقيم وشفتيها الرقيقتين .

ولم تطل الحملقة حتى أبصرتها تنهض نافرة فزعة وتشيح بوجهها ثم تولى هاربة منطلقة نحو الدار . ولم اكن أملك ازاء ادبارها وفرارها أن أقول شيئا أو أفعل شيئا ، رغم أنى كنت أود لو أستطيع محادثتها والترفيه عن نفسها وازاحة بعض أحزانها . ولما هممت بالعودة أبصرت على المقعد الذى كانت تجلس عليه حقيبة يد جلدية صغيرة مفتوحة وبجوارها قد تناثرت بضعة أشياء لم أستطع تمييزها لأول وهلة .

وترددت برهة فيما أفعله بالحقيبة والحاجيات .. أأتركها على حالها حتى تعود لأخذها .. أم أحملها وأذهب بها اليها ؟

وخشيت ان أنا تركتها أن تعبث بها يد قبل أن تعود لأخذها ، فصممت على أن أجمعها فى الحقيبة وأسلمها لها . ومددت يدى أجمع

الأشياء من فوق المقعد فأدهشنى أن أجدها خليطا عجيبا متناقضا لايكاد يربطها رابط .

كان أول ما عثرت عليه منديل وفرشاة أسنان ، ثم قطعة قديمة من الشيكولاته ملفوفة فى ورقة بيضاء .. وقلم رخيص من الحبر الجاف ، وظرف صغير به بعض زهور البنفسج الجافة ، وماكينة للحلاقة ، وجلدة ساعة قديمة بالية ، واطار نظارة بلا زجاج ، ومنديل مستعمل لم تمتد اليه يد النظافة . وبجوار كل هذا مظروف به أوراق مطوية .

ووضعت المجموعة العجيبة المتناقضة فى الحقيبة وسرت الى بيت الفتاة .. ولكنى وجدته مغلق الأبواب والنوافذ ولم أجد به أثرا لضوء .

ولم أجد من الحكمة أن أطرق الباب وأثير ضجة فى الليل وصممت على أن أعود بالحقيبة اليها فى الصباح الباكر .

وقبل أن يستيقظ مخلوق فى الدار كنت قد ارتديت ملابسى وحملت الحقيبة وسرت فى الحديقة متجها الى بيت الفتاة ، ولكنى لم أكد أبلغه حتى أبصرتها تنطلق فى عجلة تجاه الخميلة .

وصحت بها فتلفتت الىّ .. ولوّحت بيدى بالحقيبة فاندفعت نحوى وجذبت الحقيبة فى لهفة كأنها قد استردت حياتها .

وقالت وهى تلهث :

– حمدا لله .. لقد كنت أخشى عليها من الضياع .

وأجبت مازحا :

– كان يجب ألا تخشى شيئا من ذلك .. فليس بالحقيبة شىء ثمين يغرى بسرقتها .. فلا أظن محتوياتها بما فى ذلك قطعة الشيكولاته القديمة وفرشة الأسنان يزيد على نصف ريال .

ونظرت الىّ نظرة طويلة ثم انطلقت منها ضحكة قصيرة ساخرة خافتة وأجابت :

– ان ما بها لايقدر بثمن .. انها روحى .. أنها كل شىء فى حياتى .

وهززت رأسى فى عجب ثم هممت بالعودة عندما صاحت بى فجأة :

– هل قرأت الخطاب ؟

– لم أقرأ شيئا .. لقد جمعت بالحقيبة كل ما كان على المقعد وأغلقتها .. وأعدتها اليك كما هى .. ولكنى أتمنى الآن لو استطعت قراءته .

– لـم ؟

– لأنى أود أن أعرف عنك شيئا .. أود أن أعرف ما بك .. لعلى أستطيع أن أحمل عنك بعض حزنك .. لابد للإنسان من انسان آخر يتحدث معه ويفضى اليه بهمومه .. ليس هناك أقتل للمرء من ذلك الانطواء وتلك الوحدة .. قد تكونين لم تجدى من يفهمك لكى تحدثيه عن نفسك ولكنى واثق من أنى أستطيع فهمك وتقدير مشاعرك .. حدثينى عما بك ولاتخشى شيئا .

وأطرقت الفتاة برأسها برهة ثم جذبتني نحو الخميلة .. ودون أن تنبس ببنت شفة مدت يدها الى الحقيبة فاخرجت الظرف الذى يحوى الرسالة ثم دفعتها اليّ قائلة : اقرأ .

وأمسكت بالرسالة وفضضتها وقرأت ما يلى :

(عزيزتى ..

من يصدق أنى قد بت أغار من نفسى ؟

من يصدق أنى بت أكره ذلك الشيء فى نفسى الذى طالما تمنيته وتقت اليه .. والذى كنت أهدف الى الوصول اليه لأجعل منه مثلى الأعلى ؟

من يصدق أنى بت أكره فى نفسى الكاتب العبقرى النابغة .. الذى يقدره الناس ويبجلونه ويعجبون به ؟

انى أغار منه وأبغضه .. لأنك تحبينه ولاتحبينني أنا .

لا تقولى انى وهو واحد .. وانى أنا هو ، هو أنا .. لأنى واثق لك تحبينه هو .

كيف لا وقد أحببتك وحاولت التقرب اليك .. كأنا ، بشخصى لكائن الحي .. المتحرك المنظور الملموس بلا نبوغ ولا عبقرية ، ولا كتابة ولا تأليف .. ولا وهم ولا خيال .. فلم تعيريني أدنى التفات .. وأعرضت عنى اعراض المهمل المنكر .

(أنا) لم أفز منك بغير الأهمال والإعراض .

فماذا فعلت عندما قرأت لى .. وعرفت أننى كاتب كتبى وصاحب آرائى .. لقد أقبلت عليّ فى لهفة وشوق .. وانقلب أعراضك اقبالا .. واهمالك اهتماما ما بعده اهتمام .

وفاز منك (الكاتب) فى شخصى بما لم أفز به أنا .. وبت تقدسيننى وتتلهفين علىّ .

وكان يجب علىّ أن أرضى باقبالك ، وأن أستغل لهفتك على (الكاتب) فى نفسى فأتمتع (أنا) بها ، ولكننى وجدتنى أكره اعجابك بكتابتى .. أكره قولك لى : (ان كتابتك رائعة) .. (انى أعبد كتابتك) .. كرهت قولك هذا لأننى تمنيت أن يكون (انك رائع) .. (انى أعبدك) .

كرهت قولك لى .. (لا تكف عن الكتابة أرجوك . انى أريد كتبك دائما ، أكتب .. أكتب .. انى لا أتصوّر كيف أستطيع أن أعيش لحظة بغير القراءة لك) .

وكنت أود لو قلت لى : (انى أريدك دائما .. ابق معى لأنى لا أتصوّر كيف أستطيع أن أعيش لحظة بغير لقائك) .

كنت أتمنى أن تحبينى أنا .. كآدمى بسيط .. بتفاهاتى .. وسخافتى .. ومادياتى .. بدل أن تحبى فى ذلك الوهم من النبوغ والعبقرية .. والسمو .. كنت أود أن تحبينى كما أحببتك .. وكما يحب كل انسان انسانا آخر .

كنت أود أن تتلهفى على ضمى كما أتلهف على ضمك .. وأن تتوقى الى تقبيلى كما أتوق الى تقبيلك .. بدل هذا التلهف منك على كتابتى وآرائى وأفكارى .

انى بشر أولا .. ولقد وددت أن تحبينى كثيرا .

وحاولت التقرّب اليك كبشر .. ولكنك صممت على مبدئك .. وعلى أن تسمى – كما قلت – بنفسينا .. وأن يظل كل ما بيننا صلة روحية ذهنية .

فلما أصررت على مطلبي وعلى طريقتي في حبي هجرتيني . ونأيت عني .. وأرسلت اليّ تودعينني قائلة :

— أكتب .. أكتب .. ان في كتابتك عزائي .. وثق أنك في ذهني دائما سأقدسك مادامت بي قدرة على التقديس .

وحاولت عبثا أن ألقاك .. حتى يئست .. واستقر بي المقام بعد هجرك .. وأنا محطم منهار ولم يك أمامي سوى شيء واحد .. هو أني أنفذ مطلبك .. فأكتب .. وأكتب ..

وأقبلت على الكتابة باندفاع المجنون .. لقد كنت أحس أن في كل كلمة اكتبها وكل سطر أخطه متعة لك .. وكتبت الكتاب تلو الكتاب .. واندفعت أرقى سلم المجد — دون قصد مني — بخطى حثيثات سراع .. حتى أحسست أني قد استنفذت كل قواي .. وأني بلغت قمة المجد .. ونهاية العمر .

اني متعب منهك .. ولقد أمرني الأطباء بأن أكف عن الكتابة .. ولكني لن أكف — من أجلك — حتى أكف عن الحياة .

لن أكف حتى أكتب قصتي الأخيرة ، فاني أكتبها لك وحدك .. ولابد أن أتمها .. لقد انتهيت منها أخيرا وأنا أشعر أني بت من النهاية قاب قوسين أو أدنى .

وليس أمامي سوى أن أكتب لك هذه الرسالة لأودعك فيها .. ولأقول لك : اني كتبت وكتبت لا لمال .. ولا لشهرة ولا .. ولا .. ولكن لأجلك أنت .. أنت وحدك .. عابدة كتابتي .. ومقدسة نبوغي وعبقريتي .

ليتك تحبين فيّ الإنسان المتواضع .. الطيب الهادىء . كما أحببت الكاتب النابغة العبقرى .. ليتك تحبيننى .. مرة واحدة .. كبشر .

ليتك تحبيننى (أنا) . (المخلص)

ووضعت الرسالة جانبا ونظرت الى الفتاة في دهشة بالغة ..

– وهل ذهب حقا ؟

– أجل لقد ذهب .. ليته كان يعرف .. ليته كان يعرف أننى أحببته كبشر .. أكثر مائة مرة منه ككاتب .. لقد كنت أتوق الى ضمه وتقبيله والى أن أتحسس شعره بيدى .. ولكنى كنت أجد حبه كبشر .. حبا يائسا لا أمل فيه لأنى كنت مقيدة الى مخلوق آخر .. ولم تكن هناك فرصة للفكاك . كنت احبه كبشر ..ولكنى لم أجد هناك فائدة من حبه ..فصممت على أن أحبه ككاتب .. فقد خيل الىّ أن هذا شيء مستطاع يمكن أن يدوم العمر .. وصممت على أن أجعل الصلة بيننا صلة روحية ذهنية ما دامت الصلة الجسدية قد استعصت وتعذرت .. وقلت لنفسى انها ستكون صلة أبقى على الزمن وأكثر دواما .

ونأيت بنفسى عنه .. وظللت اتعزى عنه بكتبه وأحيا معه بين السطور والكلمات .. فى دنيا من الوهم .. وعالم من الخيال .. حتى قرأت قصته الأخيرة .. التى أفنى فيها نفسه .. ثم وصلتنى رسالته .. وعلمت بعد هذا أنه ذهب .

وهنا أحسست أن صبرى قد عيل واحتمالى قد نفذ .. وأنه لم يعد فى طاقتى الاحتمال .. ولا فى استطاعتى أن أحيا كبشر مع رجل غيره .

أجل .. اننى لم أحس بحاجتى اليه .. كبشر ، ألا بعد أن ذهب . وانطويت على نفسى .. متلمسة العزاء عنه .. فى بقاياه التافهة .. فيما كان يسميه ماديات بشرية .. انه لم يعد يمتعنى فى الحياة شىء .. أكثر من أن أتلمس فرشاة أسنانه .. أو أتحسس جلدة ساعته .. أو أمسك بقطعة من الشيكولاته كان قد قضم منها بعضها وأعطانى النصف الآخر فاحتفظت به .

لقد حرمت على نفسى أن أحيا معه .. وكنت أقنعها بالصلة الروحية .. عندما كان حيا .. يلمس .. ويضم .. فلما ذهب .. أحسست بعمرى قد ذهب هباء .. وضاع سدى .. ولم أعد أستطيع أن أحرم نفسى من أن أضم كل ما مسته يداه أو لفحته أنفاسه .

★ ★ ★

موعد في الليل

هذه قصة مزحة لم تعد فى أول أمرها أن تكون أكذوبة قصد بها التفكه والتندر .. ولكن الظروف دفعتها أمامها ونفخت فيها فانتفخت وتضخمت وظلت تتسلل بها الحوادث حتى انتهى بها الأمر فصارت قصة هى أبعد ما تكون عن أذهان أصحاب المزحة .. عندما اختلقوها فى بادىء الأمر .

رأيت الفتى – بطل المزحة أو بطل القصة – أول مرة فى ذلك النادى الذى اعتدت أن أقضى به سويعات مرحة ضاحكة مع بعض الأصدقاء حيث أنقل البصر بين وجوه الحسان اللاتى تناثرن هنا وهناك .. وكان يجلس فى ركن من أركان الصالة الفسيحة المزدحمة وقد دفن رأسه فى كتاب بيده لايحول عنه بصره .

وكان الفتى أقرب الى الدمامة .. بوجهه الأصفر النحيل وأنفه الحاد الشبيه بمنقار البجعة ، وبتلك وبتلك الأسنان الصفراء البارزة المدببة . وذلك المنظار السميك الذى يكاد يلمس صفحات الكتاب الذى فى يده .. وتعودت أن أراه بعد ذلك فى نفس المكان وفى نفس

الوضع لا يلتفت يمنة ولا يسرة ، ولا ينطق بحرف .. ولايرفع رأسه عن صفحات الكتاب .. وكنت أحس له فى نفسى شيئا من النفور .. وأغلب ظنى أن هذا هو الشعور الذى كان فى نفس كل من يراه .. ولكن حدث ذات يوم أننى وجدت نفسى مضطرا الى الجلوس اليه ومحادثته .. فقد كانت القاعة خلوا الا منه ومنى .. ووجدته يبتسم لى ابتسامة خفيفة فاضطررت الى مجاذبته أطراف الحديث .. وأعجبنى حديث الفتى ، فقد كان به رقة وطلاوة ، وكان صوته ذا رنة محببة بينى وبينه .. والواقع أن الفتى كان يختلف عن مظهره كل الاختلاف .. فقد كان رقيقا شاعرى النفس ، حلو الحديث ، وان كان أكثر ما يعينه هو فرط حيائه لا تكاد تتعدى تلك الصفحات من مئات الكتب التى يغرق فيها رأسه .

وبدأ أصدقائى الخبثاء يتخذون من الفتى ملهاة لهم ، ومسلاة يتندرون به فيما بينهم .. وانتهى بهم الأمر أن يدبروا مؤامراتهم الماجنة .. والتى لم أعلم بحقيقتها الا فيما بعد .. والا لوضعت حدا لمزحتهم الشائكة وخاصة مع مثل هذا الفتى الحى .. والذى ما أظنه قد جلس فى حياته الى امرأة قط .. أراد الأشقياء أن يعبثوا بالفتى فاتفقوا مع فتاة من صديقاتهم أن تكتب له خطاب غرام تصف فيه مبلغ اعجابها به ولهفتها عليه .. وتقول (أن حبها قد بدأ منذ رأته جالسا فى صمته ووجدته بعيدا عن الناس ولهوهم ، ومجونهم .. وأنها لم تتمالك نفسها من الإعجاب بسيماء النبل البادية عليه) ! ثم ينتهى الخطاب بتحديد لقاء فى الساعة الثامنة من مساء يوم الجمعة فى ملتقى العشاق باحدى الضواحى النائية .. ثم تضيف الى ذلك ملحوظة جاء فيها : (يمكنك

معرفتى بعينى السوداوين الحزينتين وبمعطفى الأحمر ووردة بيضاء سأمسك بها فى يدى) .

ويستطيع المرء أن يدرك وقع مثل هذا الخطاب فى نفس الفتى الذى يذوب خجلا وحياء .. والذى ما خطر له أن فتاة يمكن أن تعشقه ، بل الذى لايذكر أن فتاة نظرت اليه نظرتين متتاليتين .

ويمسك الفتى بالخطاب ويخلع منظاره ليمسحه جيدا .. ثم يأخذ فى تلاوته مثنى وثلاث ورباع ، والأشقياء على مقربة منه يسترقون النظر اليه ويضعون أكفهم على أفواههم خشية أن تفلت منها الضحكات التى تعتمل فى صدورهم ! ثم يطبق الفتى الخطاب فى رفق وعناية ويضعه فى جيبه ثم يروح فى شبه ذهول .. ولاشك أن الفتى قد قضى يومه قلقا حائرا فقد لقيته وفى عينيه نظرات غريبة ثم انتحى ناحية بعيدة ، ودفع الىّ بالخطاب ووجهه يصطبغ بلون الأرجوان .. وطلب منى قراءته ثم راح يرمقنى فى صمت فلما انتهيت من قراءته سألنى فى صوت خجول :

— يخيل الىّ أنى أعرفها .. وأحس بلهفة الى الذهاب للقائها .. ولكنى لا أجد فى نفسى الجرأة الكافية .

فقلت :

— الأمر لايحتاج الى جرأة أو شجاعة .. فكل ما بنفسك من حياء سيذوب بمجرد لقائك اياها .

ولم أكن أعلم وقتئذ أن فى الأمر مزحة مدبرة .. والا لأجبته بغير ذلك .. ولاطلعته على الحقيقة حتى لا أتركه ألعوبة بين أيدى هؤلاء

الماجنين العابثين .. ولكنني كنت أظن مثله أن الأمر لايعدو الحقيقة فقد كان الخطاب مكتوبا بأسلوب متزن معقول لايكاد يميز المرء فيه هزلا أو مزاحا حتى جاء يوم الجمعة .. فعلمت من أحد الأشقياء الذين دبروا المؤامرة أن الخطاب أكذوبة أريد بها السخرية من الفتى واخراجه من صمته ووقاره .

وشعرت بالأسى يتملكنى فأسرعت الى داره لأنبئه بحقيقة الأمر .. ولكن ما أن وقع بصرى عليه حتى وجدته قد تأنق وتزين والعطر يفوح منه ورأيت وردة حمراء تتربع على صدره .. ولمست الأمل يترقوق فى وجهه .. كل ذلك جعلنى أجزع من ذكر الحقيقة التى ستهدم تلك القصور الشامخة التى شادها الفتى فى رأسه فألقيت اليه ببضع كلمات تافهة وغادرته بعد ان وعدته بالعودة اليه بعد أن ينتهى من موعده .

وعدت اليه فى العاشرة .. فقد أحسست أن من واجبى أن أرفه عنه وأن أزيل ما علق بنفسه من آثار خيبة الأمل .. فقد تخيلته يحملق بمنظاره ومنقاره فى كل امرأة تمر به دون أن تعيره احداهن أدنى التفاتة .. ولم يعد الفتى الى داره حتى الحادية عشرة ، عندما رأيته قد أقبل حزينا ملتاعا وقد بدا عليه الإعياء .. فألقى بنفسه على مقعد وقال كمن يحدث نفسه :

– انها لم تأت بعد .

– ربما قد عاقها مرض .. أو حدث لها طارىء منعها من الحضور .

ولم أدر أى شيطان دفعنى الى أن أجيبه هذه الإجابة التى أعادت الأمل الى نفسه .. وجعلته يتعلق مرة أخرى بخيوط الوهم .. فقد أجاب :

– نعم .. لابد أن يكون هناك ما منعها .. ولابد أنها ستكتب الىّ مرة أخرى لتشرح ما حدث .. كم أخشى أن يكون قد مسها مكروه أو أصابها سوء .

فلاشك أنها كانت تنوى الحضور والا لما كتبت تقول ذلك .

وفى الواقع .. كان يجب علىّ أن أفضى اليه بالحقيقة كلها فى ذلك الوقت ، ولكننى لم أجد فى نفسى الشجاعة الكافية لذلك ، ولم أرد أن أحمل الفتى خيبة فوق خيبة .. وفضلت أن أترك للظروف تدبير أمره وللزمن أن يبرئه مما به ، وينسيه ذلك الخطاب وصاحبته .

ولشد ما أخطأت فى ظنى .. فلم تزد الأيام الفتى الا استعارا .. لقد استمر يذهب كل مساء فى الموعد المضروب الى مكان اللقاء فلا يعود الا فى منتصف الليل .

وكان علىّ أن أفعل شيئا وقد أوشك الفتى على الجنون ، ورأيت من العبث أن أخبره أن المسأله كلها هزل فى هزل ، فقد كان من العسير على المرء أن ينتزع الفتاة الوهمية من رأس الفتى وأن يقنعه أنها كائن لا وجود له الا فى مخيلته وفى سطور الخطاب الذى خدع به .. وعلى ذلك فلم يكن أمامى الا حل واحد ، وهو أن أوجد له الفتاة فعلا .. وأن أحوّلها من الوهم لتكون حقيقة ثابتة .. فأجعلها تلقاه حتى يهدأ باله وتطمئن نفسه .. ثم تحاول هى بعد ذلك التخلص منه بحكمه ومهارة .. وكان خير من أستعين به فى هذه المشكلة صديق اشتهر

بوسامته وكثرة صديقاته ، ولا تكاد تخلو مائدته من عشرات الفاتنات الساحرات بين الكئوس والضحكات .. فذهبت اليه وقصصت عليه القصة ، وسألته لو أمكن أن يتفق مع احدى صاحباته على أن تلقى الفتى مرة أو مرتين فتتلطف معه بعض الشيء ثم تفهمه أنها لن تستطيع لقاءه بعد ذلك لأنها سترحل بعيداً لعذر تنتحله .. وأخبرته أن من الخير ألا تكون الفتاة مفرطة في الحسن حتى يسهل على الفتى أن ينساها بعد ذلك .

وفي اليوم التالى أخبرنى صاحبى أنه استطاع أن يقنع احداهن بلقاء الفتى وهى – وان كانت بارعة الحسن – الا أنها أيضا خبيرة بالنفوس داهية ماكرة ، تستطيع أن تعيد الفتى الى نفسه من اللقاء الأول وتجعله يندم على لقائها وعلى التفكير فيها .

★ ★ ★

وكنت جالسا مع الفتى عندما جاء الخطاب الثانى .. وأبصرت به يفضه بيد ترتجف ويبدأ قراءته وقد تصاعد الدم الى وجهه .. ثم رأيته يمد يده الىّ بالخطاب ويقول فى صوت هامس :

– ألم أخبرك أنها لابد أن تكون مريضة ؟

وأمسكت بالخطاب ، ولم يكن بى من حاجة الى قرائته فقد كنت أعلم ما به .

ولكنى تظاهرت بالقراءة .. لقد كان بالخطاب اعتذار بالمرض وموعد للقاء فى نفس المكان وفى نفس الساعة .. وذهب الفتى للموعد وانتظرت أن يؤوب سريعا ، ولكن غيبته طالت حتى خشيت أن يكون

قد مسه سوء أو يكون قد ألقى بنفسه في النهر ومات منتحرا .. ولقيته في اليوم التالى فأقبل علىّ باسما متهللا .. وبدأ يحدثنى عن لقاء الأمس فوصف لى كيف أقبلت عليه الفتاة بقامتها الفارغة ومعطفها الأحمر ووردتها البيضاء .. تماما كما حدثته فى خطابها لاتكاد تختلف فى شىء سوى أن عينيها السوداوين لم تكونا حزينتين بل كانتا تبرقان بالمرح وتشعان بالسرور .

— انها نشوة أثارتها فى نفسى .. ما ظننت قبل أن أراها أن من الممكن لإنسان على هذه الأرض الشقية أن يسعد مثلما سعدت .. لقد أقبلت علىّ هاشة باشة كأن بيننا قديم صحبة .. والواقع أننى أحسست أن روحينا قد التقيتا قبل الأمس مئات المرات ! وأمسكت بيدها وانتحينا ناحية هادئة على الشاطىء وطلبت منى الفتاة أن أحدثها عن نفسى ، فرأيت لسانى ينطلق فى الحديث ويروى لها كل ماوعته الذاكرة من الشعر والقصص فأطربها الحديث ، ورحنا نحن الاثنين في نشوة .. وأنا أحدثها بلسانى وهى تجيب بعينيها .

وصمت الفتى برهة ثم عاود الحديث :

— سنلتقى اليوم مرة أخرى .. وقد تركت لى عنوانها حتى أستطيع الاتصال بها اذا ألمّ بها سوء .

ويستطيع المرء أن يتصوَّر مدى ما أصابنى من الدهشة والذهول عندما سمعت حديث الفتى .. وشعرت أن المشكلة تزداد تعقدا وأن الفتاة الحمقاء قد ذهبت لتزيد الفتي لهيبا بدلاً من أن تطفىء لهيبه !

ترى كيف تستطيع أن تخلص نفسها منه بعد ذلك ؟ .. وذهبت الى صاحب الفتاة وأنا حانق ثائر .. فلقينى بابتسامة ساخرة وقال :

– أهذا هو صاحبك الذى تخشى عليه ؟ كان خيرا لك أن تخشى منه لا عليه .. اياك أن تعود لاقتراض صاحباتى لأصدقائك فانهم محتالون لايردون القرض .

وتملكتنى الدهشة عندما سمعت أن الفتاة التى ذهبت لتمثل دورها القصير لم تجد الفتى قبيحا كما تخيلته بل وجدته رقيقا مهذبا ، واستطاع أن يأسرها بسحر حديثه وعذب صوته .. حتى لقد أقسمت أنها تستطيع أن تستمع اليه طول العمر دون أن يدركها ملل أو سأم .

ومرت الأيام فاذا بالمزحة قد انقلبت فصارت غراما فياضا وهوى جارفا ، وكاد الأمر ينتهى بها فتصبح زواجا سعيدا لولا أن حدث مالم أكن أتوقع حدوثه قط .

فى ذات يوم جلس الفتى يتحدث مع أحد الأصدقاء الذين دبروا المزحة فى أول الأمر . ولا أدرى أى شيطان دفع الخبيث الى أن يفضى الى الفتى بقصة الخطاب من أولها الى آخرها .. وأصيب الفتى بصدمة أخرى عنيفة قاسية أفقدته رشده .. فقد رأى أنه لايعدو أن يكون فى كل هذه الأحلام العذبة ألعوبة وسخرية .. وسحق قلبه أن يكون كل ذلك الهوى الجارف من الفتاة محض تمثيل هازل ماجن .

ولقينى الفتى بوجه متجهم عابث ، وهيكل محطم مهدم ، اعترفت له بكل ما حدث .. ولكنى أخبرته أن شيئا واحدا مما حدث لم يكن به أى هزل أو مجون ، وذلك هو حب الفتاة . وحاولت أن أفهمه حقيقة ما حدث ، ولكنه أشاح عنى بوجهه وانصرف كأنه شبح أو خيال ، وشعرت أن رأسى يكاد أن ينفجر .. وخشيت على الفتى أن يودى به وهم كاذب .. ولم أجد خيرا من أن أسرع الى الفتاة فأنبئها

بما حدث حتى تسرع اليه فتقنعه بأن حبها له حقيقة لا خداع .. ولقيت الفتاة وهرعت واياها الى دار الفتى واقتحمنا حجرته لننقذه من شر أوهامه .. ولكننا وجدنا أننا قد تأخرنا قليلا .. فقد أنقذ الفتى نفسه بنفسه .. لقد انتحر المسكين ، وتركت الفتاة ترتمى باكية أمام الفتى المسجى على فراشه وغادرت الدار .. فقد أحسست أننى أوشك على الاختناق .

يا للسخرية ! هذا الفتى الذى كنت أعالجه بالوهم الكاذب قد مات بوهم كاذب .

ترى لو كان يعرف صاحب المزحة أن مزحته ستنتهى بمثل ما انتهت اليه .. أما كان يشفق على الفتى منها ويكفى الناس شر المزاح ؟

★ ★ ★

ليلة الثأر

سار المحراث يشق الأرض يقلب عاليها أسفلها وأسفلها عاليها وقد دفن حدّه اللامع في باطنها . وتحركت البهيمتان يتبعهما جسد طويل متين البنيان ، وقد أمسك بيساره خشبة المحراث ، وبيمناه عصا طويلة يستحث بها البهيمتين كلما بدا منهما تكاسل أو تراخ .

كان ذلك في احدى القرى القريبة من القاهرة ، وكان الجو قد شمله ضباب ثقيل لم تستطع شمس الصباح بأشعتها الواهنة الرقيقة أن تبدده أو تنفذ خلاله ، فبدت ذراتها البيضاء معلقة في الجو ساكنة راكدة لايكاد المرء يتثاءب ويتنفس حتى يتصاعد من فمه دخان كثيف .. وظهرت قطرات الندى تلمع على أوراق البرسيم الداكنة الخضرة .. وتوقفت احدى البهيمتين ترعى بقايا خضرة الأرض .. فتصاعد من ورائها صوت ينهرها : (حا) ، وكان الصوت صوتا نسائيا على ما فيه من غلظ وخشونة فقد كان السائر وراء المحراث امرأة .. أجل .. كان الجسد الطويل الفارع ، المتين البنيان ، هو جسد أم بهانة .

وقد أخذت تحرث الجزء الباقي من أرضها الذى لم يتم زرعه بعد .. لم يكن المرأة لتفترق عن الرجل في شيء .. وأعنى بالرجل .. الرجل الشديد المراس ، القوى الشكيمة .. المهاب الجانب .. الموفور الكرامة .. وكانت تقوم على زرع أفدنتها الخمسة بنفسها لايعينها فى ذلك سوى ابنتها بهانة ، وعامل أو عاملان تستأجرهما فى وقت تغيير الزرع .. واستمرت المرأة فى تقليب الأرض جيئة وذهابا بينما أخذ ذهنها يكد فى التدبير .. ماذا فعلت ؟ . وماذا ستفعل ؟ . هل تبيع فدان البرسيم – الفجل – أم تتمهل قليلا ؟ .. ثلاثة جنيهات للقيراط ليست بالسعر الذى تطمع فيه .. ولكنها تخشى ان استمرت فى الرفض أن تضيع الفرصة ويبور البرسيم .. ثم ان السيد الساقط خير من غيره .. فهو مضمون في الدفع .. سريع فى حمل البرسيم لأنه متعهد الجيش ، وسيخلى لها الأرض فى يوم أو يومين . فتستطيع أن تنتفع بزراعتها مرة أو مرتين خضروات .. ثم قفز ذهنها قفزة سريعة الى محصول الذرة .. لقد كان الإنتاج وفيرا فى هذا العام .. وهى تأمل أن تسدد منه المال .. وتبتاع الكسوة وتوقف ذهنها عن التفكير فجأة ، وبدرت منها صيحة غاضبة محذّرة : (يا بهانة حوّلى المياه .. لقد كاد الحوض أن يغرق) وعلى مسافة قريبة بدت بهانة وقد انحنت تضرب الأرض بفأسها وتحوّل المياه عن حوض البرسيم القريب .. الى حوض آخر .. ثم انتصبت واقفة فبدا جسدها استواء وامتلاء .. وبرز صدرها بروزا طبيعيا غير متكلف ولا مصطنع وسألتها أمها :

– هل أحضرت تقاوى اللفت لكى نبذره على الفحل ؟

– أجل .. لقد وضعتها بجوار الجميزة .

وتحوّل بصر المرأة الى الجميزة القائمة على قارعة الطريق فرأت بجوارها رجلا يقتطع بفأسه من كوم السماد القائم أسفل الشجرة ، وعاد ذهن المرأة فى الشرود مرة أخرى .. وبدا على وجهها تجهم شديد .. لشد ما كان يسوءها من ابنتها هذا التهافت منها على محمود ابن الشيخ معاطى .. ماذا حدا بالفتاة الى أن تخص هذا الفتى وحده دون سائر خلق الله بعطفها أو حبها .. هذا المخلوق الذى كانت تحس له المرأة حقدا وضغينة لم تستطع الأيام فى مرّها أن تمحوها أو تخفف من حدّتها .. لقد كانت ترى فيه ملامح أمه .. أمه الفاجرة العاهرة التى أفسدت عليها حياتها ، وسلبتها الراحة والنعيم .. وانطلق ذهنها يعدو فى ضروب الماضى البعيد .. المظلم الأرجاء .. الشبيه بذلك الضباب الذى يحيط بها .

وبدأت تستعرض صوره الباهتة ، فأبصرت بنفسها فى ربيع العمر ومستهل الحياة .. وأبصرت زوجها فى ريعان شبابه ومن حولها الأرض الطيبة .. وقد أخرجت الزرع من باطنها أخضر تجرى فى عروقه ماء الحياة .

كانت تحس وقتذاك أن أفدنتهما الثلاثة ضيعة واسعة .. وأن بيتهما الطينى قصر شامخ .. وهل يمكن أن يحس صاحب الضيعة وصاحب القصر بسعادة أكثر من تلك السعادة التى تفيض بها نفسها ؟ وتذكرت كيف وضعت بهانة وكيف ألم بنفسها حزن .. خشية أن يحزن زوجها لأنها لم تنجب له ولدا .. ولكن زوجها لم يحزن ولم يكتئب .. على النقيض ، لقد كانت فرحته بالطفلة لاتوصف .. وتذكرت بعد ذلك كيف بعثت الطفلة فى حياتها ضياء فوق ضياء .. ومنحتها هناء فوق هناء .. وكيف كان أبوها يتفاءل بها فلا يفتح عينيه

فى الصباح الا اذا أحضرتها له حتى تكون أول ما يفتح عليه بصره .. واستمرت قانعة بحياتها راضية مرضية حتى بدأت تبصر بأول سحب الشقاء تعكر صفو حياتها .. انها تذكر أول يوم رأت فيه تلك السحب المعتمة حين أقبل عليها زوجها يقول لها فى غير اكتراث :

– هل سمعت ما فعله ذلك الشيخ المخرّف ؟

– من ؟

– الشيخ معاطى !

– الشيخ معاطى رجل مخرّف ! .. حرام عليك .. انه من أفاضل الناس .

– لقد كان من أفاضلهم حتى أمس .. أما اليوم فقد أضحى من مخابيلهم .

– ولم ؟ ماذا حدث منه ؟

– لقد تزوّج .

وبهتت المرأة بعض الشىء .. ولكن ما تعرفه عن طيبة نفس الرجل وقوة ايمانه جعلها تدافع عنه لتلتمس له المعاذير فقالت :

– وما العيب فى أن يتزوج ؟ .. لقد مضى عامان على وفاة زوجته والرجل ما زال – رغم بلوغه الخمسين – فى عنفوانه وفى أوج صحته .. فلم نحرم عليه ما أحله الله ؟

– هل تدرين من تزوج ؟

وهزت رأسها بالنفى قائلة :

— وأنى لى أن أعرف !

— تزوج سنية الغازية .

وبدرت منها صيحة دهشة لم تستطع كتمانها ووجدت نفسها تكرر — وهى مبهوتة — سنية الغازية ! قل شيئا غير هذا ! ان الشيخ معاطى رجل عاقل .

وكان من العسير عليها أن تصدق أن الرجل الطيب الرزين الحكيم .. قد أقبل على مثل هذا العمل الجنونى حتى رأت — الغازية — بعينى تحتل دار الشيخ وتجلس معه موضع السيدة .. ترى ماذا أصاب الرجل حتى دفعه الى التردى الى تلك الهاوية ؟ .. أمثله يتزوج المرأة الملوَّثة العاهرة ؟ .. هذه المرأة التى ليس لها مورد للرزق الا رنين الصاجات بين يديها .. وهز الردفين ، وعرض جسدها للبيع والايجار ، ولم يحاول أن يستمع لنصح ناصح .. بل ركب رأسه واتبع هواه وأعرض عن الناس وأعرضوا عنه .. وانطوى مع امراته فى عقر داره .. حتى مرّ بهما عام أو ما يقرب العام .. فوضعت له ابنه محمود .. وكانت فرحة الرجل بالطفل شديدة ، وهو الذى عاش مع امرأته الأولى دهرا طويلا .. لم ينعم الله عليه بالبنين .

وبدأ الناس يصلون ما انقطع من الصلات بينهم وبينه ، بعد مارأوا من امرأته ذلك الانطواء والإقلاع عن الفسق والفجور وكان أول من وصله .. هى وزوجها .. أجل .. لقد عادت الصلة بين الجارين الى ما كانت عليه ، وحلت المودة محل القطيعة .. وبدأت هى تقبل على —

الغازية – وتتخذ منها صديقة لها .. ومرّت الأيام فاذا بها تلحظ تغيرا ملموسا فى سلوك زوجها ومعاملته لها ، فلم تجد منم ذلك الحنان والإقبال .. وساء خلقه .. ولاحت لها فى الجو بوادر عاصفة تكاد تودى بحياتها .

لم يكن من العسير عليها أن تدرك أن الحية قد بدأت تلعب بذيلها ، وتنصب الحبال حول زوجها .. فقد أخذت الألسن تتناقل الإشاعات بأن هناك صلة بين زوجها وبين الغازية .. وأنهما قد اتخذا من الجميزة محلا مختارا لعلاقتهما الآثمة .. ولم تكتف الغازية بصيد واحد .. وبدأت تمد شباكها لتوقع ما تستطيع من الرجال .. فاذا بها تسمع عن علاقات أخرى بينها وبين ابراهيم شيخ الخفراء ، وبين عبد الصبور ابن العمده . وكبتت المرأة أحزانها بين الضلوع وقالت لنفسها : نوبة طارئة من الهوى والطيش سرعان ما تزول وفترة جموح سرعان ما يعود بعدها الى سابق هدوئه وسكينته ، وحاولت جهدها أن تخفى يرتها وأن تعالجه باللين حتى يعود الى حظيرتها .. وأخيرا عاد الى ظيرتها ، ولكن عودته كانت بشكل لم يخطر لها قط على بال .. ذلك لقد كانت عودته فى حلكة الليل محمولا على الأعناق .. مضرجا بدمائه لانفس فيه ولاحراك .

تذكرت كيف دّوى فى سكون الليل صوت الرصاص .. وهى جالسة تنتظر عودته كما تعوّدت دائما أن تنتظره ، وقد وضعت ابنتها فى حجرها .. وكانت ترفع أكفها من آن لآخر الى السماء تدعو الله أن ينقذه من تلك الحية الآثمة .. وقد عصفت بنفسها الغيرة والحزن وقد أفزعها دوى الرصاص .. ولكن فزعها لم يكن أكثر من فزع البهيمتين المستلقيتين أمامها عندما فتحتا عينيهما لحظة .. ثم عادتا الى

سباتهما .. كما عادت هي الى الاستغراق في التفكير حتى أحست بعد لحظات بوقع أقدام تقترب في الخارج .. وأصوات مختلفة تتصايح وتتهامس .. ثم دفع الباب وأبصرت على ضوء الذبالة التي تتراقص جسد زوجها والدماء تقطر منه .. ودوّت منها صيحة ذعر وارتمت على الجسد مولولة نائحة .

وكان الرجل مازال فيه بقية رمق ففتح عينيه واستغفرها ثم اسلم الروح ، وأجرى التحقيق بعد ذلك .. فلم يكشف القاتل .. اذا لم يعرف سوى أن الرجل كان يجلس تحت الجميزة عندما أصابته الرصاصة وقيدت الجريمة ضد مجهول ، ومع ذلك فقد كانت هي تعرف القاتل .. وتعرف يقينا أنه لم يكن سوى ابراهيم شيخ الخفراء .. وأحد المتنافسين على الغازية ، وأنه قد قتله عندما أبصره يجلس واياها تحت الجميزة .. فاختفى بين عيدان الذرة وأفرغ رصاصته في صدره فأرداه قتيلا .. ولكن أي فائدة من أن تدلهم على القاتل .. وهي لاتعرف فيما بينها وبين نفسها أن هناك قاتلا سوى المرأة الفاجرة ؟ . أي فائدة تعود عليها وهي لن تفعل أكثر من أن تضيف الى ضحايا المرأة ضحية أخرى.. ثم تظل هي بعد ذلك بمنجاة عن العقاب ؟ لا .. لا .. ان ابراهيم شيخ الخفراء — رغم أنه قاتل — فانه في نظرها لايعدو أن يكون ضحية بريئة .. أما القاتل يجب أن تثأر لنفسها منه فهي المرأة ، ولكن الغازية لم تعطها فرصة الانتقام .. وقد فرّت من القرية تاركة زوجها محطما مهدما .. لايعزيه في الحياة سوى ابنه الطفل .. ومرّت السنوات بها بعد ذلك وجمرة الثأر تتأرجح في نفسها .. وسوس الانتقام ينخر في صدرها فيقض مضجعها .. ويثقل كاهلها ويقوض ظهرها .. وقاومت الزمن والأحداث .. فضاعفت فدادينها الثلاث .. وأطلق عليها أهل القرية اسم

(المرأة الرجل) .. وكبرت ابنتها وأضحت فتاة مكتملة ناضجة .. ونما ابن الغازية وأضحى شابا فارع الطول .

ودفع القدر كلا منهما فى طريق الآخر فاذا بكل منهما يقع فى هوى صاحبه ، وكانت تحس للفتى الحقد الذى كانت تضمره لأمه .. وكانت رغبتها المكبوتة فى الانتقام من الأم تدفعها الى أن تحوّل انتقامها اليه .. فكانت تحاول دائما أن تبعد بينه وبين ابنتها .. وبدأت تقرّب اليها الفتى الوحيد الذى يستطيع أن يقف ندا له وينتزعها منه .. وهو عليوة ابن ابراهيم شيخ الخفراء .. لقد بدأت تضرب أحدهما بالآخر .. ابن القاتل فى عرف القانون .. وابن القاتلة فى عرفها .. فهذه خير وسيلة للثأر لزوجها .

وسطعت الشمس دافئة فبددت الضباب وبدت الخضرة ممتدة على مدى البصر .. وانتهت المرأة من حرث قطعة الأرض .. وانتهت الابنة من رى البرسيم المسقاوى بعد أن حذرتها أمها من أن تمتد المياه الى البرسيم الفحل لأنها قد نوت بيعه .. ورفعت بهانة بصرها فوقع على محمود وقد وقف فى نهاية الطريق وأخذ يشير لها خفية فأحست بقلبها يهفو .. وودّت لو تطير اليه ولكنها كانت تعلم ما تضمره أمها نحوه .. وتعلم كيف حذرتها من لقائه أو الحديث معه . وتعلم أن عقابا يمكن أن توقعه بها لو علمت بأنها تخالف أمرها ولم تكن الفتاة تدرك بعد سر بغض أمها للفتى ، ولا كانت تعلم شيئا عن الماضى الدفين فى صدرها .. بل كل ما كانت تعلمه هو أن أباها قد مات وهى طفلة لاتعى فى الحياة شيئا .. وأن أمها هى كل ما لها فى هذه الدنيا .. وانصرف محمود دون أن تجسر الفتاة على الذهاب اليه .. ومرّت الساعات والأم وابنتها منهمكتان فى زراعة الأرض .. وقبيل العصر بدأت الأم تفك

البهائم وأنبأت ابنتها أن تستعد للعودة الى الدار .. ودهشت الفتاة فقد كان الوقت ما زال مبكرا .. واستفسرت من أمها عن السبب فى هذه العودة المبكرة فأنباتها ببساطة أن عليوه وأباه سيحضران لقراءة الفاتحة ولإتمام الخطوبة .. وأحست الفتاة بغصة فى حلقها وبرغبة شديدة فى البكاء .. ولكنها كتمت ما بها ، فقد كانت تعلم أنه لا فائدة من الاعتراض .. وتبعت أمها الى الدار ، ولم تمض فترة قصيرة حتى حضر الشيخ ابراهيم وابنه وقرأت الفاتحة وانتهى الأمر .. وخرج الفتى والفتاة يتنزهان على شاطىء الترعة .. وكانت الفتاة لاتكاد تتماسك .. اذ كانت تحس أنها لاتبصر ما أمامها وأنها على وشك الانهيار بين لحظة وأخرى .. ووصلت الى الجميزة وهى مطأطئة الرأس واجمة حزينة .. ورنت ببصرها فاذا بها تبصر أمامها محمود .. وأحست بقلبها يكاد يقفز بين جوانحها .. وتمنت لو استطاعت أن ترتمى بين أحضانه .. ولكنها لم تجسر .. ووقفت متسمرة فى مكانها وكان محمود أول من تكلم فقد سألها فى دهشة واستياء :

– الى أين ؟

واجابه عليوة فى غضب مكتوم :

– ليس من شأنك تسأل !

– وقال محمود فى سخرية واحتقار :

– خير لك أن تتركها وتعود من حيث أتيت .

– أنا أتركها ؟ ! أترك خطيبتى ؟

– خطيبتك ؟ !

ثم نظر الى الفتاة يستوضحها جلية الأمر فأطرقت وقد سالت من عينيها دمعتان صامتتان ، وعلم محمود الحقيقة وأدرك أن أمها قد فعلتها .. وأن الفتاة قد أجبرت على ما حدث .. وانتابته ثورة غضب جامحة .. وأدرك أنه لن يستطيع الحياة بدون الفتاة ، وأن من العبث أن يحاول التفاهم مع أمها .. فهجم على عليوه .. واشتبك الإثنان .. ولم تمض لحظة حتى كان عليوه طريح الأرض والدماء تسيل من جرح فى جبهته وقد فقد وعيه .. ونهض محمود وهو يلهث وقال للفتاة :

– هيا ..

وسألته وأنفاسها تتلاحق من فرط الذعر :

– الى أين ؟

– نهرب من القرية .

ونظرت الى الفتى الراقد بلا حراك ثم قالت هامسة :

– عليوه .. أنتركه هكذا ؟

ولكنه لم يجبها بل جرّها من يدها وابتعد بها وسط الظلمة ولم تقاوم الفتاة فقد كانت تحس بالحنين اليه فأخذت تهرول بجواره وهى مشدوهة حيرى .

وسألته فى الطريق :

– ألا نذهب الى بيتكم فقد يستطيع أبوك أن يدبر أمرنا ؟

– أبى ! هذا العاجز المريض الواهن المشلول الذى لايستطيع حتى أن يدبر أمر نفسه .. تنتظرين منه أن يدبر أمرنا ؟

ان بيتنا هو أول مكان سيخطر على بالهم أن يبحثوا عنا فيه .. خير لنا أن ننطلق الى القاهرة فلن نعدم وسيلة للرزق والمدينة واسعة تستطيع ابتلاعنا فى جوفها فلا يعثر علينا أحد .

ومع ذلك فقد استوقفهما أول شرطى صادفهما فى نقطة المرور الكائنة عند مدخل المدينة .. فقد أبلغ المركز عنهما ، وأعيدا الى القرية مرة أخرى وأودعا مركز الشرطة وهناك وجدت الفتاة أمها والشيخ ابراهيم . فأحست بخيبة أليمة وحزن مرير .. وكانت الأم تشعر بنشوة ولذة الانتقام لقد سقط ابن ابراهيم الشيخ صريعا بين الحياة والموت .. وهاهو ابن (الغازية) سيوضع فى السجن بتهمة الشروع فى قتل . وفى تلك اللحظة أقبل شيخ واهن العظم يجر ساقيه ويتوكأ على عصاه .. ووقف بين القوم يلهث وهو لايكاد يلتقط أنفاسه .. وتبين فيه القوم الشيخ معاطى فأخذوا لمرآه وعجب ابنه كيف استطاع أبوه أن يصل الى المخفر وهو الذى لايكاد يغادر فراشه .. وتحدث الشيخ موجها القول الى المرأة المنتصبة أمامه فى عناد وتحد والتى بدت فى عينيها ومضة الفوز :

– أنا أعرف ما برأسك .. أعرف مالا يعرفه أحد من هؤلاء كلهم .. أعرف طريقتك الصبورة فى الانتقام ، ولكنى أكره أن تحمل أبناؤنا أوزارنا .. انى وحدى المسئول عن كل ما حدث . أنا الذى أدخلت الجرثومة الفاسدة فى معشرنا الطيب .. وأنا الذى كان يجب علىّ أن أتحمل وزر مافعلت .. كان يجب أن أقتل أنا زوجك دفاعا عن شرفى المهين بدلا من أن أترك الشيخ ابراهيم يقتله وأتركك تثأرين منه ومنها فى ولديهما .. كان يجب أن أقوم أنا بالثأر بدلا من أن أدع الغير يتحمل عنى وزره .. ومع ذلك فانى لا أجد الوقت قد فات فأنا

أشعر أنى قادر على أن أثأر لنفسى ولك .. وأن أحمل العبء عنكم جميعا .

وانتفض الشيخ العاجز ، وفى لمح البرق ، وقبل أن يدرك أحد من الجمع ما ينوى أن يفعل .. اختطف بندقية من يد أحد الخفراء ثم أفرغها فى صدر ابراهيم شيخ الخفراء .. وخر الرجل صريعا ، وألقى الشيخ سلاحه وهو يقول :

– هكذا يجب أن يكون الثأر .

ثم حاول أن يتلمس عصاه ليتوكأ عليها .. ولكن قواه التى حشدها فى لحظة الثأر كانت قد خارت .. لقد استنفدت فعلته كل مابقى من زيت فى سراج حياته .. فكانت ثورته أشبه بومضة برق خبت بعد اشتعال .

وهوى الشيخ فى مكانه وتكأكأ عليه الخفراء .. ولكنه كان قد أفلت من بين أيديهم .. لقد أطلقوا على جسده ، أما روحه فكانت قد صعدت هاربة .

وجر الحراس جسدى الشيخين الى الخارج ، وأحست أم بهانة أن جذوة الثأر فى نفسها قد انطفأت .. وعجبت لنفسها كيف أمضت السنين الطوال تذكى لهيبها وتشعل أوارها .. وأحست أنه لم يعد هناك موجب للانتقام من محمود .. وغادرت المخفر مطأطئة الرأس منحنية الهامة .

ومدت بهانة يدها الى محمود فضغطت عليها معزية وهمست قائلة :

– لقد ظننته عاجزا .. ولكنه استطاع أن يدبر أمرنا قبل أن يرحل .. لن أتركك بعد هذا أبدا .

دموع الشاعرة

موجة الحب قد غمرت الشاعرة .. وتيار الهوى قد جرفها فيما جرف ، وهى التى كانت تجلس على الشاطىء مطمئنة آمنة .. تدفع بالناس الى خضمه الصاخب وتنأى بنفسها عنه .

كانت الشاعرة لا تباشر الحب الا بالألفاظ والقوافى .. وكانت تلهب نفوس العشاق بأشعارها الحالمة ، ولا تتأثر هى الا بقدر ما يتأثر حانوتى فى مأتم .

لم تدر من علَّمها نظم القصيد .. فقد كانت شاعرة بالفطرة .. وكانت تقوله لأنها لايمكن أن تقول سواه .. ولم تكن هى نفسها لتشعر بسحره وقوته .. الا من انعكاسه على نفوس الناس .. ومن تأثيره فى مشاعرهم .. كانت تعلِّم الناس الهوى .. وهى اجهلهم به .. وكان شعرها يفيض بالحب .. وهى أشد الناس خلوا منه .. كانت كساقى الخمر يثمل الناس ولايثمل .. ويملأ بالنشوة رؤوسهم وهو أبعد مايكون عن النشوة .. كانت ساقية الهوى فى كؤوس الشعر .

وفى ذات مرة ذاقت الشاعرة طعم الهوى .. وذاقته من يد ساحر لم تقو على مقاومة سحره لحظة واحدة .. واستسلمت فى لين ورفق .. ووضعت شفتيها على حافة الكأس وأقسمت ألا تكف عن الارتشاف .. لقد أحبت الشاعرة !

أولئك الذين سلقهم بلسانه .. اذ كان انسانا ذا شخصيتين .. فهو يبدو فى حياته رقيقا هادئا .. جم الحياء . أما على صفحات الصحف التى يكتب بها فصول نقده .. فهو هجاء نقاد ، سلط اللسان لايرق ولا يلين .

ولم تك قد مضت أيام على سر ذلك النقد اللاذع الذى كتبه عن مسرحية (الخطايا) التى كانت تقوم فيها صاحبتنا بدور البطولة .. فصب عليها جام سخطه ، أو كما قال كل من قرأ النقد : مرمط بها الأرض .

ونهض بدوره ومدّ يده مصافحا .. وقام الأستاذ شاكر بواجب التعريف .

— الاستاذ ابراهيم الكاتب العبقرى والناقد المعروف .. أمينة هانم فكرى الممثلة القديرة والنجمة اللامعة . هذا تعريف صورى لا محل له .. فلا أظن كلاكما الا يعرف الآخر خير معرفة .

وصمتت برهة وهى تفحصه بعينيها ثم أردفت قائلة :

— الأستاذ ابراهيم : تشرّفنا يا أفندم .. طبعا أعرفه .. ومن الذى لايعرفه ؟

وأحسن ابراهيم ببعض الارتباك وتمتم قائلا :

— العفو يا افندم .

وصمتت برهة وهى تفصحه بعينيها ثم أردفت قائلة :

— من الذى لايعرفه ؟ ومن الذى لم يسلم من لسانه ؟ وهو أشبه بالفتوات داير يبطّح فى خلق الله .

وضحك ابراهيم وقال وهو يحنى رأسه فى رقة وأدب :

— العفو يا افندم .

وتدخل شاكر قائلا :

— تفضلى يا أمينة هانم .

ومد يده فجر كرسيا .. وجلس الثلاثة حول المائدة .. وصفق شاكر بيديه ينادى الساقى . وقالت أمينة موجهة القول الى ابراهيم .

— أريد أن أعرف يا أستاذ .. هل بيننا ثأر قديم وعداوة مبيتة ؟

ونظر اليها ابراهيم فاحصا .. فوجد بها نضارة عجيبة .. يندر أن توجد فى الممثلات ، وصمت برهة وأجابها ضاحكا :

— أتقصدين مثلا أن أبى قد قتل أباك ؟

— سل نفسك .. ما سر تلك الحملات الشعواء التى تشنها علىّ ؟

— ان واجبى النقد .. وأنا أحاول أن أقول الحق قدر ما أستطيع .

— لا .. لا ياأستاذ .. أنت هدّام .. هذا ليس نقدا .. هذا ضرب بالسياط .. هل تدرى .. أننى فكرت فى أن أزورك لأطلب منك الرفق والرحمة ؟

– يا افندم العفو .. هذا كثير .. هذا تقدير لا أستحقه . فلا أظن تلك الكلمات التى أكتبها لها تلك القيمة .

– أشد ما يؤسف له أنها كذلك .. هل تدرى أية خسارة سببتها لى حملاتك تلك ؟ أربعة عقود مع أربع شركات سينمائية مختلفة قد أضعتها من يدى .. ألم تقل عنى فى نقدك لفيلم (الهاربة) أنى أتلفت الفيلم ؟ .. ان أسوأ مافى الأمر أن لكتابتك قيمة .

– هذا شىء لو كان قد حدث حقا فانى عليه جد آسف . أنا لم أقصد قط أن أسىء اليك .. ولكنى قصدت بنقدى اصلاحك .. فانى أرى فيك معدنا طيبا .. لديك ما يجعل منك ممثلة عالمية .. لديك مواهب كامنة لم تستغل قط .. ان عيبك – كما قلت من قبل – هو أنك لاتحيين فى دورك . انك تؤدينه بطريقة سطحية ، لا حرارة فيها ولا عمق ولا ايمان .. يجب أن تكونى أنت نفسك تلك المخلوقة التى تقومين بدورك .

– انى أحاول ذلك فعلا .

– المحاولة شىء والنجاح شىء آخر ، فالنجاح فى التمثيل ليس مجرد النية والمحاولة ، ولكنه موهبة وجهد .. ان لديك الموهبة ولكنك لاتبذلين الجهد . فالجهد هو كما قلت لك أن تحيى فى دورك ، فلا يبدو قط أنك تبذلين جهدا .. ان أقصى الجهد هو الذى لايبدو جهدا .

– وماذا يمكننى أن أفعل أكثر من ذلك ؟

– عيشى فى الدور الذى تؤدينه .. انسى نفسك .. ان لدىّ فكرة لاأشك ، لو حاولت تنفيذها ، فى أنها سترفعك الى القمة ، وتجعل منك شيئا آخر .

– تنوى بيعها لى ؟

– لا .. بل سأهبها لك مجانا .. لقد قلت لك انه يجب أن تتلاشى شخصيتك فى دورك .. ويبدو لى أنك لاتستطيعين أن تفعلى ذلك بمجرد محاولتك أن تحيى فى دورك فى فترات التمثيل على خشبة المسرح .. أو أمام الكاميرا .. فلم لاتجربى أنْ تحيى دورك فى حياتك كلها .. سواء على المسرح أم فى الحقيقة ؟ .. البسى دورك فلا تخلعيه بمجرد مغادرتك المسرح .. بل ابقى كما أنت .. وأحيى دورك فى الطريق .. وفى الدار .. وفى كل مكان .. ولا تخلعيه حتى تنتهى منه تماما .

– ولكن هذا كلام خيالى يسهل قوله ويستحيل تنفيذه . هناك أدوار لا أستطيع أن أتقمصها خارج المسرح . أدوار أكرهها لأنها قد لا تلائم طبيعتى .

– لاتقبلى قط أدوارا لا تحبينها ، أو لا تلائم طبيعتك .. لاتقبلى سوى الأدوار التى تتوقين الى الحياة فيها ، وتحسين بمتعة خلال القيام بها .

– لا تدعنا نحلق فى سماء الأوهام فلو فعلت ما تشير به ولم أقبل الا الأدوار التى أرغب فيها ما استطعت أن أكون ما أنا عليه ..

– بل لأضحيت خيرا مائة مرة مما أنت عليه .. لم لاتجربى ؟

وضحكت أمينة ، وتدخل شاكر بعد طول انصات ، وقال لها ضاحكا :

– لاتصغى اليه ، فلن تأخذى منه غير هذه الأوهام .. هو لايحسن سوى الكتابة .. المهم هو أن تعطيه الآن انذارا نهائيا لكى لايعاود الحملة عليك . ما رأيك ؟

وهز ابراهيم رأسه وهو ينظر اليها نظرات عميقة وقال :

– لو لقيتها قبل الآن لما استطعت أن أحمل عليها قط .

★ ★ ★

مضى على اللقاء عامان .. ونحن الآن فى حديقة احدى الفيلات بمصر الجديدة وقد اضطجع ابراهيم على أحد المقاعد الطويلة ، وبدأ شارد الفكر مغمض العينين . وقد أخذ يستعرض فى ذهنه ذلك اللقاء ، وأخذ يذكر كل ما جرى بينها وبينه .. من كان يظن هذا ؟ من كان يظن أنه أول من سيكتوى بنيران تلك الفكرة العربيدة التى أوحى بها اليها وقتذاك ؟ تحيا فى دورها ؟ لافى المسرح فقط بل فى الطريق وفى الدار وفى كل مكان ؟ وتتقمص الشخصية التى تقوم بتمثيلها .. فلا تخلعها حتى تنتهى تماما من أداء الدور وتنفض يدها منه ؟

أى جنون هذا الذى دفعه الى أن يفضى اليها بذلك القول ؟ فض فوه قبل أن ينطق بتلك السخافة التى تثقل اليوم كاهله وتذيقه الأمرين .. ولكنه معذور ، فما كان يتخيل وقتذاك أن النصيحة ستنقلب بمثل هذه الطريقة ، وما كان يخطر له على بال قط .. أن ما حدث بينهما شىء ممكن حدوثه .

لقد التقى بها بعد اللقاء الأول مرة ثانية وثالثة ورابعة .. وفى كل مرة يلقاها يرى فيها شيئا جديدا . أجل لقد تكشفت له عن مخلوقة عجيبة .. ليس بها من ذلك النوع الذى كان يظنه منها أى شبه أو صلة .. مخلوقة مرهفة الحس ، طيبة القلب ، نقية السريرة ، شديدة الذكاء ، حلوة المعشر ، يطغى جمال باطنها على جمال ظاهرها .

ومرت به الأيام وهو يحس أن قيدًا يشد وثاقه اليها وأنه قد باتت ضرورة من ضرورات حياته ، لايستطيع عنها حولا .. وأخذت هى الأخرى تنساب فى تيار الهوى .. وبدأت تجد فيه نوعا من الآلهة ، وتجد فى أحاديثه ونصائحه حكما سماوية يجب أن ترضخ لها ، وودت لو استطاعت أن تنفذ نصيحته الذهبية التى كان لايفتأ يكررها لها .. (أحيى فى دورك .. على المسرح وفى خارج المسرح .. ولاتخلعيه حتى تنتهى منه .. انسى نفسك وكونى دائما المخلوقة التى يود المؤلف ابرازها) .

وزادت رابطة الحب بينهما توثقا على مر الأيام ، ولم يكن يخطر بباله فى يوم من الأيام قبل أن يلقاها أنه يمكن أن يتزوج ممثلة .. فقد كان يعتقد أن الممثلة لايمكن أن تصلح زوجة وربة دار .

ولكنها بددت من رأسه تلك الأفكار .. فقد وجد فيها خير من تصلح لأن تكون زوجته وأم بنيه .. وجد فيها نفسا قوية أبية حنونة ، وجد فيها بعدا عن التفاهة .. وجد فيها عمقا وحساسية .. فأقدم على الزواج منها .. وهكذا أضحى الناقد زوجا .. وأحست هى أن الله وهبها من نعمائه ما أعجزها عن الشكر .

وبدأ فى ذلك الوقت عرض المسرحية الكبرى (الظلال المدلهة) التى تقوم هى فيها بدور البطولة ، وسبق العرض بروفات عديدة ، بذلت فيها جهدا جبارا فقد كانت ترجو أن تبلغ الكمال ، حتى اذا ما ترفق بها فى نقده ، ترفق بها غير مرغم ، كانت تريد الإجادة ، حتى اذا امتدحها كان أمينا فى نقده . كانت تريد أن تثبت له أنها تحيا فى دورها حقا وأن نفسها تلاشت فى الشخصية الجديدة التى تقمصتها .. وبدأ هو يحس مبلغ ما فى نصيحته من السخف والجنون عندما وجد أن

المخلوقة التى تدله فى حبها قد أخذت تتسرب من يده ، المخلوقة العميقة الذكية الهادئة المتزنة الحس .. وأنه قد استبدل بها مخلوقة أخرى تافهة رعناء مخبولة تكره الدار وتبغض الأطفال .

وأسقط فى يده ولم يدر كيف يقنعها أن تنسى نصيحته ، وأن من الجنون أن تستمر مرتدية تلك الشخصية التى تقوم بدورها على المسرح فى حياتها الخاصة ، وأنه يجب أن تنسى كل شىء عن دورها بمجرد أن تترك المسرح ، والا أضحت الحياة بجوارها جحيما لايطاق . وبدأ يذوق الأمرين فى الاعتذار عن هفواتها وسخافاتها وحماقاتها مع المعارف والأصدقاء ، ولم يكن يعزيه شىء الا أن المسألة ليست الا مسألة طارئة وأن دوامها لن يزيد على عرض الرواية ، وحمد الله على أن دورها على ما سببه له من متاعب خير بكثير مما كان يمكن أن يكون .

ونجحت هى فى دورها الجديد أيما نجاح وبلغت فى تمثيلها الذروة ، وقال عنها النقاد أنها امرأة عبقرية ، وأن المسرح لم ير مثلها منذ عدة أجيال ، وانتهى أخيرا عرض الرواية ، وأحس هو بعبء ينزاح عن كاهله ، وتنفس الصعداء عندما شعر أخيرا أن المخلوقة المثالية التى أحبها قد عادت اليه وأنها قد خلعت ثوب التفاهة الذى ترتديه .

ومرت عدة أسابيع وهو ينعم بحياة هادئة .. حتى كان ذات يوم وقد عاد الى داره ، فسمع صراخا شديدا ، وأسرع الى مصدر الصراخ فوجدها تقف أمام المرآة وقد تمزق ثوبها من فوق كتفيها وتهدل شعرها على وجهها وبدت فى عينها نظرات فزع مجنونة ، ووقف أمام الباب يلهث ويسألها عما بها ، وفجأة انطلقت منها ضحكة عالية وقالت له :

ما رأيك ؟

– فيم ؟

– فى هذا الدور الجديد .

ثم مدت يدها اليه بمجموعة أوراق مخطوطة .. وأمسك هو بالرواية وأحس أن رأسه يدور به ، واتخذ مجلسه فوق أحد المقاعد ، ووقفت هى وراءه وقد أحاطته بذراعيها ، ومن الصفحة الأولى أدرك الرداء الذى تنوى زوجته ارتداءه ، أو على الأصح تبين أى زوجه جديدة يوشك أن يعيش معها .. لقد كان دور البطلة فى الرواية الجديدة (عاهرة مجنونة) ياساتر يارب .. عاهرة ومجنونة ؟

– لا .. لا .. الا هذا .

ولم يعد فى قوس الصبر منزع ، ونظرت اليه بعد أن أطبق الرواية وقالت له :

– طبعا .. ستقول كعادتك دائما ، أنها بايخة .

– لا .. لا .. ان عندى فكرة جديدة أود أن أعرضها عليك .

– أريد أولا أن أعرف رأيك فى الرواية ؟

– لا أستطيع أن أبدى رأيى فيها قبل أن أتم قراءتها ، ولكنى سأعرض عليك فكرة هائلة .

وسادت فترة صمت طويلة بدا خلالها كأنه قد استغرق فى تفكير عميق ثم قال لها :

– ما رأيك فى أن أكتب مسرحية خصصتها لك ؟

– أنت ؟ ولكنك لم تكتب مسرحيات من قبل .

– وهل هذا معناه أني لا أعرف الكتابة ؟ سأكتب لك الدور الذى خلق من أجلك ، وخلقت من أجله .

ومرت الأيام بعد ذلك ، وهو لايفعل شيئا سوى كتابة المسرحية الجديدة وقد سجن نفسه فى حجرته لايزور أحدا ولايكلم أحدا .. وانتهى أخيرا من كتابة المسرحية ورسم بطلتها كما يشتهى .. زهرة ناضرة .. يفوح منها الشذى ، ويتضوع منها العبير ، أمرأة مثالية .. سديدة الرأى ، صافية الذهن ، عاقلة مدبرة ، وفيه مخلصة .. ربة دار وأم أطفال ، تعين زوجها على الحياة ولاتعينها عليه .. هادئة طيبة ، حمالة للأسى ، صبورة على المكاره .. لقد رسم بها ذلك الشيء الذى عشقه فى صاحبته وسلط عليها من أضواء قلبه وأوهام ذهنه ما وضعها مصاف الملائكة .

وأعطاها الرواية لكى تقرأها وتبدى له رأيها فيها ، وجلس فى الحديقة ينتظر فى قلق وخشية ، كيف ستقع الرواية من نفسها .

ومر الوقت بطيئا مملا حتى أحس بوقع أقدامها على رمال الحديقة ثم أحس يديها تحيطانه من عنقه. وسألها هامسا :

– كيف وجدتينها ؟

فأجابت :

– مدهشة .

ثم أدارت وجهها فأبصر فى عينها دمعة تترقرق وسألها فى دهشة :

– ما بالك ؟

فقالت :

– لقد رسمتنى كما تريد .. وسأكون كما رسمتنى .

ثم مدت يديها اليه بالرواية وقالت :

– خذها لا حاجة بى اليها .. انى أستطيع أن أحيا فى دورى الذى رسمته بدون حاجة اليها .. انى سأحيا فى دورى هنا فى الدار فقط .. سأنجب أطفالا فى الحديقة لا على المسرح .. هذا هو دورى الأخير .

★ ★ ★

الرداء الأخير

لم يكن يخطر على باله قط أنه سيلتقى بها .. عندما جلس والأستاذ على شاكر صاحب جريدة (المساء) فى تراس شبرد يرشف قدحا من القهوة فاذا به يلمحها مقبلة تصعد درجات السلم فى خفة .

ولقد تملكه من رؤيتها شعور بالدهشة والإعجاب فقد كانت فى حقيقتها أكثر روعة مما تبدو على الشاشة أو على المسرح .. وشعر بالخجل والخشية من ذلك النقد الذى سلخها به منذ بضعة أيام .. وان كان قد أحس ببعض الطمأنينة لأنه توقع أن تمر به مر الكرام .. فلا شك فى أنها لاتعرف عنه سوى اسمه .

وتشاغل بتصفح جريدة أمامه .. ولكنه لم يشعر الا وصاحبه قد نهض محييا مرحبا .. ورفع بصره فاذا بها تقف وقد علت وجهها ابتسامة ساحرة .

كانت المرأة الأولى التى التقيا فيها وجها لوجه .. فما رآها من قبل الا على الشاشة البيضاء أو على خشبة المسرح ومع ذلك كتب عنها

كما كتب عن سواها الشيء الكثير .. وكال لها من لاذع النقد ومرير الكلام ما هوى بها الى أسفل سافلين ، ولقد فاجأه اللقاء فما كان به شديد لهفة عليه .. فقد كان أكثر ما يخشاه هو لقاء .

في ليلة عجيبة .. اقتطعها الله من ليالى الجنة .. وأسقطها لأهل لارض فاندست فى لياليهم .. ليلة ظلمها من سماها ليلة .. فهى ليست من الليل فى شيء .. ففى سحرها نور أبهر البصر من نور النهار .. ليلة .. لاينام فيها الا الحمقى والمجانين ..

فى هذه الليلة جلست الشاعرة وحولها جمع من الخلان ، أسكرهم سحر الليل والخمر والهوى .. فانطلقوا فى الرقص والضحك .. ولم يكن بينهم انسان الا غمر النعيم ، وملأته النشوة .. وبدأ الغناء فصمت القوم وأنصتوا .. وراحوا من الطرب فى شبه غيبوبة .. وانتهى الغناء فضج القوم بالتصفيق والهتاف .

ووقف بين القوم فجأة فتى أسمر الوجه ، دقيق التقاطع ، حلو الملامح .. وقد أمسك بقيثاره فى يده .. وأشار باليد الأخرى للقوم أن ينصتوا .. وأنكر القوم الفتى .. فقد كان غريبا مغمورا .. لم يسمع به من قبل فى عالم الغناء .. ولكن الفتى يأبه ، وأصر على أن يغنى .. وبدأ غناءه بالفعل .. فاذا بالقوم تتملكهم هزّة ، وينتفضون ، كما انتفض العصفور بلله القطر .

هذا الفتى لايمكن أن يكون آدميا .. اذا ليس بانسان قط من كان مثله .. وان كان انسانا .. فلاشك أنه ساحر من السحرة .. والا لما ترك القوم هكذا جاحظى الأعين فاغرى الأفواه ، لا حراك بهم ، كأنهم أجساد بلا أرواح أو كأنهم أهل الكهف !

وانتهى من الغناء ، فردّت الروح الى القوم ، وجاشت فيهم الحياة .. فانطلقت حناجرهم بصيحات الإعجاب ، وتكاكأوا على الفتى يوسعونه تقديرا واعجابا .

وهدأ القوم وسكتت ثائرتهم ، فصاح أحدهم يطالب الفتى أن يغنيهم بعضا من شعر الشاعرة .. وظهرت الحيرة على الفتى .. وبدا عليه أنه لم يسمع لا عن الشاعرة ولا عن شعر الشاعرة .

وأصر القوم على طلبهم ، فلقنوا الفتى من نظم الشاعرة أبياتا تسيل رقة وعذوبة .. وسرعان ما ارتجل الفتى لها لحنا وبدأ فى غنائه .

وخيل الى الشاعرة أنها لاتبصر من حولها .. وأحست لحن الفتى قد حملها بعيدا الى عالم مليء بالفتنة والسحر .. عالم لايحوى من الكائنات سواهما .. وخيل اليها أنها تسمع همسات تقول :

(هنا لاتقع العين على غيرى ولاغيرك) .

أى عذوبة أضفاها اللحن على الشعر ؟ وأى جمال ، ورونق كساه اياه ؟ .. أهذا هو حقا ما قالته هى ؟ لاتظن .. فو الله ما أصاب الشعر من نفسها عندما قالته مثقال ذرة مما أصابه عندما غناه الفتى .. لقد كانت التمثال .. وكان كنافخ الروح فيه .

وانتهى الفتى من الغناء .. وكم ودت لو لم يكن لغنائه من نهاية .. بل يستمر يغنى ويغنى فلا ينتهى الا وقد انتهى العمر ونضب معين الحياة .

ومنذ تلك الليلة ، والشاعرة قد غمرتها نشوة لاتكاد تفيق منها .. لقد وقعت الشاعرة فيما أوقعت الناس فيه .. وذاقت الكأس التى كانت تكتفى بحملها الى العشاق .. فأسكرتها خمرها .

وأحست الشاعرة لذة الهوى ، وأدركت أن ما نظمته فى الحب كان بالنسبة لحقيقته قشورا زائفة ، واندفع الفتى الموسيقى الناشىء فى حبها حبا جنونيا .

ورحل العاشقان الى كوخ الفتى على شاطىء البحر .. ليمرحا فيه فترة من الوقت بعد أن اتفقا على الزواج .

ووقفت الشاعرة تطل من نافذة الكوخ وقد امتد البحر أمامها فى زرقة عجيبة ، وصافح نسيمه الرطب وجهها فأحست أن بالحياة حقائق قد تفوق فى متعتها أجمل الأحلام .. وعجبت لنفسها كيف استطاعت أن تحيا فيما مضى دون حب .. وكيف كانت تحتمل تلك الحياة الجوفاء الخالية !

وأحست الفتاة بوقع أقدام تدب خلفها متسللة .. وكانت أذناها لاتخطئان قط صوت أقدام الفتى .. ولكنها لم تتحرك كأنها ما شعرت بقدومه .. لقد كانت تعرف ماذا سيفعل ، وكانت تتمنى أن يفعله فى كل آونة .. كان كثيرا ما يتسلل اليها .. فلا تشعر الا وشفتاه قد مستا عنقها فى لهفة وشغف فتسرى فى جسدها رعدة لذيذة ، وتتسلل الشفتان الملتهبتان من العنق الى الذقن الى الفم الى العينين .. فلا تتركانها الا ووجهها قد ألهبته القبل ، وكانت تحس به فى كل مرة عندما يتسلل خلفها ولكنها كانت دائما تدعى أنها لاتشعر !

وكان كوخ الفتى – على صغره وبساطته – جميلا أنيقا .. وكان المكان خاليا ألا من بضعة أكواخ صغيرة متشابهة .. وكان الفتى يعيش مع أمه العجوز الطيبة التى رحبت بقدوم الفتاة الشاعرة أيما ترحيب .. فقد كانت الفتاة رقيقة لطيفة المعشر .. حلوة الحديث .. فسرعان ما جذبت اليها قلب العجوز .

وفى ذات يوم نزلت الى حديقة الكوخ فاذا بفتاة شقراء قد جلست فى زكن الحديقة .. وعندما اقتربت منها الشاعرة وقفت الفتاة فى احترام شديد وقد بدا عليها الخجل ثم قالت بصوت خفيض :

– لقد كنت انتظر خروجك فى لهفة .. ألست سيدتى الشاعرة ؟

وفوجئت الشاعرة وبدا عليها الارتباك فقد انغمرت فى حياة الهوى الجديدة ونسيت كل ما عداها .. حتى أنها شاعرة .. فقد خلا رأسها من كل شىء الا الحب .. وصمتت لحظة ثم أجابت بهدوء :

– نعم .. انى هى .

وملأ السرور نفس الفتاة الصغيرة الشقراء، وافتر ثغرها عن ابتسامة ساحرة جذابة ، وقالت فى فرح شديد :

– لقد سمعت اسمك يتردد على فم الخادمة ، ولم يخطر لى على بال أنك الشاعرة التى أحفظ لها كل بيت قالته .. بل كل كلمة .. بل كل حرف ، ولم تكن لى أمنية الا لقاءك .. أو حتى رؤيتك عن بعد .. فتخيلى ياسيدتى أننى أسمع أنك تقطنين بجوارنا .. أى صدفة عجيبة تلك التى ألقت بى الى هذه الناحية ؟ ! اننا لم نقطن هنا الا منذ يومين ، وكنت لا أرغب فى السكنى فى هذا المكان ، ولكننا لم نجد سواه .. فنزلنا فيه مكرهين .. فتصوّرى ياسيدتى أننى أسمع بعد ذلك أنك تنزلين بجوارنا .. أى فرصة سعيدة ..

وكان الحديث يتدفق من فم الفتاة .فلم يسع الشاعرة الا أن تستمع . ولو قيل لها هذا الكلام فى غير ذلك الوقت لما أحست بأن هناك من يعادلها غبطة وسعادة .. اذ لم يكن يسرها شىء قدر أن تسمع

ثناء المعجبين بشعرها .. ولكنها الآن .. لم تجد معنى لكلمات الفتاة فلم تسرّها .. ولم تحرك مشاعرها .. لقد كانت زاهدة فى كل شىء عدا الحب .. لم تكن ترغب فى رؤية الفتاة أو غيرها .. لأنها كانت تود ألا يشغلها شىء عن فتاها المحبوب .

ولم تدر الشاعرة بم تجيب الفتاة وبدت عليها الحيرة والضيق .. ولكن الفتاة لم تترك لها فرصة للحيرة فقد عاودت الحديث قائلة :

– الواقع ياسيدتى أنه لاشىء يبعث على الغبطة قدر أن يقابل المرء عظماء الناس .. ويجلس اليهم ويحدثهم .

وقطعت الفتاة حديثها ، فقد بدا الفتى فى باب الكوخ ، بقوامه الفارع ، وملامحه الجذّابة .. وأبصرت الشاعرة عينى الفتاة تبرقان بالإعجاب ، فأحست بشعور قلق مبهم ، وسألتها الفتاة بسذاجة :

– ترى من يكون؟

– أنه صاحب الكوخ ، وزوجى فى المستقبل .

واقترب الفتى .. فقدمت اليه الفتاة قائلة :

– جارتكم الجديدة .

وسلم عليها الفتى باسما مرحبا . وقالت الفتاة :

– انه مما يشرف الناحية ياسيدى أن تنزل بها الشاعرة ، وسيسجل لها التاريخ ذلك .

وعلا صوت الفتى مقهقها وأجاب :

– لم أكن أظن أنك على هذا القدر من الشهرة .. أو ترين أن أهل هذه الناحية مصابون بداء الشعر ؟

وضاقت الشاعرة ذرعا بمديح الفتاة .. وساءلت نفسها اذا كانت الفتاة تنوى أن تضيع عليها يومها بالاستمرار فى كيل ألفاظ المديح والإعجاب .. وأحست بشدة بغضها للشعر .. والشعراء .. ووجدت نفسها تقول للفتاة معتذرة :

— كنا ننوى التنزه على الشاطىء .. فلعل مغادرتنا لك لاتضايقك .

وحاولت الشاعرة أن تكون رقيقة فى اعتذارها .. ولكن جملتها بدت جافة .. حتى دهش الفتى لها بعض الدهشة وبدا على وجه الفتاة احمرار خجل طفيف .. وأجابت متلعثمة :

— بالعكس يا سيدتى .. انا التى أخشى أن أكون قد ضايقتك بتطفلى .. ولكن عذرى فى ذلك هو شدة لهفتى الى رؤيتك .

وشدّت الفتاة على يديهما ، ورغبت الشاعرة فى أن تعتذر عن خشونتها فقالت للفتاة :

— أرجو ألا تكفى عن زيارتنا بين آن وآخر .. فان زيارتك تسعدنا .

وبرقت أسارير الفتاة وغادرتهما مغتبطة .

وانطلق العاشقان الى البحر وبنفس الشاعرة بعض القلق والخوف والحقد ، والغير .. ولكن عند عودتهما كان كل ما بنفسها قد ذهب وحل محله الثقة والاطمئنان .

وفى المساء جلس العاشقان ينعمان بأحلام الحب وأمانيه العذبة . الى أن قال الفتى :

– لقد شغلنا الحب عن الحديث عن شعرك .. لقد أدهشتنى الفتاة بما قالت ، فانى لم أسمع منك غير تلك الأبيات التى غنيتها فى أول لقاء .

– لاتصدق حديثها ..فأغلب ظنى أنها طفلة حمقاء .. ودعنا من حديث الشعر .. فلا أريد أن يشغلنا الآن شىء عن حديث الحب .

وفى اليوم التالى عادت الفتاة فى الصباح المبكر وهى تحمل معها رزمة من الورق ، واستقبلها الفتى مرحبا ، فسألته عن الشاعرة .. وأخبرته أنها تود لو تستطيع الفوز بتوقيعها على مجموعة الشعر التى سجلتها فى هذه الأوراق .. وبعد هنيهة قدمت الشاعرة فما أن رأت الفتاة حتى عاودها القلق .. وسألتها الفتاة فى رفق وأدب أن تسمح لها بامضائها .

ودهش الفتى عندما وقع بصره على مجموعة الأوراق المليئة بالشعر .. وأخذ يقلب صفحاتها بين يديه وسأل الشاعرة :

كل هذا من نظمك أنت ؟

– نعم .

وسألته الفتاة فى دهشة :

– ألم تقرأ لها شيئا ؟ انى لم أشغف بشىء فى الحياة قدر شغفى بشعرها .

وأحست الشاعرة أنها لن تستطيع أن تحتمل المزيد من مدح الفتاة .. وكان الجو يبشر بيوم شديد القيظ فاقترحت الشاعرة أن يذهبا للسباحة فى البحر .. ولكن الفتاة صاحت دهشة متعجبة :

– أنت تسبحين ؟

ونظرت اليها الشاعرة نظرتها الى بلهاء أو مجنونة وسألتها فى هدوء :

— وأى غرابة فى ذلك.؟

— شاعرة .. تسبح ! لم أكن أظن أن العظماء يستطيعون السباحة ، اذ يخيل الىّ أنه ليس لديهم وقت لذلك .. وانهم لايغادرون صومعاتهم التى يتلقون فيها الوحى .

ولاحظ الفتى تبرّم الشاعرة بالفتاة وأراد أن ينقذ الموقف فعرض أن يذهبوا جميعا للسباحة . فبدا على الفتاة الفرح لهذا الاقتراح وانطلقت معهما الى البحر .

وكانت الفتاة ماهرة في السباحة فاندفعت فى البحر .. واندفع معها الفتى .. وحاولت الشاعرة أن تندفع .. ولكنها شعرت بالعجز والوهن .. وأحست أنها – كما قالت الفتاة – لاتعدو أن تكون شاعرة لا قبل لها بالسباحة .. وعادت الشاعرة الى الشاطىء .. وغاب الفتى والفتاة عن بصرها فى جوف الماء .. ولم تستطع أن تمنع لوعة تسرّبت الى نفسها .. ووجدت قدماها تسوقانها الى الكوخ فعادت من حيث أتت .

وجلست فى حجرتها حزينة واجمة .. لقد أحست بخوف من الفتاة منذ أن وقع عليها بصرها .. لم تدر ما سبب الخوف .

ولكنها لم تستطع أن تمنعه وأحست بأنها مجهدة منهكة ، وغلبها الإعياء فراحت فى اغفاءة .

وعندما أفاقت كان الفتى والفتاة قد عادا .. وسمعت صوت الفتاة تتحدث .. فأنصتت قليلا .. فاذا بالفتاة تقرأ للفتى أشعارها .

وقامت الشاعرة وأصلحت نفسها فى المرآة .. وكانت تحس شعور المتأهب لقتال .. القادم على معركة .

وعندما أبصر الفتى الشاعرة نظر اليها نظرة بها بعض الغرابة وقال :

– لقد حدثتنى عنك بما كنت أجهل .. وقرأت لى الكثير من شعرك .

ورغبت الشاعرة فى أن تنحو بالكلام ناحية أخرى فقالت :

– لقد أصابنى الإجهاد فى البحر .. لأنى فى حاجة الى كثرة المران .

وردّت الفتاة فى رفق ولين :

– لا أظن العظماء فى حاجة الى أن يجيدوا السباحة .

فهتفت الشاعرة فى خشونة :

– لا أظن هناك علاقة بين العظمة والسباحة .. ثم شيئا آخر .. أرجوك أن تكفى عن الزج بى فى معشر العظماء فما كنت منهم فى يوم من الأيام .

وانصرفت الفتاة بعد قليل ، وجلست الشاعرة والفتى وحيدين ، وأحست الأولى أن بالجو شيئا لم تعتده .. كأن ستارا قد قام بينهما وبين الفتى .

قالت : لم لاتتكلم .. انى أحس أن بنفسك شيئا .. قله أيا كان .. فهو خير من الصمت .

– انى أسائل نفسى .. ترى هل أصلح لك .. لقد أخفيت عنى حقيقتك .. كنت أعلم أنك تقولين الشعر .. ولكنى لم أعلم قط أن لك

دواوينا يحفظها الناس عن ظهر قلب .. ما ظننت أنك عظيمة بهذا القدر .. ولكنى أتساءل الآن .. أيصلح هذا الفتى الموسيقى الناشىء الذى لم يشق طريقه فى الحياة بعد لهذه الشاعرة العظيمة المتربعة على قمة المجد .. انى لا أكره شيئا فى الحياة قدر أن أكون الشريك الأضعف أو الأقل قدرا .. خير لنا أن ننتظر قليلا حتى أسير فى الطريق .. ثم أصبح ندًّا لك .

وأحست الشاعرة أن قلبها يعصره الألم ، وأحست بالدموع تترقرق فى عينيها وقالت :

— اذا كان الشعر هو كل مافى الأمر .. فأعدك ألا أقول الشعر أبدا .

— هذا أسوأ ما فى الأمر .. فانى سأكون بذلك حجر عثرة فى سبيلك .

ومرّت الأيام بعد ذلك ثقيلة مملة .. لم يحدث بينهما شىء .. سوى أن تغير كل شىء ، ولم يفعل الفتى ما يحزنها ولكن لم يك يفعل كذلك أى شىء .. لقد خبا الشوق وذهبت اللهفة .. لقد انطفأت ثورة الحب التى كانت تتأجج بينهما .

وأخيرا أدركت الشاعرة أنه لم يعد هناك أمل فى نعيم أو رجاء فى هناء ، وأن الأيام تباعد بينهما رويدا رويدا .. فقررت الرحيل .. وذات صباح أنبأته بعزمها . وفهم الفتى فأطرق برأسه برهة . ولم يجب بشىء .

وأعدت الشاعرة حقائبها .

وهمت بمغادرة الدار .. فاذا بالفتاة تجلس فى الحديقة كما رأتها أول مرة ، ورفعت الفتاة رأسها وبدت عليها أمارات الدهشة والحزن وقالت :

– أبهذه السرعة ستغادريننا ؟ كم أود لو تبقين بيننا مدة أطول ، ولكن هكذا العظماء دائما سريعو الملل والسأم .

وحدجتها الشاعرة بنظرة فاحصة .. فبدا لها فى الفتاة شىء لم تتنبه اليه من قبل .. شىء جعل الدم يغلى فى عروقها .. لقد لمحت في عينى الفتاة نظرات تهكم وسخرية وانتصار .. وبدت لها الحقيقة لأول مرة جلية واضحة .. لقد كانت لعبة فى يد الفتاة التى ظنتها ساذجة حمقاء .. سلبتها فتاها بطريقة عجيبة لم تخطر لها على بال قط .. لقد أحبت الفتى ووجدت أن الشاعرة لاعيب فيها ولانقص تستطيع استغلاله لإبعاد الفتى عنها .. فلم تجد خيرا من الطريقة التى اتبعتها .. يا لها من شيطانة ماكرة .

صاحت الفتاة :

– أيتها الماكرة الخبيثة كفى هزلا وسخرية .. لقد حاولت أن تفهميه أن الفرق بيننا شاسع بعيد ، وأنَ أحدنا فى القمة والآخر فى الحضيض ، وغرست فى نفسه أن أحدنا لايصلح للآخر كى تأخذيه لنفسك .. لقد ظننتك حمقاء ، ولكن كنت أنا الحمقاء .

وبدا الفتى فى تلك اللحظة على الباب فصاحت الشاعرة باكية :

– انى أمقتكما !

وانطلقت تعدو الى الشاطىء هاربة من الكوخ .. وهناك استقرت لحظة على احدى صخور الشاطىء وقد تلاحقت أنفاسها ، وبعد برهة

قصيرة خيل اليها أنها تسمع وقع أقدام خلفها فأدركت أنه صدى الذكرى الماضية .. ولكنها أحست فجأة بشفتين على عنقها وانتقلت الشفتان الى العينين المبللتين بالدموع واستقرتا أخيرا على الشفتين ، ولو خيرت الشاعرة بين لذة هذه اللحظة ، وبين العمر كله ، لاختارت تلك اللحظة .. لقد فهم الفتى كل شيء ولم يعد يخشى شيئا ، وصمم أن يبلغ الى قمة المجد حتى يتساويا وطلب منها أن تنشده بعضا من شعرها .. فغناه لها .. وراحا في نشوة من الهوى والشعر والغناء .

★ ★ ★

ليالى الطفولة

لم تكن لى أمنية فى ذلك الوقت الا السكنى فى ذلك ، البيت (المسكون) .. ولم يكن ذلك حبا منى فى الجن والأرواح التى كانوا يدعون أنها تسكنه .. ولا كان عن رغبة فى مشاكستها ومعاكستها .. بل كان كل ما يستهوينى فيه ، هو شجرة التوت العالية التى تطل بفروعها المورقة من الحديقة الصامتة المتوحشة .

كنت وقتئذ فى الثانية عشرة .. وكنا نمر على الدار المسكونة كل صباح عند ذهابنا الى المدرسة .. ولم يكن يلذ لنا شىء قدر أن نمد أعناقنا الصغيرة من خلال قضبان السور الحديدى لنستطيع ماوراءه من أشجار متكاثفة متعانقة .

وكانت الحديقة تبدو لنا أنها بحر خضم لاتكاد تبلغ العين مداه .. وكانت عقولنا الصغيرة تتخيلها مليئة بالسحر والأسرار .

وما زلت أذكر تلك الأيام التى كنا نستيقظ فيها وضوء الشمس لم يظهر بعد . فنتسلل من دورنا خفية لنذهب الى الدار المسكونة قبل

أن يستيقظ حارسها الأسود العجوز .. فنتسلق السور ونقطف أوراق التوت الذى كنا نحتاج اليه لتغذية دود القز الذى كانت تستهوينا تربيته .

وكان بيننا وبين الحارس عم محمد ، وهراوته ، ما صنع الحداد ، وانى لأعجب الآن ماذا كان يود ذلك الأبلة العجوز أن يصنع بورق التوت ، ولأى أمر كان يحرّمه علينا ويجرى وراءنا بهراوته صاخبا مهددا عندما يضبطنا متلبسين بجريمة الشعلقة على السور .

وتطوّر الأمر من رغبتنا فى قطف ورق التوت الى رغبتنا فى معاكسة عم محمد واستثارة غضبه .. والعبث به ، والسخرية منه . والواقع أننا قد برعنا فى هذا الأمر وتفننا فيه . وانى لأذكر ذلك اليوم الذى وطدنا فيه النية على أن نقتحم الحديقة .. ونرتع فيها كما نشاء .. ونستكشف خباياها ونستطلع أسرارها .. وذهبنا الى الدار ومع كل منا هراوة وقد صممنا على ألا نفر من عم محمد .. بل نواجهه مواجهة الند للند .. ونطلب اليه أن يسمح لنا بالدخول ، فان رضى كان بها ، وان أبى فهو الجانى على نفسه .. وهو المسئول عما سيحدث له نتيجة العلقة الساخنة التى صممنا على أن نعطيها له .

وعندما وصلنا الى الدار لم نجد صاحبنا على بابها .. ووجدنا الباب غير مغلق .. وناديناه فلم يجبنا أحد .. وخشينا أن تسللنا أن يكون الرجل قد وضع لنا كمينا ، فترددنا برهة ، ولكن أحدنا وهو محمود .. (أدى بولو) (هكذا كان يسمى نفسه تشبيها بأحد أبطال السينما) كان أكثرنا جرأة وأشدنا عفرتة .. فاقتحم الباب بخطوات ثابتة .. واختفى داخل الحديقة .

وبعد برهة قصيرة سمعنا منه صفارة طويلة ورأيناه قد أقبل فى تؤده وقد وضع يديه فى جيوبه كأنه يسير فى حديقة الخاصة .. ثم أشار الينا بكبرياء أنه يمكننا الدخول .

ولكنناترددنا وسألناه فى أصوات هامسة :

– وعم محمد ؟

– لقد سجنته .. وكفى الله المؤمنين القتال .

ثم علمنا منه أنه وجده منهمكا فى الصلاة فى حجرته .. فما كان منه الا أن أغلق الباب عليه بالمفتاح ووضع المفتاح فى جيبه ، وترك الرجل يصلى فى هدوء ما شاء له أن يصلى .

وكان يوما مشهودا من الأيام التى لايجود بمثلها الدهر ، أو هكذا هو على الأقل ما كنا نظن وقتئذ .

هذه الحديقة الساحرة العجيبة التى كنا ننتشى لمجرد أن نمد فيها رؤوسنا من بين قضبان السور الحديدى .. قد أضحت اليوم ملكا خاصا لنا لايشاركنا فيها أحد .. وعم محمد عدونا اللدود .. قد أضحى حبيسا مع هراوته .. لايملك كلاهما لنا ضرا ولا أذى .

وكان الوقت ربيعا ، وكل ما فى الحديقة ملوّن مزدهر وأشجار المشمش قد رصعت بالزهور البيضاء كأنها فصوص الماس ، وأزهار البرتقال قد تفتحت وفاح منها العبير وانتشر الشذى ، والنباتات كلها تكاد تتفجر من فرط الحياة .

وانطلقنا فى أنحاء الحديقة .. وتسلقنا أشجارها ، وقطفنا الزهور والثمار ، وأغرقنا الحديقة بالمياه ، وعبثنا ما شاءت لنا طفولتنا أن نعبث ونمرح ، ومثلنا كل أدوار البطولة التى رأيناها على الشاشة البيضاء من (طرزان) و (توم ميكس) .

وأخيرا .. وبعد أن أعيانا التعب .. وبعد أن استنفذنا كل ما نملك من قوى فى الجرى والقفز .. وبعد أن انتهت كل ما لدينا من وسائل

اللعب .. وبعد أن قلبنا أعلى الحديقة أسفلها ، وأسفلها عاليها ، وشققنا في أرضها (حوض البحر الأبيض) و (نهر النيل) .. ورفعنا فيها (جبالا الهملايا) ، و (هضبة التبت) ، وصنعنا من أفرع الشجر سفنا ومعابر وأكواخا وقصورا .. ولم نترك زهرة واحدة باقية على فروعها ، ولا طيرا واحدا هادئا في وكره .. أخيرا .. وبعد كل هذا فكرنا في العودة الى دورتنا .

وهنا وجدنا أنفسنا في مأذق حرج . ماذا نصنع بعم محمد ؟ لم يكن أمامنا الا أحد أمرين : اما أن نتركه في سجنه فيموت جوعا .. واما أن نفتح له فيميتنا ضربا .

وفيما نحن حيارى .. رأينا (ادى بولو) يتركنا ويعدو الى آخر الحديقة ثم يعود ومعه حبل طويل ورأيناه يخرج المفتاح من جيبه فيربطه في طرف الحبل ، ويعطيه لأحدنا ويأمره بأن يمسك به جيدا .. ثم يسير هو بالطرف الآخر فيذهب الى حجرة الرجل .

وطرق الباب بيده طرقة خفيفة ونادى :

— عم محمد .

وهنا سمعنا صياحا وضجيجا كأن في الحجرة ثورا هائجا وعلت من الحجرة ألفاظ السباب .. ووصلت الى آذاننا كلمات التهديد والوعيد ، فشعرنا بالفزع والخوف .. وانتهز (ادى بولو) لحظة صمت من الرجل فصاح به :

— اسمع ياعم محمد .. اذا كنت تنوى أن تستمر على هذا الهيجان والحمق فلن نكون مسئولين اذا تركناك تموت جوعا في حجرتك كالكلب الغبى .. واذا كنت تريد الحياة فاسمع الىّ .

وسكن الرجل وأصغى .. فاستمر صاحبنا فى الحديث :

– سأعطيك المفتاح من أسفل الباب .. ولكن ليس مباشرة حتى لاتفتح الباب المفتاح وتلاحقنا بهراوتك ، بل سأعطيك طرف حبل ربط المفتاح فى آخره .. فما عليك لكى تأخذ المفتاح الا أن تستمر فى جذب الحبل .. حتى يصل اليك المفتاح .

ثم مدّ يده فأدخل طرف الحبل من أسفل الباب واتجهنا الى باب الحديقة ومعنا الحبل الذى ربط به المفتاح وأخذ الرجل يجذب الحبل من ناحية ، ونحن من ناحية فما وصلنا الى الباب حتى كان الحبل قد امتد بطوله بين الحجرة وباب الحديقة ، فألقينا المفتاح ، وولينا الفرار .

وعدنا الى دورنا .. كأننا لم نرتكب أمرا ادّا ، ولا فعلا نكرا . وتسللت من الباب واتجهت رأسا الى الحمام حتى أزيل ما علق بى من طين وأوساخ .

وذهبت الى حجرة الأكل ، ودار الحديث بين أبى وأمى عن أن البيت الذى نقطنه لم يعد صالحا لنا ، وأنه يفكر فى الانتقال الى بيت أوسع ، وأنه لايدرى ماذا يمنعنا من أن نستأجر البيت الذى يدعى الناس أنه (مسكون) فليس هناك فى الناحية بيت فى مثل فخامته ولا ضآلة أجره .

وكدت أقفز من مكانى لفرط الفرح وصحت بأبى :

– أقسم لك أنه ليس مسكونا ، وأن الأمر لايزيد على اشاعة كاذبة .

وشعرت بيد أمى تمتد من خلف المنضدة ، فتقرضنى قرصة لاذعة فى اللباليب ، وتنهانى زاجرة ثائرة :

— لقد قلت لك ألا تتدخل فيما لايعنيك .. كل وانت ساكت .

ثم وجهت الحديث الى أبى ، وشرر الغضب يتطاير من عينيها :

— لم أر فى حياتى قط من هو أسخف منك الا ولدك ولا من ولدك الا أباه .. أتريد منى أن أقطن فى هذا البيت الموحش المخيف ، ان السكنى فى المقابر خير عندى وأفضل !

ولكنى أبى — بارك الله فيه — استطاع أن يقنع المرأة العنيدة بأن تذهب لترى البيت ، فقد يتغير رأيها عندما تراه .

ولو أخبرونى وقتئذ أننى قد صرت امبراطورا للعالم لما كانت فرحتى بأشد منها عند ما عادت أمى وأخبرتنا أنها قد وافقت على الانتقال الى البيت (المسكون) .

وكان فرحى فى الواقع قد بلغ حد الجنون ، حتى لقد رحت أرقص فى الحجرات من فرط الطرب .. من كان يظن هذا ؟

هذه الحديقة الواسعة ستصبح حديقتنا وشجرة التوت ستصبح كلها ملكا لى .. وسأدخل صبية الناحية ، يأخذون من ورقها ما شاءوا .. وهم آمنون مطمئنون من شر عم محمد .

ولم يكد يخطر على بالى عم محمد حتى قفزت من مكانى كأن بى مسا من جنون ، وصحت أخاطب نفسى :

— عم محمد ! (وقعت والا الهوى رماك) ، من كان يتخيل أن هذا الحيوان الأسود العجوز ، الذى طالما نالنى من هراوته الشىء الكثير .. سيصبح تحت رحمتى .. لقد أصبحت من الآن سيده ، سأثأر منه لكل أطفال الناحية .

وانتقلنا الى دارنا الجديد ، وكان فرحنا بها لايقدر ، فقد كانت الدار فاخرة حقا .. وكانت بها كل وسائل الراحة والرفاهية .. وكان من السخف أن نترك مثل هذه الدار طوال تلك المدة الطويلة . لا لشيء الا لمجرد اشاعات كاذبة أنها مسكونة بالجن والأرواح .

وكان يبدو على عم محمد أنه لم يكن مرتاحا لسكنانا فقد أخرجناه من مكمنه وأزعجناه في مأمنه ، وحرمناه من هدوئه الذى اعتاده وسط الدار الفسيحة ، الخاوية على عروشها .

وأزعجه أكثر من ذلك وحزّ فى نفسه أن هؤلاء الصبية الذين كانوا يخشون جانبه ، ويفزعون من رؤيته .. قد باتوا يأمرونه فيذعن للأمر ، ويزجرونه فيزدجر ... وفقد سلطانه عليهم وعلى الدار .. فاستباحوا حماها .. وانتهكوا حرمتها .

ومرت الأيام ونحن نرتع في الدار ونمرح ، حتى حدث ذات ليلة ما روّعنا وملأ نفوسنا فزعنا .

سمعنا صوت أنين بدأ خافتا ، ثم أخذ يعلو رويدا .. رويدا ، ثم انقطع فجأة .. وفى الصباح نقب أبى فى أنحاء الدار عله يعثر على مصدر الأنين ، فقد يكون قطة مريضة أو كلبا جريحا ، ولكنه لم يعثر على شيء .

وفى الليلة التالية سمعنا الأنين نفسه ، وزاد عليه بعض الصراخ الذى جعلنا نكمش فى أغطيتنا ، وجعلت أمى تقسم أن تترك الدار عندما تشرق الشمس .

وفى الصباح أرسل أبى فى طلب عم محمد وسأله عن سر ذلك الأنين والصراخ ، فأطرق الرجل برهة ثم أجاب :

— انه صوت الفتاة السجينة .

وسأله فى دهشة :

— الفتاة السجينة ؟ هنا فى الدار فتاة سجينة ؟

وهزَّ الرجل رأسه ببساطة علامة الموافقة ، فصاح به أبى فى سخرية :

— ومن الذى أجبرها على أن تظل سجينة حتى الآن ؟ ولم لاتنطلق الى حيث تشاء ؟ وفى أى حجرة تنزل هذه السجينة الحمقاء ؟

— انها فى البدروم يا سيدى .. وقد سمعت قصتها من أبى الذى سمعها من جدى .. لقد قال لى هذه الدار كان يملكها فى غابر الزمان أمير كريم المحتد .. عريق المنبت وسيم الطلعة ، متين البنيان ، وكان يعيش فى الدار مع أمه وأختيه .. وكانت أمه تود أن تزوّج ابنها باحدى الأميرات ولم يكن لدى الأمير اعتراض على ذلك . فقد كان خالى القلب ، وسارت الأمور على خير حال .. حتى حدث ذات مرة أن صدمت عربة الأمير فتاة فقيرة فى عرض الطريق ، فجرحت الفتاة ورق الأمير لحالها فحملها الى بيتها وأحضر لها طبيبا وداوم على زيارتها والعناية بها .

وبرأت الفتاة من جرحها .. ولكنها وجدت نفسها قد أصيبت بجرح آخر أعمق أثرا ، كان من العسير عليها شفاؤه اذ كان جرحا فى القلب لا فى الجسد ، فقد أحبت الفتاة الأمير حبا يائسا ووجدت نفسها تتخبط فى هوى لا أمل فيه .

ووجدت الفتاة أن الأمير لم يكف عن زيارتها حتى بعد برئها ، وأن عطفه قد ازداد عن ذى قبل .. وأخيرا اتضح للفتاة ان الأمير قد بات هو الآخر صبا مولعا .

واندفع الأمير في تيار الهوى فتزوج الفتاة وحملها الى الدار .. وقدمها الى أختيه . فأصابهما الذهول ، ولكنهما تمالكتا نفسيهما ، وتصنعتا الترحيب بها .

وأحنق الأم أن يتزوّج ابنها مثل هذه الفتاة الفقيرة .. ولم تطق الفتاتان وأمهما أن تصبح الفتاة الوضيعة الأصل ربة الدار .. فعقدن النية على التخلص منها بأى حال .

وفى ذات يوم غاب الأمير عن الدار فى رحلة تستغرق بضعة أيام ، فاستدرجن الفتاة الى القبور بالبدروم ودفعن بها الى داخله وتركنها حبيسة فيه .

وظلت الفتاة فى القبو مذهولة مشدوهة ، ثم بدأ الجوع يمزق أحشاءها ، فأخذت تستنجد وتستغيث ، وعلا أنينها وصياحها حتى بحّ منها الصوت وارتمت جثة هامدة .

وعاد الأمير من رحلته فأنبأوه أنها فرت هاربة .. فجن الرجل .. وترك البيت هائما .. هذه هى القصة يا سيدى .. ومن يومها والأنين والصياح لاينقطعان أبدا من القبو .

وانتهى حديث عم محمد وبدا علينا التأثر واستقر الرأى على أن نغادر الدار بمجرد العثور على دار أخرى .

واجتمعت بأصدقائى من الصبية ، فقصصت عليهم النبأ ، فأحزنهم أن يحرموا مرة ثانية من الحديقة .. وأن يعود (عم محمد) الى مطاردتهم بهراوته .

وانصرف الجميع .. ولكن محمود أو (ادى بولو) لم ينصرف .. ورأيته يقترب منى ويهمس فى أذنى أنه يخشى أن يكون فى الأمر دسيسة

من عم محمد يراد بها اخراجنا من البيت .. ثم اتفق معى على أن نتسلل ليلا لمراقبة عم محمد والتقينا فى الليل واختبأنا خلف شجرة أمام حجرة عم محمد وأخذنا ننتظر .

ولم تمض برهة قصيرة .. حتى رأينا الرجل قد خرج من حجرته يمينه ويساره .. ثم بدأ يخرج ذلك الأنين والصراخ الذى كان يملؤنا فزعا وهلعا .

وعاد الرجل الى الحجرة ، وطلب منى صاحبى ألا أخبر أحدا بما يفعله عجوز النحس .. وأن أقابله فى الليلة التالية ، واتفق معى على الدور الذى سنقوم به .

وفى الليلة التالية سبقنا الرجل الى القبو ، وانتظرناه هناك قابعين فى الظلمة ، وعندما سمعنا وقع أقدامه تقترب بدأ صاحبى يصدر من فمه أنينا يشبه ذلك الذى يصدره العجوز ، فوقف مكانه متسمرا لا حراك به وقد عقد الفزع لسانه ، وبدأت أنا أتكلم فى صوت خشن مقلدا صوت الرجال :

– ماذا يبكيك يافاتنتى ؟

وردّ صاحبى مقلدا صوت الفتاة :

– لقد سجنونى فى القبو ، وتركونى بلا طعام ، وأشعر بالجوع يلهب أحشائى .

– اطمئنى يا حبيبتى .. فانى سأحضر لك طعاما شهيا .. سأحضر لك لحمة رأس أسود عجوز ، ولكنها بلا مخ .. لأن صاحبها أحمق شرير .

ولم يكمل صاحبي حديثه ، فقد سمعنا عم محمد يصرخ صرخة مدوية ، ورأيناه يولى الأدبار كأن به مساً من شيطان رجيم .

وفى الصباح لم نر لعم محمد أثرا فى حجرته .. فقد فرّ من البيت .. ولم نعد بعد ذلك نسمع أنين الليل وعويله ، ولم يعد أحد يدعى بعد ذلك أن البيت مسكون .. اللهم الا رجلاً واحدا .. كان يؤمن فى قرارة نفسه أن البيت مسكون حقا .. ولم يك يجسر أن يقترب منه قط . وذلك هو عم محمد .

* * *

عفريتة الليل

كان الوقت ابان الظهيرة .. وقد أظلتنى من وهج الشمس شجرة عتيقة كأنها والزمن صنوان .. وجلس العجوز أمامى يسبح بمسبحة في يده ويتمتم بألفاظ لعله يستغفر ربه .. وبدا البيت أمامى كأنه قلعة ضخمة من قلاع العصور الوسطى .. فرددت لو استطعت أن أخترق بيصرى تلك السحب المسدلة من الجدران الضخمة حتى أبصر ما بداخلها من الأحاجى والأسرار .. وقلت للعجوز أستحثه على الكلام :

— تقول ان هذه الدار لم يقطنها انسى قط ؟ أتقصد بذلك أنه قد يكون بها سكان من نوع آخر ؟

— نعم يابنى .. لقد استبدلت الدار سكانا بسكان .. لقد كانت الدار تعج بالحياة .. فأصبحت تضج بالصمت والعدم ، ولو أنى لم أرها قط الا فى هذا الصمت والعدم .. فمنذ أن وعيت على هذه الدنيا ، وأنا أبصرها كما تبصرها الآن .. موحشة كئيبة .. مقفرة مظلمة .. ولكن أبى قد أنبأنى بقصتها التى سمعها عن أبيه عن جده .. فقد توارثت

عائلتنا الحراسة فى هذه الدار جيلا بعد جيل .. حتى أصبحنا لازمة من لوازمها كهذه الشجرة التى تظلنا الآن ..

تبدأ قصة هذه الدار فى غابر الزمن عندما كانت قصرا لحاكم المدينة وكان رجلا حكيما عادلا .. وكانت قلوب الرعية تفيض بحبه والولاء له .. ولكن البلاد كانت ترزح فى ذلك الوقت تحت نير سلطان أجنبى .. وكان على حاكم البلدة أن يؤدى له جزية سنوية فادحة .. ففى احدى السنين طلب منه السلطان أن يضاعف الجزية ، ووجد الحاكم أن ذلك افراط فى الحيف والظلم .. فرفض أن يجيب السلطان الى مطلبه وأعلن العصيان .

وكان السلطان فتى طائشا أحمق فتملكه الغضب وأمر بأن يجهز جيشا لتأديب ذلك الحاكم العاصى .

وبدأ الحاكم يكوّن جيشا من أهل المدينة لصد الجيش الغازى .. وسرعان ما احتشد أهل المدينة وقد تناولوا كل ما استطاعت أن تصل اليه أيديهم من أسلحة وهراوات ، وفؤوس .. واصطدم جيش الطغاة بأهل المدينة البواسل ففتك بهم فتكا شديدا .. وتحصن الحاكم وبعض من جنوده فى هذه الدار .. فلم تطل مقاومتهم الا فترة وجيزة .. استطاع الغزاة أن يقتحموا بعدها الدار فسقوا الحاكم ورجاله كأسا دهاقا ومزّقوا جثثهم اربا اربا .

وسيقت النساء سبايا .. وبدأ السلطان الأحمق يستعرضهن واحدة واحدة .. وكانت أولاهن ابنة الحاكم ، فأخذ الفتى بجمالها .. ولم يستطيع أن يقاوم بريق عينيها أو سحر شفتيها ، ولم يحاول أن يرى غيرها من السبايا .. بل أمر حاشيته وقواده بأن ينصرفوا عنه ويتركوه مع الفتاة .

وقع السلطان فى شرك هواها وحاول أن يستميلها اليه . ولكن قلبها كان يفيض بالبغض والكراهية له .. ولم يجد اغراؤه اياها بالزواج .. وبأن تكون ملكة متوجة ، فقد استمرت تلقاه فى جمود كأنها جسد بلا روح .. وأخيرا نفذ صبره .. فصمم على أن ينتزع منها الحب انتزاعا .. فأمر بأن توضع فى قبو فى أسفل الدار .. وأحضر أحد البنائين وأمره بأن يقيم جدارا يسد به باب القبو ، فلا يترك منه الا فتحة ضيقة .. وأنبأ الفتاة أنه سيدفنها حية فى هذا القبو أن استمرت على ازدرائها اياه واحتقارها له .. وأخبرها أنه سيترك لها فرصة يوم لتنبئه بما استقر عليه رأيها .. وأن عليها الآن أن تختار بين حبه وبين هذه الميتة المخيفة .

وفى اليوم التالى نزل الفتى الى القبو وسألها : اما زلت مصرّة على نفورك ؟ .. ولكن الفتاة استنكفت أن تجيبه .. فما كان من الطاغية الا أن سد الفتحة الباقية من الجدار .. وترك الفتاة حية فى قبرها .

وفى نفس اليوم اشتعلت بين جنود الفتى فتنة فثاروا عليه وهاجموا القصر ، فحاول تهدئتهم ، ولكن أحد الجند طعنه فى صدره فخر الى الأرض صريعا ، وأحس أن نهايته قد أخذت تدنو وشعر بالندم يخزه على حبسه الفتاة حية فى ذلك القبو .. وبدأ يتحامل على نفسه فأمسك بفأس وأخذ يزحف بها نحو القبو حتى وصل الى ذلك الجدار الذى أقامه ، وهم برفع الفأس ليثقب الجدار ، ولكن قواه خانته فهوى الى الأرض جثة هامدة .. وبقيت الفتاة حبيسة فى قبرها .. وبعد بضعة أيام ثار أهل المدينة فطردوا جيش الغزاة . واستردوا دار الحاكم ولكن أحدا لم يجسر أن يقطنها أو يزاحم هذين الروحين اللذين يأبيان أن يفارقاها .. فاحداهما حبيسة فى القبو الأخرى حائرة اما الجدار تحاول اخراجها .

وصمت العجوز فكدت أنفجر من فرط الضحك .. يا للأقصوصة الممتعة ! أهذا هو مايخيف الناس من سكنى الداز ؛ روح سجينة فى القبو وروح تحاول هدم الجدار .. أمن أجل هذه الخرافة المضحكة التى يرويها العجوز الأحمق تبقى الدار مهجورة مقفرة طوال تلك السنين ؟ .. واذا كانت تلك العقول الضيقة قد صدقت هذه الأسطورة الركيكة .. فلم لايحاول أحدهم أن يدخل الدار فيهدم بنفسه ذلك الجدار ويطلق الروحين الحائرين الى حال سبيلهما ؟

ونظر الىّ العجوز نظرته الى طفل أبله .. ثم هز رأسه وقال فى هدوء :

— يا بنى . كف عن السخرية فما رويت لك الا ما سمعت . وما أظن أن أبى قد روى لى الكذب .. وعلى أية حال ، فهب أن القصة كلها محض خرافة .. فماذا ترى فى أولئك الذين سخروا منها كم سخرت أنت ، وحاولوا أن يقطنوها ، فلم تمض بضعة أيام الا وقد رزئوا بموت واحد منهم ، فعجلوا بالفرار منها وتركوا الدار بتحفها الثمينة ورياشها الفخمة .. دون أن يجسروا على العودة اليها قط .

— أما انهم رزئوا بموت واحد منهم .. فلا أظن الدار لها دخل فى ذلك الأمر .. الا اذا كنت تظن أنهم مخلدون فى الحياة .. وأما أنه مات بعد بضعة أيام من سكنهم الدار فالمسألة لاتعدو أن تكون مصادفة .

وتشعب بى الحديث مع العجوز فى نواح مختلفة حتى أحسست بقرصة الجوع تلذع أحشائى ، فعدت أدراجى الى الفندق الذى أنزل فيه والذى يبعد كثيرا عن الدار .

ولم يكد الظلام يسدل ستوره حتى وجدتنى أعود أدراجى الى الدار .. لقد كنت فى لهفة الى التسلل اليها والتجول فى حجراتها ورؤية ما بها من تحف مهجورة معطلة ، ولم يكن يلوح لى أى أثر قريب أو بعيد لتلك الأرواح التى حدثتنى عنها العجوز فما كانت أومن قط فى أية لحظة من لحظات حياتى أن هناك عفاريت أو شياطين أو ما يشابههما ، وما كنت لأشغل ذهنى بالتفكير فيما هو ليس بكائن الا فى الأوهام والأحلام .

ولم تكن هناك أية صعوبة فى التسلل الى الدار ، فالعجوز كثير النوم بطىء الحس .. وهو لايخطر لباله قط أن هناك من يجرؤ على الاقتراب من الدار .. بل اقتحامها والتهجم على سكانها من الأرواح والأشباح .

وقفزت على السور .. ثم عالجت احدى النوافذ بفأس عثرت عليها فى أرض الحديقة فلم أجد صعوبة فى فتحها .. وبعد هنيهة وجدت نفسى فى حجرة موحشة ، شديدة الظلمة ، فأشعلت عود ثقاب تبينت على ضوئه بضع شموع فى ركن الغرفة فأسرعت باشعالها .. وسرت أتجوّل فى الدار .. فاذا بها دار رحبة فسيحة مليئة بالتحف القيمة والتماثيل والصور .. ولم أجد بها قط ما يخيف أو يثير الذعر .. وأخذت أفكر فى سخف الإنسان الذى يهجر مثل هذه الدار خوفا من أرواح مزعومة .. واستعدت فى رأسى تلك القصة التى سمعتها من العجوز . فوجدتنى أضحك مرة أخرى . ولكنى توقفت عن الضحك فجأة .. ا سمعت حركة خفيفة .. وخيل الىّ أن هناك وقع أقدام تقترب . فخشيت أن يكون الحارس قد تنبه من غفلته وأبصر بضوء الشموع يند من خلال النوافذ فدخل الدار يستجلى الأمر .. وخشيت أن يظنن

العجوز لصا قد اقتحم الدار يبغي السرقة .. فيصيح مستنجدا بأهل الناحية .. وأقع أنا فى مأزق الله أعلم بنهايته .

ولم أدر كيف أجيب اذا ما سئلت عن سبب وجودى فى ذلك الوقت من الليل فى هذه الدار الخاوية .

وتخيلت نفسى أعدو وخلفى كل من هب ودب من صبية ورجال .. ثم رأيتنى قد وقعت فى أيديهم ، فتهافتوا على ضربى ولكمى كأنهم كانوا ينتظروننى بفارغ الصبر .

ولم يأخذ منى التفكير فى هذا المنظر البغيض الا ثوانى معدودات برق لى على أثرها خاطر وجدت فيه خير منقذ من هذا المأزق الحرج .. بل وجدت فيه تسلية وحبورا .

هذا العجوز الأحمق الذى أسمع وقع أقدامه تقترب والذى سيضبطنى بعد لحظات متلبسا بجريمة السرقة .. ليس هناك أسهل من خداعه .. فلا شك أنه يؤمن ايمانا قويا بوجود أرواح فى الدار .. فلم لا أكون أنا أحد هذه الأرواح فأجعله يفر أمامى مرتعدا ويعود أدراجه من حيث أتى .

وفى لمحة عين قعدت مكانى وأمسكت بالفأس التى فتحت بها النافذة ، وجذبت غطاء أبيض فلففت به جسدى من قمة رأسى الى أخمص قدمى وأطفأت الشموع ووقفت أنتظر ..

وساد السكون .. فلم أعد أسمع بعد ذلك وقع الأقدام التى كانت تقترب .. وخيل الىّ أن العجوز قد عاد أدراجه وكفى الله المؤمنين القتال .. فأحسست بالضيق .. وتحوّلت رغبتى من الفرار والنجاة .. الى رغبة فى الهزل والمزاح .. ووجدت أن هذه الفرصة — فرصة أن

يكون المرء عفريتا أو جنيا أو روحا – قد لاتسنح لى مرة أخرى فى هذه الحياة .. فخطوت بضع خطوات فى الظلام ، ودلفت الى الحجرة التى تخيلت أنى سمعت صوت الأقدام يصدر من ناحيتها .. وقد أمسكت بالفأس وجمعت أطراف الملاءة البيضاء حول جسدى فلم يبد منها الا عيناى .. وانتظرت أن أرى العجوز وقد تسمر فى مكانه من فرط الفزع .

ولكنى بدلا من أن أرى العجوز .. رأيت عفريتا قد اتشح بالبياض وملكتنى الحيرة فلم أدر كيف أبدا الحديث .

وأخيرا تحدث العفريت ليسألنى من أكون .. فاذا بصوته ملىء بنعومة ورقة ، من النوع اللطيف .. فأدركت أنها عفريتة .. واطمأن قلبى قليلا .. ورأيتنى أعود بذهنى دون أن أدرى فأستعيد قصة العجوز .. وقلت لنفسى ان صاحبتنا لابد وأن تكون الفتاة سجينة القبو .. وأحسست برجفة تسرى فى بدنى فقد خشيت أن تظننى الفتى الذى سجنها فيكون نصيبى منها عداوة لا أستحقها .. فأسرعت لنفى الشبهات عن نفسى ولأبين لها حسن نيتى .

قلت : الظاهر أنى تأخرت قليلا .. فقد كنت فى طريقى الى القبو لأطلق سراح سيدتى ..

وسادت فترة صمت قبل أن تقول :

– أبعد هذه القرون التى مضت .. جئت الآن تفكر فى اطلاق سراحى ؟

يا للسخرية ! إذن فهذه العفريتة البلهاء تظننى عفريتا ! وا ماظننت قط أن العفاريت بمثل هذه السذاجة !

واقتربت من الشبح الأبيض وجثوت على ركبتى وقلت هاتفا : هذه القرون التى ولت .. لم تزدنى الا لهيبا .

وخيل الىّ أن أبصر ابتسامة سخرية تلمع فى عينى العفريتة .. ثم سمعتها تقاطعنى بصوت يغلبه الضحك : — ضم الملاءة قليلا الى جسدك .. فالعفاريت لايلبسون البنطلون .

ونظرت الى أسفل فاذا بالملاءة قد انحسرت عن ركبتى فظهر البنطلون .

يا للكارثة .. لقد اكتشفت الخبيثة كذبتى .. وشعرت بالحيرة تتملكنى ولم أستطع الا الاستمرار فى الكذب فسألتها : ومن حرّم على العفاريت لبس البنطلون .. أليس فيه ستر من العرى ؟ .. ان كان البنطلون يعتبر لديك مانعا من أن أكون فى زمرة العفاريت .. فأظن أن المسألة بسيطة جدا .

ثم مددت يدى الى الحزام وهممت بخلع البنطلون .. وبدت من العفريتة صرخة خجل ورأيتها ترفع يدها فتحجب بها عينيها .. بينما انحسرت ملائتها قليلا . فأبصرت منها ما جعلنى أشك كثيرا فى سلامة عقلى !!

يا للذكاء الذى خبا .. العقل الذى ضل .. هذه العفريتة لابد وأن تكون آدمية من لحم ودم ، فأغلب ظنى أنها قد سمعت من الحارس العجوز القصة كما سمعتها وساقها حب الاستطلاع كما ساقنى .. ثم أحست بضجتى كما أحسست بضجتها .. ففعلت كما فعلت والتقينا نحن الاثنين .. ولكنها كانت أكثر منى ذكاء فكشفت أمرى قبل أن أكشف تدبيرها .

ولم أر خيرا من أن أقوم فأحتضن الفتاة وأوسعها لثما وتقبيلا .. وحاولت التخلص من ذراعي صائحة : (اني أمقتك .. انني أفضل العودة الى سجني في القبو المظلم) .

يا للفتاة الحمقاء .. أما زالت مصرّة على أنها عفريتة !! .. اذاً ليكن لها ما تشاء .. ورفعت الملاءة من الأرض فلففت بها نفسي وأمسكت بالفأس .. وسألتها التكرم بلقاء آخر .

وفي اليوم التالي تسللت الى الدار وارتديت ملابس العفاريت .. وبعد لحظات أحسست بوقع أقدام العفريتة متشحة بملاءتها البيضاء .. وكان بيننا حديث ذو شجون .. وعندما افترقنا كانت العلاقات بيننا علاقة ود وصداقة . وتكرر اللقاء بيننا .. في نفس الموعد وبنفس الطريقة .. وبدا الحب ينشب مخالبه في قلبينا رويدا رويدا .

وأخيرا أبصرت العفريتة للمرة الأولى في وضح النهار .. ورأتني هي الأخرى .. وليتها ما رأتني .. فقد كنت أسير مع احدى صاحباتي .

وفي المساء ذهبت الى الدار .. وانتظرتها فلم تحضر .. ومضت بضعة أيام وهي ممعنة في هجرتها .. وأخيرا التقيت بها في صبيحة ذات يوم .. وأبصرت فيها آدمية فاتنة ساحرة .. فانتحيت بها جانبا وهمست في أذنها :

– ما ظننت قط أن العفاريت تغير من الآدميين !

– كفى عبثا .. لا أحب الخديعة .

ونظرت الى الفتاة فأدركت أن نصفي الآخر لايمكن أن يكون الا هي .. فعزمت على الزواج منها وأن تقطن الدار التي التقينا بها اول

مرة .. وأقمنا العرس فى الدار وملأناها بهجة وحبورا .. ومضت بضعة أيام ونحن ننعم بالحب والهناء .

وذات يوم أخبرتنى الفتاة المحبوبة أنها تحس بوعكة .. ولزمت الفراش وأخذت فى الذبول كأنها زهرة تذوى . حتى حلت نهايتها أخيرا .

وتركت الدار المخيفة ورأيت حارسها ينظر الىّ باشفاق وسمعته يهمس : لقد حذرتك فأخبرتنى أن المسألة لاتعدو الصدفة .. ليتك صدقتنى !

★ ★ ★

دموع الرجل النحيف

كانت رؤية الرجل تثير الرعب فى قلوبنا .. وكان منظره يبعث فى أبداننا قشعريرة ويملأ نفوسنا هلعا .

وكان أول ما أذكره عنه هو تلك الصورة التى طبعت له فى رأسى منذ عشرات السنين ونحن ما زلنا أطفالا نلهو ونعبث .. ومازلت أذكر حتى الآن تلك الحجرة المترامية الأطراف فى منزلنا العتيق وقد أويت وأخوى الى مضاجعنا ومعنا الخادمة التى كانت تقوم بمهمة تنويمنا .. ولم يكن هناك أثقل علينا فى ذلك الوقت من أن نأوى الى مضاجعنا .. فقد كنا نكره النوم لأنه يحرمنا من لذة اللعب واللهو وكنا نتمنى لو جعل الله الليل والنهار معاشا ، حتى نستطيع أن نواصل اللعب ليل نهار .

وكانت الخادمة تضيق ذرعا بنا .. وباصرارنا على عدم النوم .. ففكرت فى أن تخيفنا حتى نضطر الى الانكماش فى الفراش فيغلبنا النوم ونروح فى سبات عميق .. وبدأت عملية التخويف فأخبرتنا أننا اذا استمررنا على هذه العفرتة والشقاوة وأبينا أن ننام ، فستضطر الى أن

تشكونا الى الشيخ (شيبون شيبر) وهو كفيل بأن يأكل من كل منا ذراعه أو ساقه .

وقفزنا من الفراش وأمسكنا بتلابيب الخادمة وسألناها عمن يكون هذا الشيخ الشيبون وما قصته وما شكله ، وبدأت الخادمة تصفه لنا فأنبأتنا أنه جنى يبدو فى صورة رجل ضخم الجثة عريض المنكبين .. ذو وجه قبيح مخيف ونظرات شريرة قاسية يتطاير منها شرر ينير له الطريق عندما يسير فى الليل وأن أسنانه حادة كالسكاكين وأظافره قاطعة مدبية كالمخالب وأن أقدامه ليست كأقدام الإنسان بل هى أشبه بحوافر الخيل .. وأنه مولع بأكل الأطفال وخاصة الأشقياء منهم والذين يرفضون النوم .

وتشككنا أول الأمر فى حديث الخادمة .. ولكنها أرتنا أثر جرح فى ساقها وأكدت لنا أنه عضة من الشيخ (شيبون) عندما رفضت النوم ذات ليلة وهى طفلة صغيرة .. فبدأت عقولنا الصغيرة تؤمن أن الأمر ليس به خدعة .. وزادنا يقينا من صحة كلامها تلك الأصوات الصادرة عن حوافر الخيل التى تجر عربات الحنطور والتى تقرع أرض الطريق قرعات منتظمة .. فقد أكدت لنا الخادمة أنها وقع أقدام الشيخ (شيبون) وهو يبحث عن الأطفال الأشقياء .

وهكذا رسمت الخادمة فى أذهاننا صورة مروعة لذلك الشخص المخيف الذى ابتكره ذهنها وأوحى به خيالها .. حتى تستطيع ارهابنا وقت الحاجة .. ولتسوسنا به اذا استعصى عليها أمرنا .

والى هنا ليس فى الأمر غرابة أو عجب ، فما من طفل الا وله بعبع يخيفونه به حتى يرتدع ويزدجر ، وما أظن الشيخ شيبون يختلف فى شىء عن (أبو رجل مسلوخة) أو (عفريت الليل ، بسبع رجلين) الى

آخر هذه الشخصيات الخيالية التى ابتكرت لإرهاب الأطفال .. ولكن العجيب حقا هو أن ينقلب شيبون فيصبح حقيقة لا وهما .. وأن نراه أمامنا جسدا متحركا .. لا طيفا ولا شبحا ، وانسانا من دم ولحم لا خرافة ابتكرتها رأس خادمة .

ففى ذات يوم وقد أخذنا نلهو بالكرة أمام المنزل قذف أحدنا بها فأصابت ظهر أحد المارة .. وعدوت لآخذها .. فاستدار الرجل الىّ بوجه غاضب ، وتسمرت قدماى فى الأرض ولم أستطع أن أكتم صرخة فزع انطلقت من صدرى .. فلقد كان الرجل هو (الشيخ شيبون شيبر) . نعم أقسم أنه هو !! فهذا الجسد الطويل الضخم كأنه المارد وهذا الوجه القبيح الدميم ، وتلك النظرات القاسية الشريرة الصارمة .. وهذا الشرر الذى يكاد يتطاير من عينيه .. والأظافر التى تبدو كأنها مخالب طير كاسر ، وتلك الملابس العجيبة الفضفاضة . كل هذا لايكون الا له .. نعم انه هو بعينه بلا أدنى ريب ولاشك .

ووجدت الرجل يمسك بالكرة فينشب بها أظافره ، ويمزقها اربا اربا ، ثم يقذف بها فى وجهى ويمضى فى سبيله ووجدتنى أقف فى مكانى مذهولا مشدوها .. وقد أخذت عيناى تتبعان الرجل .. وتبحثان عن قدميه .. حتى يتأكدان أنهما حوافر خيل .. ولكن الرجل اختفى .. دون أن أستطيع تمييز قدميه فقد أخفتهما ملابسه الفضفاضة الجرارة .. وان كان وقعهما على أرض الطريق يشبه الى حد كبير تلك الطرقات التى كنا نسمعها فى بهمة الليل .

وعدت أدراجى أحمل أشلاء الكرة التى فتك بها الرجل وأنا أرتجف من الفزع فاذا ببقية الأطفال قد ولوا الى دورهم مذعورين .

وفي الليل أنبأت الخادمة هامسا : انني رأيت شيبون ، فبدرت منها ضحكة عالية ولكنها سرعان ما كست وجهها ملامح الجد وأنبأتنى هامسة :

— ألم أحذرك منه ؟ اياك بعد ذلك والعفرتة .. لقد اكتفى هذه المرة بتمزيق الكرة .. ولكن لا أظنه سيكتفى فى المرة القادمة الا بتمزيق جلدك وسحق عظامك .

وشجع هذا الحادث على أن تمعن الخادمة فى اخافتنا بالشيخ شيبون من دام قد دخل فى روعنا أنه حقيقة لا خرافة .. حتى حدث ذات يوم أن رأت بعينها ذلك الرجل الذى رأيته .. ومن ذلك الحين وهى تتحرز على ذكر اسمه قط .. فلقد صدمتها رؤيته صدمة كادت تذيب قلبها .

كان ذلك قبيل الغسق وقد خرجت والفتاة لقضاء حاجة من السوق .. ولم نكد نبتعد عن الدار حتى وقع بصرنا على منظر بعث الرعب فى نفوسنا .. فقد سمعنا فى البدء صراخ طفل .. فلما اقتربنا من مكان الصراخ تسمرت قدماى فى الأرض فقد أبصرت شبح عملاق تبينت فيه ذلك الرجل الذى مزّق لنا الكرة والذى استطعت أن أجزم أنه هو نفسه الشيخ شيبون ذو الحوافر والمخالب .. وقد قبض باحدى يديه على عنق الطفل .. وبالأخرى على هراوة أخذ ينهال بها على جسده بقسوة ووحشية .

وأمسكت بالخادمة بكلتا يدى كما يتشبث الغريق بلوح من الخشب .. وخبأت وجهى فى ثيابها وصحت بصوت مبحوح مرتعد :

— شيبون !!

ويستطيع المرء أن يتخيل ما أصاب الفتاة من ذعر وفزع وهى ترى تلك الصورة التى ابتكرها ذهنها وحشدت فيها كل ما طاف برأسها من أصناف مرعبة مخيفة .. قد تجسدت وصارت كائنا حيا هو ذلك المخلوق المرعب الذى لايفصله عنها الا خطوات معدودات .

وأسلمت الفتاة ساقيها للريح وقد أمسكت بى من يدى .. وأخذنا نعدو كمن به مس من شيطان رجيم .. وقد كاد يقتلنا الرعب .. ومن ذلك اليوم وذكر الرجل لايأتى على لسان الفتاة .. فقد كان ذكره يخيفها أكثر مما يخيفنا .

وذاع أمر الرجل وانتشر صيته .. وكأن غريبا قد نزح الى الناحية وقطن احدى الدور القديمة المتواضعة وأنشأ به حانوتا لبيع وشراء الأشياء القديمة ، وعرف بين أهل الناحية باسم (الشيخ شيبون شيبر) رغم أن اسمه الحقيقى لايمت الى هذا الاسم بصلة ولا شبه .. وكان أبرز ما فى الرجل ذلك الذعر الذى يتركه فى نفس كل من يراه مهما كان عمره أو كانت شجاعته .. وكان كذلك شديد الكراهية للأطفال والقسوة عليهم حتى بدأ الناس يتهامسون أن الرجل يخطف الأطفال ليضعهم فى قبو يقع فى أسفل حانوته ثم يلجأ الى تعذيبهم حتى يموتوا من فرط الألم .

ومرّت السنون وشببنا عن طوق الطفولة ، وقد بقيت منها ذكريات بعيدة باهتة .. وتغير كل شىء فينا الا شيئا واحدا ظل كما هو .. ذلك هو بغضنا للشيخ شيبون وخوفنا منه .

فقد استمر الرجل غامضا كما هو .. ورغما عما فعلته به السنون من أحدوداب فى الظهر واضمحلال فى الجسد .. فقد ظل على ماهو

عليه من قسوة وصرامة ، واستمرت نظراته الى الناس مليئة بالبغض والكراهية .. ولم يكن لكبر سنه أى أثر فى تخفيف ذلك الذعر الذى كان يعترى كل من رآه ، والرعب الذى يملأ قلب كل من صادفة .

واستمرت السنون فى السير فاذا بى وقد أضحيت زوجا ، ثم أبا لطفل كأنه الدمية ، وأعاد التاريخ نفسه ، فاذا بابنى يخيفونه بالشيخ شيبون عندما يستعصى عليهم تنويمه تماما كما فعلوا مع أبيه من قبل .. وسألنى الطفل ذات يوم عما اذا كنت رأيت الشيخ شيبون ، وعما اذا كنت قد رأيت حوافره .. فأفهمته أنه آدمى مثلنا .. فلا حوافر له ولا مخالب .. فبدا الشك على وجه الطفل وأنبأنى أنه يريد أن يراه .

ولم يكن يخطر ببالى قط أن الظروف ستضطرنى الى الذهاب الى الرجل فى حانوته وأن يرافقنى طفلى الصغير المحبوب عند زيارتى لذلك الرجل المخيف ، ولكن الأقدار أحيانا تجبر الإنسان على أن يفعل مالم يكن يتصور فعله .. ففى ذات يوم خرجت مع طفلى أجول جولة فى الطرقات وأخذنا نسير الهوينا وأنا أجيبه على أسئلته التافهة التى لم يكف عنها لحظة واحدة منذ بدأنا السير .. ورأيتنى أقترب من حانوت الشيخ شيبون ، ولم أدر أى شيطان دفعنى الى أن أسأل الطفل ضاحكا :

— ألا تريد أن ترى الشيخ شيبون ؟ هذا هو حانوته !

ورأيت بالطفل لهفة الى رؤيته ، فقد كان يريد أن يتأكد أنه كائن حقيقى .. وأنه مخيف كما يصفونه .. وأحسست بنفسى رغبة الى أن أجلس معه وأحادثه .. وأن أرى من قرب الرجل الذى استمرت ذكراه أو رؤيته حتى من بعيد تثير فى نفسى الذعر ما يقرب من خمسة وعشرين عاما .

ودخلت الحانوت ولقيت الرجل وجها لوجه فلم أستطع أن أمنع موجة من الذعر سرت في جسدى .. وأحسست بالطفل يتشبث بثيابى ويخبىء رأسه فيها .

وطلبت الى الرجل أن يرينى بعضا من التحف القديمة .. فذهب ينقب ثم عاد الىّ ببعض من التماثيل والأوانى القديمة ، وأخذ يشرح لى قيمة كل منها .. وبدأ الخوف يذهب من نفسى رويدا رويدا .. وحل محله الاطمئنان .. وكان حديث الرجل طليا لطيفا .. فبدأت انساق معه فى الحديث حتى كدت أنسى أنه (الشيخ شيبون) .. ووجدت الفزع قد ذهب أيضا من نفس الطفل .

لقد رأيته يقترب من الرجل فى سكون .. ثم ينحنى ببطء ويمسك بثوبه الذى يكاد يمس الأرض فيرفعه مرة واحدة ويكشف عن قدمى الرجل وساقيه !

لقد كان الطفل يريد أن يتأكد هل هو ذو أقدام مثلنا أم أنه يسير على حوافر !

ورأيتنى أنا الآخر أثبت نظرى فى أقدامه حتى أتأكد مما يريد أن يتأكد منه الطفل .

وجدت أن قدمى الرجل طبعا لاتكاد تختلفان عن أقدامنا فى شىء .. فمددت يدى لأجذب الطفل ولأؤنبه على سوء فعلته .. ولكن الرجل المخيف لم يترك لى الفرصة كى أفعل ما أردت .. فقد رفع كفه الثقيلة التى تشبه مخالب الوحش ثم أهوى بها على وجه الطفل فى صفعة لم تبصر عيناى أشد منها وصاح بغضب :

— كان خيرا لك أن تحسن تربيته .

وأبصرت الدماء تسيل من أنف ابنى المحبوب .. ولا أظن أى انسان يستطيع أن يتصور وقع ذلك فى نفسى وأنا أبصره والدمّاء تسيل من أنفه بعد أن صفعه ذلك الوحش القذر الكريه .

لقد اندفعت من مكانى أريد أن أحطم رأس الرجل .. ولكنى وجدت الطفل قد وقف يعترض طريقى وأخذ يصيح بى :

— اتركه يا بابا فهو آدمى مثلنا .. وليس شيطانا أو جنيا .

ونظرت الى الرجل .. فاذا بالتجهم قد زال عنه .. وحلت محله علامات آلام تعتمل فى جوفه كأن أحشاءه تتمزق ، ورأيته ينهار على أحد المقاعد .. وأبصرت الدموع تنهمر من عينيه بشدة .

ومد الرجل يديه فاحتضن الطفل بحنان ورفق وأخرج منديلا من جيبه يجفف به الدماء التى سالت من أنفه وسمعته يهمس الىّ بصوت مبحوح :

— خمسة وعشرون عاما استطعت أن أكبت فيها ذلك الحنان الذى يصطخب فى صدرى .. وأن أسدل على وجهى ذلك القناع البغيض من القشوة ، لقد نجحت فى أن أقسو على الأطفال وأن أتجهم لهم ، ولولا ذلك لما استطعت أن أعيش لحظة .. ولقتلنى الحزن .. لقد كان كل طفل أراه يثير فى نفسى الذكرى الأليمة .. ويقطع نياط قلبى ويمزق أحشائى .. وكان يخيل لى أحيانا أن أتبنى كل طفل أراه .. أو أن أجمع أطفال العالم كلهم فأحتويهم فى صدرى .. فقد كنت أرى فى كل طفل ولدى الغائب المحبوب .. وكم كنت أعدو خلفهم فى الطرقات أظنه بينهم .. حتى ظننى الناس مجنونا .. وخشوا على أطفالهم منى وأصبح الأطفال يتجنبوننى ويفزعون منى ، وكم انتظرت أوبته حتى طال بى الانتظار وفاض بى اليأس فصممت على النسيان وعزمت على أن أقتل ذلك العطف الذى فى قلبى .. وأن أتجهم وأقسو .. ومرت علىّ

السنون ، فأصبحت كما ترى رجلا مخيف .. وظننت أننى سلوت ونسيت حتى دخلت الى حانوت بطفلك فتوجست منه خيفة .. فقد أحسست بعض الحنين .. لشدة الشبه بينه وبين طفلى المحبوب .. فصممت على أن أقسو عليه .

وثار غضبى عندما حاول أن يكشف عن ساقى ليرى «حوافرى» فلطمته هذه اللطمة العنيفة التى أسالت الدم من أنفه .. ثم شعرت بطعنة فى صميم قلبى عندما منعك من الاعتداء علىّ لأننى آدمى مثلكم وليس بشيطان كما تزعمون . آه لو كانت الأرواح تعود الى الأرض مرة أخرى لأقسمت أن هذا هو طفلي .. فهو أول من أراه يحنو علىّ بعد أن ذهب ولدى .. انى لأتخيله الآن وقد امتطى حماره ، ووضع عليه السلال الفارغة .. فقد كان ذلك هو خير ما يلهيه ويطربه .. يجول الطرقات مقلدا صوت الباعة حتى يذهب الى شاطىء النهر .. فيعبث بحماره فى الماء ثم يعود الى الدار .

وفى ذات يوم خرج كعادته ، وقد علا غناؤه ورنت ضحكاته .. وكنت أشعر بتشاؤم يملأ قلبى .. فقد فقدت أمه المحبوبة فى مثل ذلك اليوم منذ بضع سنين خلت .

وخيل الىّ أن الطفل تأخر .. ولكننى ظننت أن ذلك مرجعه ما بقلبى من تشاؤم .. فتماسكت بأطراف الصبر حتى حل الظلام .. وقفزت من مكانى وأخذت أعدو فى الطريق كالمجانين ، وكان أول ما صادفنى .. الحمار بلا شىء على ظهره سوى السلال الفارغة .

وخيل الىّ أن قلبى على وشك أن يقفز من مكانه .. وأمسكت برأس الحمار من فرط ما بى من جنة اسأله عن الطفل .. واستمر الحمار مطأطىء الرأس فى صمت عميق .. ثم استدار بعد برهة وسار فى طريقه وأنا أتبعه .. حتى انتهى بى الى شاطىء النهر .

ولم أجد هناك آدميا أستطيع أن أستدل منه على الطفل. ولجنونى .. أخذت أجرى هنا وهناك .. حتى أنهكنى التعب، والحمار واقف أمام بقعة على الشاطىء لايتحرك ، وأخيرا لم أستطع الا أن أجلس بجوار الحمار أرقب وأنتظر .

وجلست فى مكانى وعيناى مثبتة بالماء .. أربعة أيام بلا طعام ولاشراب ، والحمار واقف بجوارى وعلى ظهره السلال الفارغة .. حتى حملنى الناس الى الدار كأنى جثة هامدة ..

وهنا رأيت طفلى يقفز من على ركبتى ثم يشير بأصبعه الى نهاية الطريق ويصيح قائلا :

– أنظر يا أبتاه .. هذا الطفل الذى امتطى حماره وامامه السلال الفارغة .

ومدّ كل منا رأسه فأبصرنا فى نهاية الطريق طفلا شديد الشبه بذلك الطفل الذى مازال الرجل ينتظر أوبته . وندت من الرجل صرخة خافتة وحاول القيام ولكنه لم يستطع كأنما أصيب بشلل فأشار الى أن أعدو وراء الطفل فأحضره .. وقفزت من مكانى وعدوت وراء الطفل لأحضره اليه حتى أخفف ما بنفسه من لوعة .. ولكنى لم أكد أصل الى نهاية الطريق حتى كان الطفل قد اختفى .. وعدت أدراجى وبى حنق على طفلى لأنه حرّك فجيعة الرجل ونكأ جرحه باشارته الى ذلك الطفل ، وصممت أن أبذل كل ما فى وسعى حتى أرفه عن نفسه وأزيل ما بها من حزن ولوعة .. ولكنى لم أكد أصل الى الحانوت ، وأحدث الرجل حتى وجدت أنه لم يعد فى حاجة الى ترفيه أو تسلية فقد كان أبعد من أن يصل اليه حديثى .. لقد فاضت روحه وذهب الى حيث يستطيع أن يلقى طفله المحبوب .

أطياف

ردّت الروح

كان اليوم من أيام شهر يوليه الشديد القيظ .. وكنت أجلس متبرماً فى إحدى شرفات البيت ، وقد حرمتنا والدتنا من مبارحة الدار ، خوفاً علينا من ذلك السعير الذى يتأجج أواره .

وكان مجرد التفكير فى شاطىء الترعة المجاورة ، وفى ذلك الركن الظليل الذى تعوّدت أن أذهب للصيد فيه ، يجعلنى أضيق ذرعاً بتلك الأوامر المتعددة التى ما فتئت أمى تصدرها ، فتحرمنا كل ما نحب ونشتهى .. عجيبة هذه الأم !! إنها تضيع نصف وقتها فى توهم أخطار تحيق بنا .. والنصف الآخر فى محاولة درء هذه الأخطار حتى أضحى كل شىء لدينا ممنوعاً محظوراً .. فلعب الكرة ، محرّم ، لأنه يعرضنا لضربة الشمس .. والذهاب للصيد أو السباحة قد يؤدى بنا إلى الغرق ، وركوب الدراجات سيدفع بنا حتما تحت عجلات الترام . ويخيل الىّ أن الأمر سيفضى بها إلى أن تغلق علينا إحدى غرف الدار فلا نبرحها حتى نبلغ أرذل العمر ! ..

ولم يكن أخي ليسوءه ذلك أو يضايقه .: إذ كان من ذلك النوع الذى سبق عقله عمره .. فلم يكن ما يبدو عليه من الهدوء والاتزان وكثرة التفكير ليتناسب قط مع الأثنى عشر عاماً التى بلغها .. ورغم أننى كنت أكبره بعامين ، فقد كنت أحس دائماً أننى أصغر منه ، ولعل ذلك يرجع إلى نمو إدراكه نمواً منقطع النظير .

ولقد ساءنى من أخى فى ذلك اليوم إخلاده إلى الصمت ، وقد استغرق فى قراءة كتاب ، لايكاد يرفع عنه بصره .. وكان جلده على القراءة يثير دهشتى .. أنا الذى لايطيق أن يثبت بصره لحظة واحدة فى كتاب إلا إذا أكره على ذلك !

وأخيراً ضربت الأرض بقدمى فى ضيق وقلق وصحت به قائلا :

– هذا أمر لايطاق .. لايمكن أن أظل سجيناً يوماً بأكمله فى هذه الدار ! .. مارأيك فى الهرب .. وليحدث بعد ذلك مايحدث ؟ .

فرفع إلىّ عينيه الزرقاوين العميقتين ، ووجهه الأصفر النحيل ، ثم رفع بيده خصلة من الشعر الذهبى المدلاة على جبينه وأجاب فى هدوء :

– أنا أفضل القراءة .

ثم أكب مرة أخرى على تلاوة كتابه فى صمت عميق ، وعدت أسأله فى سخرية :

– وماذا تقرأ ؟ .

– رباعيات عمر الخيام .

– وما تكون رباعيات الخيام هذه ؟

– كتاب شعر .. قديم ..

ولم يكن يدهشنى أن يقرأ أخى الشعر .. فقد كان يقرضه .. وأذكر أنه نشر بعضه فى مجلتنا المدرسية .

وسمعت على الباب طرقاً ، فذهبت لأرى الطارق ، فإذا به كهل رث الملابس ، وخيل إلىّ أنه أفّاق من الأفّاقين ، وكنت أعرف أن أمى تكره هذا النوع من الرجال ، ففضلت ألا أشجعه على المضى فى حديثه . ولكننى دهشت عندما تبينت أنه يعرفنا جيداً .. مع أننى لم أكن قد رأيته من قبل ! وزادت دهشتى عندما أخبرنى الرجل أنه عمنا .. أو على الأصح عم أمنا !

وذهبت إلى أمى أسوق إليها النبأ – وكانت منهمكة فى المطبخ – فما كادت تلمح وجهى حتى نظرت إلىّ شزراً وابتدرتنى ناهرة :

– لافائدة .. لن أدعك تخرج ..

– لم آت لأطلب الخروج ياأماه .. إنما جئت لأخبرك أن بالباب زائراً ..

– زائراً .. ومن يكون ؟

– عمك ..

– عمى !! .. عمى أنا ؟

وبدت عليها الدهشة ، كأنها لم تسمع بهذا العم من قبل ، وسرعان ماعلا وجهها الغضب ، وغمغمت فى حنق :

– أو قد جرؤ على المجىء .. إلى هنا ! ؟

ثم تبعتني إلى الشرفة ، وهي ترتجف من الغضب .. وكان العم قد جلس هناك .. فما كاد يراها حتى نهض واقفاً يحييها ، ولكنها لم ترد التحية ، وصاحت به :

– ماذا جاء بك إلى هنا ؟

– إنني أقطن في بيت لايبعد عنكم كثيراً .. وقد سرّنى أن أراكم .

– ولكننا لايسرنا أن نراك ! .

– لا داعي لهذا الغضب يابنيتي .. فما جئت مستجدياً أطلب منك إحساناً .. فأنت تعلمين أنى ما مددت يدى لك ولا لغيرك .. وأؤكد لك أنى لن أكرر الزيارة إذا كنت لاترغبين فيها .

– ما من أحد هنا يرغب فى زيارتك ، فأرجوك أن تنصرف بسرعة كما أرجو منك ألا تحضر إلى هنا مرة أخرى .

– لك ماتريدين .

وتحرك الرجل تاركاً الدار فى صمت ، وقد بدا الحزن العميق على أساريره .

وبعد الغداء جلست أمي على انفراد مع أبى ، وسمعتها تقص عليه ما حدث .. وتقول فى نبرات يائسة :

– هذا الرجل سيجلب علينا وعلى أولادنا العار ، فسيلقى به يوماً فى السجن ، وهو ثمل لايعى من فرط الشراب ، وسيخبر الجميع أنه عمى ، ولن أجسر بعد ذلك على أن أرفع رأسى أمام القوم فى هذه البلدة .. إنى لا أطيق أن أراه فى مكان واحد مع أولادى .

ويبدو أنني لم أكن وحدى أنصت لذلك الحديث فقد سمعت صوت أخي وهو يدخل الغرفة ويقول لأمي مهدئاً من روعها :

– ولكنه رجل فنان ، لقد قال لى : إنه يشتغل بالرسم .

وتشجعت أنا الآخر ، فدخلت الحجرة بدورى ، ورأيت أمى يتطاير من عينيها الشرر .. ثم ما لبثت أن وجهت الحديث إلينا قائلة :

– إياكما أن تذكرا هذا الرجل .. أريد منكما أن تنسيا أنكما رأيتماه ..

واستمر أخي فى حديثه كأن أمي لاتعنيه بالتهديد :

– ولكنى لم أسمع قبل اليوم أن فى أسرتنا فنانين .

وكان فى حديثه رنة إعجاب ، فصرخت به أمي :

– ألم تسمع ما قلت ؟

– نعم سمعت .

وكنت واثقاً من أنه لم يسمع من حديثها شيئاً ، وكأنما يبدو فى عالم آخر ، فلشد ما كان يتمنى أن يقابل واحداً من الفنانين وجهاً لوجه ، فما بالك وقد تبين له أن هذا الفنان عمه ؟ !

وعندما غادرنا الحجرة ، سمعنا أبي يوجه الحديث إلى أمي قائلا :

– لا معنى لهذه الحملة الشعواء على الرجل !! إنه لايستحق كل هذا وخاصة أنك تعلمين أن أساس ما به من سوء ، هو أن الناس قد حطموا آماله ، فلم يقبلوا على شراء صوره وتخلى عنه الجميع حتى أهله وزوجته .

– أتدافع عنه ؟ أنك لاتدرى أى حياة يعيشها هذا الرجل .. لا شىء غير الشراب .. والجرى وراء النساء .. رغم أنه كهل متزوج !! أؤكد لك أنه مجلبة للعار .

★ ★ ★

مضت عدة أيام .. ونسى أمر العم الفنان .. ولكننا لاحظنا أن أخى بدأ يقلع عن أطواره الشاذة ، وعن الصمت وكثرة التفكير .

وبدأ يكثر من الخروج ، مدعياً أنه يتنزه عند شاطىء الترعة .. وسر أمى ذلك الانقلاب ، ولم تشك لحظة فى صدق قوله ، ولكنى وحدى لم أصدقه ، فتبعته ذات يوم ، وعرفت ما خفى من أمره .

وفى الليل حينما ذهبنا إلى الفراش ، فاجأته بسؤالى :

– كيف حال عمنا العزيز ؟

وأصابه الذهول فلم يستطع الإنكار ، وقال مستعطفاً :

لا أظنك ستشى بى .. فإنى ما وشيت بك قط !

وكانت هذه أول مرة أراه فى موقف المذنب .. فربت على ذراعه فى رقة وقلت له باسماً :

– لاتخش شيئاً .. ولكن خبرنى ماذا يستهويك عند هذا العم ؟

– كل شىء .. عطفه .. ورقته .. وحديثه .. ثم صوره .. إنه فنان عظيم .. ثم إنه ليس كما تصوّره أمنا .. فما هو بشرير كما تصفه ، أو كما يتخيله الناس ، وما فيه من عيب سوى أنه فقير ، ويعيش فى بيت متواضع ، وأنه يلجأ إلى الشراب أحياناً حينما يفشل فى بيع صوره التى يخرجها ويتملكه اليأس والقنوط .

— لكن .. لم يرسم إذن ؟ !

— لقد قال لى إن الفنان لايملك إلا أن يرضى نفسه وهويته ، وعمى يرسم لكى يشبع رغبته .

وصمت لحظة ثم قال هامساً :

— سأذكر لك سراً .. عدنى ألا تبوح به لأحد ! .

— أعدك بذلك .

— إن عمى يرسم لى صورة .

— حقاً !! .. ولكن ألا تخشى أن تعرف أمى فى يوم ما ؟ .

— كلا .. لن تعرف شيئاً .. مادمت قد وعدتنى بالكتمان ! .

ومع ذلك عرفت الأم !! فقد كنت فى ذلك اليوم فى نزهة خارج الدار ، فلما عدت فى المساء وجدت أبى وأمى جالسين فى وجوم وإطراق وسألت عن أخى فقيل إنه نائم ، وصعدت إلى غرفة النوم ، وسرت على أطراف أصابعى حتى لا أزعجه .. ولكنى لم أكد أقترب منه حتى سمعته يهمس باسمى ، فأضأت النور ثم اقتربت منه ، فإذا به شاحب الوجه ، منتفخ العينين من أثر البكاء !! وأخبرنى فى صوت هامس مرتجف أن أمنا قد عرفت كل شىء ، وأنها ذهبت إلى بيت العم فى أثناء غيابه ، فمزقت الصورة التى رسمها إرباً إرباً .. وهنا اختنق صوته وقال :

— لو كان واحد منا هناك .. أنا أو العم .. لما أمكنها أن تصنع ما صنعت .. ولكننا كنا فى الخارج ، فلما عدنا وجدنا الأم وقد وقفت شاحبة الوجه ، لاتزال تمسك بيديها السكين التى مزّقت بها الصورة ..

ونظر العم إلى الصورة .. وخيل إلىّ أنه قد صعق .. فقد كانت الصورة قطعة منه ، انتهى منها اليوم فقط وأخبرنى أنه يشعر ، بأنها ستكون إحدى المعجزات .

وخنقته العبرات ، فصمت لحظة ، ثم عاد يقول :

- لن يمكنك أن تتصور مقدار يأسه وقتذاك .. لقد نظر إلى الصورة ، ثم إلى أمى ، وهز رأسه فى بطء .. ثم قال بصوت كأنه صادر من جوف بئر عميقة .. «لقد انتهى الأمر وتم الاغتيال .. لقد قتل الصبى الوحيد الذى أنجبته ، ولاحيلة لى بعد أن نفذ القضاء .. تفضلى ياسيدتى» . وأشار إلى أمى بالانصراف .. فسحبتنى من يدى ثم عدنا إلى البيت .

واختنق صوت أخى مرة أخرى . وصاح فى صوت متهدج :

- لِمَ فعلت أمى ذلك ؟ ولِمَ طعنتنى هذه الطعنة ؟ !

★ ★ ★

وبعد أربعة أيام وصلت إلى أخى رسالة من العم ، حملها إليه أحد أصدقائه ، وكان مضمونها :

«لقد كتبت إليك .. خشية أن تحاول رؤيتى مرة أخرى .. وكم يؤلمنى ويحز فى نفسى أن أرجوك ألا تحاول ذلك .. فأنت لاتزال غلاماً يافعاً ، وعليك إطاعة والديك .. حتى ولو كنت تعتقد أنهما قد أساءا إليك .

ولشد ما كانت صحبتك لى ذات أثر عميق فى نفسى ، بل فى حياتى كلها .. فإنى لم أعتبرك طفلا ، بل صديقاً ونداً . وكم ملأنى

إعجابك بصورى وتلهفك عليها .. قوة وأملا .. وما كان ينقصنى فى حياتى اليائسة سوى القوة والأمل» .

وأخفى أخى الرسالة فلم يشعر بها أحد منا إلا بعد أن انقضت مدة طويلة ، ولكن فى اليوم التالى لوصولها إليه ، أخبرنى أنه يشعر بتوعك فى صحته .. وأنه سيستمر بعض الوقت فى فراشه حتى يزول ما ألم به .

وأصاب أمى القلق عندما حان وقت الغداء ، ومازال أخى فى فراشه ، فاستدعيت طبيب الأسرة الذى طمأننا إلى أن المسألة لاتستدعى القلق .. ولكن فى اليوم التالى اشتدت به وطأة المرض ، وبدأ الطبيب نفسه يقلق ، وراح الحزن يعلو وجوه من فى الدار . ومضت ثلاثة أيام انقطع أبى فيها عن الذهاب إلى عمله واشتد وجومه .. وكانت أمى أشبه ماتكون بامرأة ضلت طريقها فى صحراء مقفرة ، فكانت ذاهلة تائهة لاتكاد تعى شيئاً مما يقال حولها .

وفى اليوم الرابع سمعت فى المنزل بعض الضجيج ، ثم علمت أنهم أحضروا أحد مشاهير الأطباء من القاهرة ، فأحسست أن كارثة توشك أن تحل بنا .. وأن أخى فى خطر شديد ، وإلا لما استدعوا ذلك الطبيب .

وخرج الطبيب من الحجرة أخى .. ورأيته ينسحب ليتسلل إلى حجرتى ، وجلس الرجل بجوارى ، ثم ربت على كتفى ، وقال فى صوت خافت :

– إنا فى حاجة إلى معونتك .. لقد ذهب أخوك .. لم يحصل شىء وإنما أصابه نوع من الذهاب والغيبوبة الذى يحدث للمرء عندما يكون فى حلم .. ولاشك أنك قد جربت الأحلام فى نومك .

– نعم ياسيدى .

– حسناً . إن أخاك قد استغرق فى أحد هذه الأحلام .. ولكن غيبته قد طالت .. فأصبح من العسير إعادته إلى وعيه .. وقد حاولنا جميعاً أن نعيد إليه رشده فبؤنا بالخيبة والفشل ، لأننا لانعرف سبب ما يعانيه .. ويخيل إلىّ أنه قد يمكنك أن تصل إلى روحه الشاردة ، فتعيدها إليه مرة أخرى .. أتظن ذلك فى استطاعتك ؟ !

وكنت لا أفهم معنى لما يقول . فأجبته فى تردد :

– لا .. لا أدرى .

– حسناً .. لا بأس من أن تحاول .. والمسألة غاية فى البساطة .. فكل ماهو مطلوب منك أن تجلس بالقرب من فراش أخيك ، ثم تهتف باسمه فى همس كأنك تود أن تسر إليه حديثاً تخشى أن يسمعه غيركما .. هذا هو كل مافى الأمر .

ودخلت الحجرة ، وكان أبى وأمى يجلسان فى أحد أطرافها ، وقد بدأ عليهما الوجوم والقنوط .. ورأيت أخى مستلقياً فى فراشه ، وقد أغمض عينيه .. وبدا كأن قد ذهب حقاً ! . وأصابتنى رجفة جعلت الأرض تميد تحت قدمى .. وجرّ الطبيب مقعداً بجوار الفراش ، ثم أجلسنى عليه وأشار إلىّ أن أبتدىء ..

وبدأت أهتف باسم أخى .. ومرت فترة طويلة خيل إلىّ أنى هتفت بالاسم مئات المرات .. ثم شعرت بأن عنقى قد تصلب وأن حلقى قد جف .. وأحسست لسانى كأنه قطعة من الجلد المقدد .. ونظر إلىّ الطبيب ورجانى أن أستمر .

وفى كثير من الجهد والمشقة عاودت الهتاف ، حتى بلغ بى التعب مبلغاً أعجزنى عن النطق . ولكن عندما وجدت أخيراً أن أخى قد بدأ يحرك جفنيه ، فعل بى ذلك فعل السحر ، فعدت أهتف بكل

ما فى نفسى من قوة . وفتح أخى عينيه .. ونظر إلىّ نظرة تائهة .. ثم بدأ يفيق شيئاً فشيئاً .. ووجدت أنه قد استطاع أن يميزنى .. وتحركت شفتاه ، ثم همس فى صوت كأنه فحيح الأفاعى :

– لقد مات .. لقد مات الصبى الأشقر . لقد قتلته أمى .. !!

وأغلق عينيه .. ثم عاد إلى غيبوبته مرة أخرى .

ورأيت أبى يجر أمى خارج الغرفة .. وهى تبكى فى تشنج يفتت الأكباد .

ثم رأيته يغادر الدار إلى كوخ العم الفنان .. وجلست والطبيبين ننتظر خارج الغرفة ، وسمعت طبيب الأسرة يسأل الطبيب الآخر :

– ولكن هل تظن هذه الطريقة ستجدى نفعاً ؟

– لو صحت نظريتى ، وكان الصبى قد أدخل فى روعه أن تلك الصورة هى شخصه .. ولو كانت الصورة لم تحطم تماماً فإن هذه الطريقة قد تكون مجدية .

وبعد لحظات سمعنا وقع أقدام ، ثم رأينا أبى يدخل ووراءه العم يحمل الصورة وقد أخذ يزيل عنها الورق الذى لفت به .

ونظرنا إلى الصورة وقد وضعت على أحد المقاعد . وصحنا جميعاً فى دهشة وعجب .. إذ لايمكن أن تكون هذه مجرد صورة لأنها ليست إلا أخى نفسه ، بدمه ولحمه ، وقد جلس تحت شجرة على شاطىء الترعة !

– لقد رسم العم صورة أخرى غير تلك الصورة التى مزّقت .

وأجاب العم :

– لقد كان من الصعب أن أعيش بدونها .. فقد كانت قطعة منى .. ولم أجد بداً من أن أرسم صورة أخرى عن الأصل الممزق .

وهمّ أبى بمناداة أمى ، ولكن الطبيب أخبره أن من الأفضل تركها الآن حتى تتم المعجزة .. إذا قدّر لها أن تتم .

ودخلنا غرفة أخى ، وكان مستغرقاً فى منامه العميق .. وبدأت أهمس باسمه .. وخيل إلىّ أننى استطعت إيقاظه بسهولة .. قد يكون ذلك لأنه قد أحس بأن الصورة قريبة منه .

وفتح عينيه ، فأمسكت بيده ، وأخذت أكرر عليه فى لهجة مليئة بالثقة :

– لقد عاد الصبى الأشقر .. إن الصبى الأشقر موجود بجوارك .. انظر إليه .. إنه مازال على قيد الحياة .. ولم يمسسه أذى ولا سوء .

وأعانه أبى على النهوض فى فراشه .. وبدأت أشير بأصبعى إلى الصورة .. وأنا أصيح بقولى : «انظر هاهو ..» .

وأحسست أنه يرتجف .. ورأيت عينيه تلمعان ببريق الحياة .. وسمعته يغمغم فى فرح :

– الصبى الأشقر ! .. الصبى الأشقر !

وصحت فى فرحة جنونية :

– وعمنا كذلك هنا .

وتلفت أخى ، فوقعت عيناه على العم ، فبرقت أساريره فى جذل وابتهاج ، وقال له فى صوت ضعيف خافت :

– احذر من أن تراك أمى .

وسمعت الطبيب من ورائى يضحك ضحكة الفائز المنتصر ، فعلمت أن أخى قد عاد إلينا .. وأن المعجزة تمت ..فقد ردّت الروح .

لقاء .. على غير موعد

ظلمة ووحشة .. وسكون ، لا كسكون المقابر ، لأنه هو نفسه سكون المقابر .. ذلك السكون الرهيب الذى ينبىء الإنسان أن مصيره إلى رفات بالية .. وعظام نخرة خاوية .. وأنه مهما بلغ فى حياته الضئيلة التافهة .. فسينتهى إلى لاشىء .. ويصبح كأن لم يكن .

ذلك السكون الذى يرتجف منه الإنسان ويهلع .. فهو يريه حقيقة الأشياء دون زيف ولاتمويه ، وليس هناك أبغض إلى الإنسان من رؤية الحقيقة .. وليس أحب إليه من التعلل بالباطل ، والتعلق بالترهات .. لأنه هو نفسه خدعة باطلة لايكشفها إلا الموت .

ذلك السكون الذى لايسمع فيه نفس يتردد ، أو صوت يهمس .. اللهم إلا همسات ريح تكاد تقول :

«خفف الوطء ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد» .

فى تلك الظلمة والوحشة .. ووسط ذلك السكون المخيف .. بدأ الفتى يستنشق أول نسمات الحب ، وبدأ يمس بشفتيه أول قطرات

الهوى فإذا بالمقابر قد أضحت رياضاً فيحاء ، وإذا بالوحشة أنس ، والظلمة ضياء .

لقد تبدّل كل شيء وتغير .. لقد سرى الحب من نفس الفتى فمس الأرض سحره .. وكسا كل ما عليها خضرة ونضرة .. وإذا بالسكون المخيف قد أضحى سكوناً جميلا محبباً ، وإذا بهمسات الريح تردد :

هل سرت أنفاس عيسى في الفلاة فنفخن الروح فى أرض موات
ونشرن النبت يشكو من رفات وبعثن الطير يشدو هادلا
فى أريك الأيك مثنى ورباع

كان الفتى فى غمرة من الهوى ، فقد أحب لأول مرة ، وإذا به يبصر الحياة بمنظار الحب الساحر الملوّن ، فبدا بكل شيء أمامه جميلا ، فالقبور قد أضحت قصوراً ، والرفات قد جاشت فيها الحياة .

رآها الفتى أول مرة على شاطيء البحر .. وكان ذلك فى ليلة من ليالى الصيف ، وقد اتكأ بذراعه على «الكورنيش» ووقف يرقب تلك الجموع الرائحة الغادية .

ولم يكن هناك أحب إلى الفتى من «الفرجة» على الناس .. فقد كانوا فى نظره من أمتع وسائل التسلية .. وكان يشعر فى مشاهدتهم شعور الواقف خارج أحد أقفاص القرود فى حديقة الحيوان .

وأبصر الفتى فى وقفته أول مجموعة من القرود فى هيئة ثلة من الطلبة وقد ملأوا الدنيا ضجيجا ، وعلت ضحكاتهم بسبب وبلا سبب ، وأبصر بأحدهم وقد فك أزرار قميصه حتى تظهر منه بضعة شعيرات نبتت فى صدره وأبصر الآخر وقد وضع السيجارة فى طرف فمه ،

وبثالث قد أخذ يتحسس عضلاته بين لحظة وأخرى ، ورابع قد برم شعيرات شاربه وكأنما خشى أن يطير الشارب فأمسكه بأصابعه .. والجميع قد أخذوا يسترقون النظر إلى الناس حتى يبصر كل منهم مدى إعجاب الناس به ، وتأثرهم بمنظره ، بقوته أو بخفة دمه .

ثم أبصر الفتى بعد ذلك قردة أخرى .. قد صنع «الأوكسجين» بشعرها ما صنع .. فبدا في صفرة مصطنعة ممقوتة .. وامتلأ وجهها بالأصباغ والألوان كأنها مهرّج على خشبة مسرح .. وارتدت «بيجامة» أظهرت غلظ خصرها ، وضخامة ردفها .. ولم يثر عجب الفتى من كل هذا قدر ما أثار عجبه تلك الطريقة التى تسير بها . فقد كانت تكاد تصيح : «يا أرض انهدى ما عليكى قدى» .

وهذا قرد ثالث بدا عليه شروع فى مغازلة ، فقد أخذ يتحسس شعره ويصلح «الكرافتة» ثم يضع يده اليسرى فى جيب «البنطلون» ، ويقترب من صاحبتنا ويميل عليها هامساً فى صوت كأنه الرعد : «وحشتنا ياسى محمد» .

وهذه أسرة عبارة عن مجموعة قبح متحرك تتكون من ثلاثة ذكور وثلاث إناث ، ولايكاد المرء يميز الإناث من الذكور إلا بالفساتين والأحذية ذات «الفيونكة» .. وقد انهمكوا فى نحت أكواز الذرة المشوية .

وألقى الفتى نظرة إلى الساعة فى يده ثم قفز من مكانه مرتاعاً .. واندفع بين صفوف الناس يعدو كأن به مساً .

ياله من أحمق .. لقد سرقه الوقت وهو في وقفته مستغرق فى مشاهدة الناس .. لعنة الله عليه .. كأنه ما رأى أناساً فى حياته من قبل ..

لابد وأن تكون الفتاة قد انصرفت مغيظة حانقة .. فلقد مضى على الموعد مايقرب من عشر الدقائق .

واستمر الفتى يعدو من الشاطبى إلى محطة «سوتر» فوصل إليها وقد تلاحقت أنفاسه ، وتساقطت من وجهه قطرات العرق .. ودار حول المظلة الخشبية ، وتلفت هنا وهناك ، ولكنه وجد المكان خالياً إلا من متسوّل كفيف ، وقطة تتثاءب .

وحاول أن يعلل نفسه بأن الفتاة لما تأت بعد ، فقد يكون ثمة عائق أخرها عن الموعد وقد تأتى بين آونة وأخرى .. فوقف ينتظر ، وتتابعت عربات الترام الواحدة بعد الأخرى ، وهو فى كل مرة يأخذ فى فحص النازلين منها علّ الفتاة تكون بينهم .. ولكن دون جدوى .

وأخيراً أصابه اليأس فعاد أدراجه إلى موقفه من الشاطىء وهو يحس بالندم والخجل ، والضيق والحزن .

لم يكن الفتى قد أبصر الفتاة قط .. فقد كانت إحدى صاحبات أخيه وكانا قد تواعدا على اللقاء فى ذلك اليوم ، ولكن أخاه طرأ عليه ما عطله عن الذهاب ، فسأله الذهاب بدله ، والاعتذار إليها ، وعلى ذلك فقد كان دوره معها لايزيد على مقابلتها لبضع دقائق يعتذر لها فيها عن عدم حضور أخيه الذى شغلته أعمال طارئة ثم يودعها وينصرف . هذا هو كل ما طلب منه .. ومع ذلك فلم يستطع أن يؤديه .

لعنة الله عليه .. ترى ماذا يقول لأخيه الذى اعتمد عليه فى الاعتذار للفتاة أيقول له إنه كان مشغولا بمشاهدة الناس وأنه ذهب بعد الموعد فلم يجد الفتاة ؟

وترى ماذا قالت الفتاة عن أخيه .. أغلب الظن أنها قد انصرفت حانقة .. بعد أن قررت ألا تقابله بعد ذلك .

واتكأ الفتى على «الكورنيش» ، وعاد مرة أخرى يستعرض موجات الأجساد المتلاطمة على الرصيف .. وقد أخذ يفكر في عذر يسوقه إلى أخيه كي يبرر تقصيره المشين .

وبدأ الفتى يشعر بالملل .. فقد خلا الشاطىء من الجمال ، واقفر إلا من وجوه خشنة أو شبيهة بالخشنة ، وشعر بضيق من الناس ، ورغبة في أن يخلو إلى نفسه .. فهمّ بالعودة إلى الدار ، ولكنه لمح وجهاً قد أقبل بين الوجوه الخشنة جعله يتسمر في مكانه .. فقد كان الوجه «نسيجاً وحده» .

واقتربت صاحبة الوجه .. وبدت أمامه بجسدها العجيب كأنها نموذج للجمال والفتنة .

وأحس الفتى بعينيه حائرتين بين ساقيها وعينيها .. وتمنى لو تمهلت قليلاً أو وقفت مكانها حتى يستطيع أن يروى من عينيها ظمأ عينيه ، ويطعم من جسدها جوع جسده .

ولأول مرة في حياته شعر الفتى أن الله قد استجاب أمنية من أمانيه . فقد تأنت الفتاة في مشيتها .. ثم توقفت .. واستدارت ببطء ، واتجهت إلى السور الحديدي ، واتكأت عليه مولية وجهها شطر البحر ، ووقف الفتى على قيد خطوات منها .. وكأنه على أبواب «الجنة» . ثم دار على عقبيه ، وملأ صدره بنسيم البحر كأنه يستعين ببرودته على إطفاء ذلك اللهب الذى بعثته الفتاة ليستعر في صدره .. ويتأهب لخوض معركة .

وأخذ الفتى ينساب بخطوات جانبية نحو الفتاة .. فلم تمض فترة وجيزة إلا وكان كتفه على وشك أن يمس كتفها .. وفى خلال ذلك الانسياب الذى بدا منه أنه غير مقصود .. كان ذهنه قد أخذ يبحث بسرعة عن أنسب الكلمات التى يبدأ بها حديثه معها .. وأخذ يستعيد لنفسه جميع وسائل المغازلة «والبصبصة» .. المألوف منها وغير المألوف .

ترى.أيبدأ بصب كلمات الإعجاب فى أذنيها .. والغوانى — كما يقولون — يغرهن الثناء .. ولكن هذه طريقة «عتيقة» بالية .. وقد يكون نصيبه من الفتاة لايزيد عن : «ياسم» أو «يادم» .. أو قد تكون الفتاة أكثر كرماً ، فتجيبه بصفعة ترن وسط الجماهير .. إذن فليبدأ حديثه عن الجو ، ولكن الحديث سيكون بارداً وتافهاً .. وأخيراً بدأ يتخيّل أن الفتاة قد اختل توازنها فهوت إلى الماء .. وأنه ألقى بنفسه خلفها فأنقذها من بين الأمواج .. وخرج من الماء يحمل جسدها الغض بين إعجاب الجماهير المحتشدة .. وتخيّل الفتاة بعد أن تفيق وقد نظرت إليه نظرات ساحرة مليئة بالحمد والشكر .. ولكنه تذكر فجأة أنه لايجيد العوم وأنه قد يغرق مع الفتاة .. فاستبعد من ذهنه هذه الوسيلة الخطرة .

ومضت فترة والفتى يحملق فى الماء دون أن يهتدى إلى الكلمات التى يستطيع أن يستدرج الفتاة بها إلى الحديث .

وشعر الفتى بمدى خيبته فى ميادين الغرام .. وجبنه فى معارك الهوى ، وأنه لايملك إلا النظر من بعد ، والإعجاب فيما بينه وبين نفسه . وأنه لايزيد عن كونه «أسد علىَّ وفى الحروب نعامة» .

وخشى الفتى أن يضيع الفرصة السانحة بذلك التردد والإحجام ، وعزم على أن يقول للفتاة أى شيء ، وليحدث بعد ذلك مايحدث .. وفجأة أدار لها وجهه ، ثم سألها .

— كم الساعة من فضلك ؟

ونظرت إليه الفتاة برهة قبل أن تجيب ، ثم قالت فى تهكم وسخرية :

— خير لك أن تسأل نفسك !

وأشارت بأصبعها إلى الساعة التى بدت واضحة فى معصمه .

وبدا على الفتى الارتباك وأجاب متلعثما :

— إن بها خللاً من أثر الرطوبة .

— لا أظن أن «هى» التى بها خلل ، فإنى أراها الثامنة النصف ونحن فعلا فى الثامنة والنصف .

وازداد ارتباك الفتى ، فضحكت الفتاة وأردفت :

— هذه طريقة «عتيقة» فى «جر الشكل» ، وكان من الواجب عليك ما دمت قد قررت استخدامها أن تتنبه إلى إخفاء الساعة ، وعلى أية حال لم يكن هناك داع لهذا التمهيد ، فلتتحدث كما تشاء ، لأنى لا أرى ضرراً من الحديث ، مادام لن يكون أكثر من حديث نفترق بعده إلى غير لقاء .

ولم يسع الفتى إلا أن يستغرق فى الضحك ، وأحس أن الفتاة تتسلل إلى قلبه بسرعة البرق ، فقد استطاعت أن تبدد ماعراه من مظاهر التكلف ، ووجد نفسه قد أخذ يتحدث إليها كأن بينهما قديم صحبة ، وأحس الاثنان بكثير من التآلف والانسجام فلم يشعرا بذلك الوقت الذى مرّ كالبرق حتى سألته الفتاة عن الساعة ، ونظر الفتى إلى الساعة فى يده فإذا بها التاسعة والنصف ، فبدت الدهشة على وجه الفتاة وهتفت :

– هكذا سريعاً ! ياللك من لص ماهر ! لقد سرقت منى حديث ساعة دون أن أحس ، لقد آن لى أن أنصرف .

– على أن نلتقى مرة أخرى ؟

– لاتكن طماعاً ، لقد وعدتك بحديث لا لقاء بعده ، إنها ساعة قضيناها فى أحاديث روّحت عن نفسينا ، بدل الحملقة فى أمواج البحر ، أو أمواج البشر ، فلا تحاول أن تجعل من المسألة قصة غرام .

وافترق الاثنان إلى غير لقاء ، ولم يستطع حزن الفتى على فشله فى الظفر بلقاء آخر أن يمحو تلك النشوة التى تركتها الفتاة فى نفسه خلال هذه الساعة ، فسار فى طريقه وقد بدت الحياة لذيذة ممتعة ، وشعر أنه يحب كل ما عليها ، حتى هؤلاء السخفاء الأغبياء الذين كان يزدريهم قبل أن يلقى الفتاة ، وتمنى لو استطاع أن يقص على كل مخلوق ما حدث بينه وبينها .

وأخيراً وصل إلى البيت ، فعاد إلى ذاكرته ذلك الموعد الذى أخلفه مع صاحبة أخيه ، وتركه إياها تنتظر فى محطة الترام وهو مشغول بمشاهدة الناس ، وبدأ يلفق فى رأسه قصة يعتذر بها له .

ودخل على أخيه فإذا به قد استلقى يقرأ فى إحدى المجلات ، فكسا وجهه سيماء التجهم والضيق . وخلع حذاءه فقذف به فى نهاية الحجرة حتى يلفت نظر أخيه الذى رفع إليه بصره فى دهشة قائلا :

– ما بالك ؟ !

– كان يجب عليك قبل أن ترسلنى لأعتذر عنك أن تعلم صاحباتك أولا أن يحترمن المواعيد .

– أتأخرت عن الموعد ؟

— تأخرت ؟ إنها لم تأت بالمرة ، وتركتنى «ملطوعاً» فى المحطة لمدة ساعة دون أن تأتى ، حتى لقد صادقت خفير المزلقان من فرط الوحدة والشعور بالضيق والملل .

ولم يسع أخاه إلا أن يبدى دهشته من تخلف الفتاة ، فما تخلفت قط عن ميعاد لها قبل الآن ، واعتذر له وأخبره أنه سيعزف كيف يؤدبها .

وسر الفتى أن المسألة قد انتهت – ولو مؤقتاً – إلى هذا الحد ، وانبسطت أسارير وجهه ، وبدأ يحس باللهفة إلى أن يقص على أخيه مغامرته مع فتاة «الكورنيش» . فلم تمض بضعة دقائق حتى كان منهمكا فى سرد تفاصيل القصة .

ولم يكد ينتهى منها حتى كان أخوه يحدجه بنظرة اتهام سائلا إياه :

– قل الحق ، لقد أنستك الفتاة أن تذهب إلى الموعد !

– الحق أنى لم أذهب فعلا ، ولكنها ليست هى التى أنستنى إياه ، لأننى لم ألقها إلا بعد فواته ، وكل ما حدث هو أننى وقفت أرقب الناس فأصابنى سهو ونسيان ، ولم أذهب إلا بعد الموعد بعشر دقائق .

– هذا ألعن وأضل سبيلا .. على أية حال لاتحمل لها هماً فإنى أعرف كيف أستعيد رضاءها .. عد بنا إلى صاحبتك ، متى ستلقاها مرة أخرى ؟

– لقد أخبرتنى أنه لا لقاء بعد ذلك .

– ياللخيبة ! تتحدث معها ساعة ثم تتركك إلى غير لقاء ! وماذا أفدت من حديثها ؟ كأنى بك قد تحدثت إلى سيدنا الخضر ، أو الى برناردشو .. هل قبّلتها ؟

– أقبّلها على الكورنيش ؟

– ولمَ لا ؟ .. لعلك قد اكتفيت بمس يدها ؟

– ولا هذا .

– خبرني إذن ! لِمَ كل هذه النشوة والفرحة ! ليخيل إلىّ وأنا أراك تتحدث عنها أنكما سبحتما سوياً عاريين فى بحر من الخمر .. لاتكن أبله ، اذهب فى الغد إلى مكان الليلة ، فلابد أنك ستجدها تنتظر ، ولايغرنك منها صد ولاتمنع ، وكن أكثر جرأة تجدها قد لانت .

وبدأ الفتى يأخذ من أخيه درساً فى الغزل ، ولم يكن أخوه يكبره إلا بعام واحد ، ولكنه كان يكبره فى أمور الحب وشؤون النساء بمائة عام ، فبقدر ما كانت خيبة الفتى وتهيبه كانت جرأة أخيه ومهارته ، فكان الأول يكتفى بالنظر والإعجاب والحب عن بعد ، وكان الثانى لايكتفى بأقل من خمس فتيات يصاحبهن فى وقت واحد .

ولم يكن الفتى وأخوه مجرد أخوين ، بل كان بينهما تآلف شديد نتج عن تقاربهما فى السن واشتراكهما معاً فى جميع مراحل حياتهما ، فقد كانا شريكين فى البيت والمدرسة واللهو واللعب .. كانا شريكين فى الأفراح والأحزان ، وما سقطا فى الامتحان أو نجحا إلا سويا ، وما هربا من المدرسة وسارا فى المظاهرات يهتفان «يحيا سعد» إلا سويا ، وما تأخرا عن المنزل ولقيا جزاءهما من الضرب والقرص «فى اللباليب» من أمهما «المخضوضة» التى ظنتهما ماتا دهساً أو غرقا .. إلا سوياً .

– ومازال إلى الآن يذكران عودتهما إلى الدار بعد لعب الكرة – وكانت من الأشياء المحرّمة عليهما – وقد بدت على وجهيهما حمرة

«مزرودة» وتلك أكبر دليل لأمهما على ارتكابهما جريمة لعب الكرة ، فيسأل كلاهما الآخر : هل وجهه أحمر ؟ فيطمئنان بعضهما بالنفى ، ثم يذهبان إلى البيت . فتكون «علقة» لايجدى معها أى إنكار .

واستمر الأخوان فى كل مراحل الدراسة سوياً حتى دخل أكبرهما مدرسة البوليس ، فخلا مكانه في الفراش المشترك بينهما لأول مرة ، وكم كان يحس الفتى فى أول الأمر برغبة فى أن يذرف بعض الدموع على الوسادة ، عندما كان يذهب إلى الفراش وحيداً فيشعر بالفراغ الذى تركه أخوه .

وزادت بينهما الفرقة عندما تخرج أخوه وعين فى الإسكندرية ، ولم تكد تحل فرصة الصيف حتى أسرع الفتى بالسفر ليلقى أخاه ويقضى معه عطلة الصيف .

وكان الأخوان سعيدين بكل شىء ، بلقائهما ، وشبابهما ، وحريتهما ، وخلوهما من أعباء الحياة ، فكانا يحسان كأنهما فراشتان طليقتان ، لايريان فى الحياة إلا ضحكة طروباً ، ومزحة ماجنة .

وذهب كلاهما إلى النوم فى هذه الليلة بعد أن أقتنع الفتى أخيراً بأن يذهب للقاء الفتاة .. فلم تكد الشمس تميل إلى الغروب فى اليوم التالى حتى كان واقفاً فى نفس المكان ، وسقط الظلام فأخذ يتمشى جيئة وذهاباً عله يعثر عليها وسط الجموع المحتشدة ولكنه لم يجد لها أثراً ، فأحس بالضيق ، وندم على سماعه كلام أخيه ، فقد كان خيراً له ألا يأمل فى لقاء الفتاة حتى لايشعر بمثل هذه الخيبة .

وعاد الفتى فاتكأ على السور الحديدى وسبح ببصره فى ظلمة البحر الصاخبة ، وأحس بحنين إلى الفتاة ، وود لو يهب نصف عمره ويتحدث إليها ساعة أخرى . وأضناه الشوق فملأ بالهواء صدره ثم

أخرجه فى زفرة حارة ، فإذا به يسمع رنة صوت ناعم ساحر يهتف به هامساً :

– كفى الله الشر ، لعلها لاتكون زفرة حب ؟

من ؟؟ إنها هى بعينها ، وقد اتكأت بجواره تماماً كما كانت بالأمس وضحك الفتى وأسرع بإجابتها :

– بل إنها لكذلك ، أتجدين فيها خطورة ؟

– لا أظن ، فلم يعد الحب الآن بالداء المستعصى .

– أغلب ظنى أنك لَم تصابى به بعد ، وإلا لما قلت عنه إنه ليس بالداء المستعصى .. ألا تدرين أن الإنسان يستطيع أن يضمن سعادته مدى الحياة إذا استطاع أن يخترع «بنسلين» لداء الحب .

وأخذ الفتى يتحدث عن الحب ، وهو ينظر إلى شفتيها ، وتذكر فجأة قول أخيه «هل قبّلتها» ، ورأى بعين الوهم شفتيه تنطبقان على شفتيها ، فأحس بنشوة عجيبة .

يا لأخيه الطائش الأحمق كيف يستطيع أن يقبّلها على الكورنيش وسط هذه الجموع الحاشدة ؟ ليته يفر بها إلى خلوة هادئة ! ؟

وفجأة بدأ الفتى يرفع ياقة «الجاكتة» ويظهر علامات التأفف من البرد ، كأنما الجو قد حدث به انقلاب خطير ، ثم سألها فى تردد :

– يخيّل لى أن البرد قد اشتد ، أهناك ما يمنع من أن نترك الكورنيش ونتمشى قليلا فى الشوارع الداخلة ؟

– أبدأ كما تشاء ، ولو أنى لا أحس بذلك البرد الذى تدعيه !

وتركا الكورنيش ، وسارا جنباً إلى جنب فى تلك الشوارع الهادئة الساكنة ، ثم عبرا ترام الرمل ، واستمرا فى السير حتى وصلا إلى المقابر القريبة من «المزاريطة» ، ولم يشعر الفتى قط بوحشة من المقابر ، بل تمنى لو كانت الدنيا كلها مقابر حتى يستطيع أن ينعم بفتاته دون أن يضايقه إنسان .

ولِمَ يخشى المقابر وهى لاتزيد عن مضاجع يرقد فيها إنسان فى أحسن حالاته .. إنسان قد خلا من النفاق والرياء واللؤم والخسة .. إنسان قد سكنت يداه عن ارتكاب الشرور والآثام ، وصمت لسانه عن فحش القول وسقط الكلام .. إنسان لاهو بهمزة ولا لمزة .. إنسان ترك ما له الذى جمعه وعدده وحسب أنه مخلده ، فلا أبقاه ولا أخلده . إنسان ليس بشيطان رجيم ولامناع للخير معتد أثيم ، أفهناك خير منه ؟ أو ليس الإنسان الميت خيراً من الحى ؟

لقد سار الفتى بين المقابر فلم يتغامز عليه الموتى ولم يتشاوروا ، ولم «يتنحنحوا» ولم يتصايحوا .. ولم يقم بينهم واحد يدعى الشرف فيصيح بالفتى أن يترك الفتاة ، ولم يجر وراءه الأطفال صائحين مهللين .. لم يفعل الموتى شيئاً من هذا ، بل استمروا فى رقادهم هانئين ، وتركوا العاشقين يسيران فى هدوء واطمئنان .

وأخيراً اقترب الفتى من شجرة ضخمة عتيقة فجلس مع فتاته على حجر فى أسفلها ، وطاف برأسه قول أخيه :

«هل قبّلتها ؟» كم كان يتمنى لو مست شفتاها شفتيه . «هل أمسكت يدها ؟» نعم إنه الآن يمسك بيدها بين كفيه ، ما ألطف يدها وما أرقها ، عجيب هذا الشىء الذى يسمونه «الحب» .. إن المرء ليظل يصافح آلافاً من الأيدى دون أن تتحرك فى جسده شعرة واحدة ، ثم

تراه يلمس ذات مرة يداً خاصة فإذا بتيار قد سرى منها إلى جسده فجعله ينتفض من أخمصه إلى قمة رأسه .

وافترق الاثنان بعد حديث ذى شجون ، ولكن الفرقة في هذه المرة كانت إلى لقاء . وعاد الفتى أدراجه إلى البيت ، وكان أول ما قاله لأخيه هو أنه قد أمسك يدها . وضحك أخوه ، وأخبره أنه تقدم محسوس وترك له الفرصة حتى الغد لينبئه أنه قبّلها .

وكان اللقاء في اليوم التالي أكثر روعة وسحراً ، ورأى الفتى فى ضوء القمر الخافت الضعيف مبعثاً للفتنة ، فأمسك بيد الفتاة وتطلع بعينيه الى شفتيها ، وأخذ يقرّب وجهه من وجهها ، ثم ترك يدها تنساب على ساقه وأمسك رأسها برفق وتخلل شعرها بأصابعه ، وجذب وجهها إلى ناحيته قليلا ليبعد عنه ظلال الشجرة ، وبدا الوجه فى ضوء القمر أروع من أن يوصف .. ونظر الفتى فى عينى الفتاة ، فبدت منهما نظرة استسلام وانتظار . ورأى أجفانها تنطبقان ببطء كأن الفتاة قد راحت فى حلم أو غيبوبة .

«هل قبّلتها» ؟

لقد كان الفتى هو الآخر فى غيبوبة ، لقد اطبق شفتيه على شفتيها .. ثم أخذ يمسهما مساً خفيفاً .

أهاتان شفتان كبقية الشفاه ؟ ! لقد كان الفتى على استعداد بأن يجزم ويقسم أنهما شيء آخر ، هاتان الشفتان اللتان أطعمتاه من جوع ، وروتاه من ظمأ ، لايمكن أن تكونا كغيرهما من الشفاه ، إنهما ينبوع يفيض بالحلاوة والعذوبة ، إن بهما شيئاً عجيباً ، إنه سحر أو كهرباء أو شيء لم يستطع الإنسان معرفة كنهه بعد .

وعاد الفتى إلى البيت ، ورأى أخاه فلم يبدأه الحديث كما تعوّد . فقد كان أشبه بالثمل ، ونظر إليه أخوه وقال ضاحكا :

– الظاهر أنك قد قبّلتها ولكن القبلة كانت شديدة عليك بعض الشيء .

– هو كما تقول ، فإني أحس أنني قد أصبت «بلطشة» قبلة كما يصاب الإنسان «بلطشة الشمس» .

– لطشة شمس ، أو لطشة هوى ؟ !

ومضت الأيام بعد ذلك والفتى يرتشف كؤوس الحب في مكانه المختار ، وقد حنت عليهما الشجرة ، وسكن كل ما حولها كأن الدنيا قد خلت إلا منهما .

وفي ذات يوم والفتى قد ركب الترام مع أخيه وأخذ يقلب صفحات مجلة في يده إذا بأخيه يقبض على ذراعه فجأة ويقول :

– هيا ، سننزل هنا .

– ولكن ليست هذه هي المحطة التي نريدها !

– لاتكن أحمق ، انزل .. لقد وجدتها أخيراً بعد أن أعياني البحث عنها .

ونزل الاثنان من الترام . والفتى يتساءل في دهشة :

– من هي ؟

– تلك الفتاة التي أرسلتك للاعتذار لها ، لقد حاولت عبثاً أن ألتقي بها بعد المرة الأخيرة . ولكن الظاهر أنها كانت غضبى ، وقد لمحتها الآن تدخل هذا المحل .. انتظر لحظة حتى آتيك بها ، لتعترف لها أنك أنت السبب في ذلك الفصل البارد ، وأنني بريء منه .

واندفع الأخ وسط جموع الناس ثم اختفى فى محل قريب ، وبعد لحظة قصيرة عاد إلى الفتى وقد تأبط ذراع فتاة .

ولم يصدق الفتى عينيه ، وتسمر فى مكانه ، وأصابته صدمة عنيفة .. لقد كانت الفتاة .. هى بعينها صاحبته !!

وود الفتى لو يستطيع الفرار ، ولكنه وقف أمامهما وجهاً لوجه .

وأبصر أخوه ماعلا وجهه من دهشة وارتباك .. وسمع الفتاة بجواره تهتف :

– أهذا أخوك ؟

ووقف الأخ حائراً بين الفتى والفتاة . وقد أصاب الاثنين شبه ذهول ، وساد بينهما صمت عميق ، وفجأة لاحت له الحقيقة من وجه أخيه ، إذ كان لايخطىء قراءته قط ، فلم يرد أن يزيد الموقف حرجاً ، وانسحب من بينهما ، واختفى بسرعة بين الجموع المتحركة ، معتذراً بأنه قد لمح شخصاً يعرفه .

ولم يتحدث الفتى كثيراً مع الفتاة ، فقد كان يشعر بضيق شديد ، فافترقا بعد هنيهة ، وذهب الفتى إلى الشاطىء وقد شرد ذهنه ، وغرق فى لجة من الأفكار .

ولم يعد الفتى إلى البيت إلا فى وقت متأخر من الليل ، فتسلل إلى فراشه فى صمت وسكون .

وفى الصباح لم ينبس واحد منهما ببنت شفة .

لقد كان يحس بخجل من أخيه .. ترى ماذا قد ظن به ؟ أتراه قد حسب أنه لقى الفتاة فى الموعد فأغراها بمصاحبته بدل أن يعتذر لها ؟

وود الفتى بعد ذلك لو يشرح لأخيه أنه لم يكن يدرى قط أنها هى صاحبته وأن المسألة لاتعدو أن تكون صدفة عجيبة ، ولكن أخاه كان يبدو أنه لايود الخوض فى الموضوع مرة أخرى ، فما أتى ذكر الفتاة قط على لسانه منذ ذلك اليوم .

وعزم الفتى على ألا يلقى الفتاة بعد ذلك ، وأن يمحو كل أثر لها فى نفسه .

واستطاع أن ينفذ ماعزم عليه ، ولكنه كان يدفع الثمن باهظاً .. لقد كان يدفعه من عصارة قلبه ، ومن نفسه الضاحكة المرحة التى لم تعد بعد مرحة ولاضاحكة .

لقد نجح فى أن يترك الفتاة ، ولكنه لم ينجح فى أن يمنع ذلك الاكتئاب من أن يسرى إلى نفسه ، وذلك الحزن من أن يتسرّب إلى قلبه فيطرد كل ما به من نعيم وهناء .

لقد أصبح كئيباً حزيناً ، كثير الإطراق والوجوم ، كثير شرود الذهن وغروب البال ، وكان يبدو كأنه زهرة تذوى أو ذبالة تخبو .

وفى ذات مساء خرج من الدار ، فإذا بقدميه تسوقانه من حيث لايدرى إلى شجرة بين القبور ، لقد كان به حنين زائد وشوق مفرط .. لقد ساقته قدماه إلى حيث تحيا نفسه ويهوى قلبه .

وما زرتكم عمداً ولكن ذا الهوى
إلى حيث يهوى القلب تهوى به الرجل

وجلس الفتى تحت الشجرة وقد لفته الظلمة فبدا كأنه شبح من أشباح المقابر ، وتلفت بجواره فخيّل إليه أنه يبصر بين الظلمات وجهها المضىء وعينيها الساحرتين ، ثم تحسس بيده فلم يجد إلا الفراغ والظلمة .

أتراه قد جن بها ! كما جن من قبله قيس بليلى ؟

إنه يسمع وقع أقدام تأتى من بعيد ، أنها تقترب .. ترى هل هى الأخرى أوهام وأحلام ، أم هو حارس المقابر يجول فى الطرقات ؟

لا ، إنها ليست أوهاماً ، إنها أصوات حقيقية . لاشك أنه الحارس الكهل .

وأخذت الأصوات تقترب رويداً رويداً والفتى مستغرق فى الصمت والسكون حتى أحس فجأة بيد تمس كتفه ، وانتفض الفتى وأحس ببرودة فى بدنه ، ثم تلفت خلفه ، فكاد قلبه يقفز فى جوانبه .

إنها هى !! هى بعينها وصدرها وساقيها ، ليست روحاً ولا شبحاً .. لقد أمسك بيدها فأحس بدفئها يسرى فى بدنه ، وأمسك بذراعيها وضمها إليه فأحس بصدرها الممتلىء يغمر صدره ، وتحسس بيده شعرها ووجهها فإذا به كما كان غضاً بضًّا .

وتحركت شفتاها وهمست قائلة فى صوت يكاد يسمع فيه صدى لبكاء خافت :

– كنت أحس أنك لابد آت ، فكنت أحضر فى كل مساء وأجلس وحيدة فى هذه الظلمة الموحشة والسكون المخيف ، ثم أعود أدراجى مكتئبة حزينة ، ولكنى كنت أشعر أنك ستأتى فى يوم ما ، فلم يغشنى اليأس .. حتى رأيت شبحك اليوم يلوح وسط الظلمة ، فعلمت أن القلب لايخطىء .

واتخذ الاثنان مكانهما تحت الشجرة ، وبدآيعوضان ما فاتهما من حب فى أيام الفرقة .. ولكن الفتى عاد يسمع أصوات أقدام تقترب مرة أخرى ، فقال لنفسه :

— هذه المرة لابد أن تكون أقدام الخفير .

— وأخذ الصوت فى الاقتراب ، ثم أحس الفتى بيد تمس كتفه ، فانتفض واقفاً ، فإذا بأخيه قد وقف خلفه .

ووجم الفتى فلم ينبس ببنت شفة .. وأحس بالخجل من أخيه وبدا كأنه سارق ضبط متلبساً بجريمته .. وساد صمت عميق ، وسكون كذلك السكون الذى يوحى بالعاصفة .

وكان أخوه أول من تكلم .. وبدت نبرات السرور والحنان واضحة فى صوته :

— لو أعرف أنك هنا تتمتع بالغرام لما جشمت نفسى مشقة تتبعك وسط هذه القبور الموحشة . لقد خشيت أن يعصف بك الحزن ، ولكن الظاهر أن الهوى هو الذى سيعصف بك ، لقد ظننت أنها هى التى هجرتك ، وخيل إلىّ أن هذا هو سبب حزنك ، ولم أرد أن أتدخل فى الموضوع خشية أن أولمك ، غير أنى عزمت اليوم أن أحضرها لك بأية وسيلة حتى أذهب عنك ذلك الأسى الذى ملأ قلبك ، ولكن يبدو أنها هى الأخرى قد مَسَّها جنون الحب أيضاً ، فوفرت علىّ مشقة التدخل وما أظنك الآن بحاجة إلىّ .

وبدا السرور والدهشة على وجه الفتى ، وصمت أخوه لحظة ثم أردف :

— يا للعشاق الأغبياء ! يستبدلون بالعمران الخراب ، والأموات بالأحياء ، وبالنور الظلمة ، وبضجيج المدينة سكون القبور ، ثم يشعرون بعد ذلك بالسعادة ، وينكرون أن الحب جنون !

ثم رفع يده فوضعها على كتف أخيه وقال مخاطباً الفتاة :

– لاتبخلي عليه بالحب ، ولاتسببي له ما يضايقه ، بل أحبيه بكل ما في قلبك من شعور وإحساس ، لأنه يستحق الحب .

ثم ضم الفتى إليه وقبله في عطف وحنان ، واستدار في صمت وعاد أدراجه .

وعاد العاشقان مكانهما تحت الشجرة .. وأحس الفتى بالطمأنينة تملأ قلبه .. واقتربت منه الفتاة فأسندت رأسها إلى صدره .. وضمها إليه بشدة كأنما يخشى أن تنتزع منه .. ومد يده يتخلل بأصابعه شعرها الذى ملأ عبيره أنفه .. ويتحسس تقاطيع وجهها الدقيقة الساحرة .

وساد المكان سكون إلا من وقع أقدام أخذت تبتعد رويداً رويداً .. حتى خفت صوتها .. وعاد صاحبها إلى ضجيج المدينة .. تاركاً العاشقين المجنونين يتمتعان بسكون القبور .

* * *

صعود .. وهبوط

– إلى أين ياعم منصور ؟

– لن أتغيب كثيراً ياسيدى .. سأعود بعد لحظة .

– لعله موعد غرام ؟

– هل بقى لهذ اللمة البيضاء ، وذلك الظهر المحدودب .. والعروق النافرة ، سبيل إلى مواعيد الغرام ؟ سامحك الله ياسيدى .

– فلماذا إذن لاتفصح ؟

– الأمر لايستحق الإفصاح .. لقد تعوّدت أن أحمل بعض فتات الموائد إلى عجوز مسكين يعيش فى كوخ على مقربة من الفندق .

– انتظرنى قليلا .. فسأذهب معك لأنى أريد التريض بعض الوقت فى هذا المساء .

وتناولت عصاى ، وقمت مع الرجل .. وسرنا فى الطريق الممتد على سفح الجبل . وقد قامت إلى يميننا أبنية «الها كارمل» وإلى يسارنا الهاوية السحيقة التى تنحدر حتى أسفل الجبل .

كان ذلك فى صيف سنة ٤٣ . وقد ذهبت لأقضى بضعة أيام فى حيفا على قمم جبل الكرمل . ورأيت المدينة تقوم على سفح الجبل كأنها منزل من ثلاثة طوابق : الطابق الأول منه يقوم فى أسفل جبل الكرمل ، وفيه الميناء ومدينة العرب بيوتها القديمة الشاحبة .. والطابق الثانى فى منتصف الجبل ، وفيه مدينة الحادار بمبانيها الجديدة ، وأسواقها العصرية ، وقد غصت باليهود وجلهم من النساء .. حتى لقد ساءلت نفسى : كيف يتكاثر هؤلاء القوم ؟ .. أما الطابق الثالث فهو الهاكارمل ، وكان أشبه بضاحية أو مصيف .

نزلت في الفندق الذى يقوم على قمة الجبل فى الهاكارمل .. وكان المنظر الذى يطل عليه بديعاً حقاً .. فقد كان الميناء يبدو كأنه رسم صغير على إحدى الخرائط . وكان البحر يمتد إلى أبعد ماتستطيع العين أن ترى .

وكان يخيّل إلىّ أنه لايوجد فى الفندق من المسلمين سواى وعم منصور ، ذلك الجرسون الكهل الذى نشأ بينى وبينه منذ اللقاء الأول ، نوع من الألفة والود ، إذ كان هو الوحيد الذى يمكننى التفاهم معه .

وفى ذات ليلة تأخرت فى الصعود إلى غرفتى ، وكان النزلاء جميعاً قد انصرفوا ، فلم يبق سواى وعم منصور ، ورأيته يغادر المكان ومعه صرّة ثم خرجت معه ، إذ كنت فى حاجة إلى السير مشياً على الأقدام..

ولم نكد نبتعد قليلا حتى أخذ يحيد عن الطريق ، منحدراً فى ممر ضيق متعرّج فى سفح الجبل .. وتباطأت فى السير .. فقد كان أثر ما أخشاه أن أتعثر فتنزلق قدماى ، ويكون فى ذلك حتفى ، وتهشيم عظامى ! !

وبدت لى ذبالة تتراقص فى الهواء .. ووقف الرجل عند كوخ متداع وسط ذلك المكان المقفر الموحش .. ودلف إلى داخل الكوخ وغاب لحظة ثم عاد إلىّ ، ومضينا فى سبيلنا مطرقين فى صمت وسكون ، وكنت أنتظر أن يبدأ الرجل الكلام ، فيحدثنى بشىء عن العجوز ساكن الكوخ .. ولكنه استغرق فى صمته .. وكان حب الاستطلاع قد بلغ بى مبلغاً لايمكن السكوت معه . فسألته :

– ما قصة هذا الرجل .. ؟

– قصته وأيم الله عجيبة حقاً !! ومع ذلك فقد تكرر حدوثها فى هذا البلد حتى أصبحت لاتثير أى عجب أو غرابة ! وبتنا لايدهشنا وقوعها ، بل يدهشنا عدم وقوعها !!

ثم عاد الرجل إلى صمته .. وخيّل إليه أنه أرضى بذلك تشوّقى إلى سماع القصة . وعدت أستحثه على الكلام ، وجذبته من يده ، فأجلسته على سور حجرى يحجز جانب الطريق عن الهاوية ، ثم جلست إلى جواره وأخذت أشعل له سيجارة بدت على ضوئها تجاعيد وجهه كأنها أخاديد عميقة حفرتها معاول السنين .. وقلت أسأله :

– هيه .. ثم ماذا .. ؟

فرفع إلىّ بصره . وقال له فى غير اكتراث :

– الأمر بسيط .. هل ترى ذلك البيت الكبير القائم وراء هذه الأسوار العالية التى تقوم أمامك مباشرة ؟.. هل رأيت ذلك الكوخ المتداعى الذى غادرناه منذ لحظة ؟ .. لقد كان ساكن الكوخ هو مالك القصر .. وكان ساكن القصر ، مأواه الكوخ ! .. ثم تبادلا المأوى ، فهبط هذا .. وصعد ذاك ..

- ولكن كيف قبل العجوز تلك الصفقة الخاسرة ؟ .

- مكره أخاك لا بطل .. لقد كان عليه أن يتخير إحدى اثنتين : إما أن يقبل الكوخ وفتات الطعام .. أو يبيت على الثرى ويأكل الحجارة !

- ولكن ما الذى أكرهه على ذلك ؟ .

ولم يرد الرجل على سؤالى بل حملق فى الهاوية المظلمة ، وفى الأضواء البعيدة التى كانت تتراقص أمامنا ثم بدأ يحدث نفسه كأنه يستعيد ذكريات أليمة :

- منذ عشرين عاماً ، كان ذلك العجوز المسكين أبعد الناس عن الفقر والذلة والمسكنة .. إذ كان يملك نصف هذه الضاحية بما فيها الفندق الذى تنزل فيه .. وكنت أعمل عنده كما أعمل الآن ، وكان يعيش وحيداً لاوريث له إلا ابن أخيه الطفل الذى فقد أبويه فتكفل هو بتربيته .. وكان الرجل رغم ماوهبه الله من بسطة العيش وسعته ، كريماً نبيلا ، دمث الأخلاق ، جم التواضع ، وفى ذات يوم رأيت رجلا رث الثياب ، قبيح المنظر يطلب ما يسد به رمقه ورمق زوجته . وقد علمت منه أنه هاجر حديثاً إلى هذا البلد .. وأنه قد أقام لنفسه كوخاً يأوى إليه فى سفح الجبل .

وعلم السيد بأمره فرق لحاله ، وأمر بتوفير عمل له فى الفندق .. وقد أبدى الرجل مهارة وحذقاً فى عمله .. فلم تمض مدة حتى أمر السيد بإيجاد عمل لامرأته أيضاً .. ومن ذلك اليوم بدأ السيد ينحدر فى الهاوية .

وسكت الرجل برهة ، فعدت أستحثه على الكلام ، فتمتم قائلا :

– لا أطيل عليك .. لقد أوقعت المرأة سيد القصر فى شراكها .. فانقلب السيد عبداً ذليلا .. وبدأت تستنفذ ماله شيئاً فشيئاً . وكانت العملية أشبه ما تكون بنقل مياه من إناء مليء إلى إناء فارغ بواسطة خرطوم .. فما لبث الإناء المليء أن أصبح خاوياً ، وامتلأ الإناء الفارغ بالمياه حتى سالت على جوانبه .. وبين عشية وضحاها بدأ السيد يستدين لكى يرضى المرأة التى جنّ بها حباً .. وهى تأبى إلا أن تستنزف دمه حتى آخر قطرة !

وأخيراً وجد السيد نفسه ، ولنسمه سيداً على سبيل المجاز ، ملقى على قارعة الطريق لايملك حتى ما يسد به رمقه .. تماماً كذلك الرجل الشريد عندما حضر لأول مرة .. ولم يجد ما يأوى إليه لتمضية بقية عمره غير كوخ الرجل القديم ، وهجره الجميع ونبذوه نبذ النواة .. إلا قلباً واحداً ظل يرق له ، ويعطف عليه .

– لعلك تقصد نفسك ؟

– كلا ياسيدى .. هذا العطف منى عليه .. إن هو إلا حفظ لبعض الجميل ، ولو كنت أملك له أكثر من هذا لفعلت ..

– من تقصد إذن ؟ لعله ابن أخيه ؟

– كلا .. ولا ابن أخيه .. ولو كان موجوداً لكان بغير شك أشد الناس عطفاً عليه وبرّاً به .. ولكنه عندما انحدر عمه إلى الهوة هام على وجهه جرياً وراء القوت .. ولم نسمع شيئاً عنه حتى الآن .

– إذن من تعنى ؟

– إبنة الرجل الشريد !

ولم أستطع أن أكتم صيحة دهشة بدرت منى ..وسألت متعجباً :

– ابنة الشريد ؟ .. ولكنك لم تذكر لى أن له ابنة ؟

– لقد حملت امرأته بعد اشتغالها فى الفندق بمدة يسيرة ، ثم وضعت طفلة .. الله أعلم من يكون أبوها .. ولكن أغلب ظنى أنه السيد ساكن الكوخ .. فإنى أكاد أرى صورة من ملامحه فى وجهها .. ولاشك أن هذا هو سر عطفها عليه ، وتعلقها به .. وما أكثر ما كنت أشاهدها تنتظر حتى تسمع غطيط أبيها فى مقعده فتتسلل خفية إلى الكوخ .. وكثيراً ما زجرها أبوها ومنعها من الذهاب إلى الكوخ ، ولكنها استمرت تذهب إليه ، حتى يئس الرجل من منعها من الاتصال به ، فلم يعد يضيق عليها الخناق ، وخاصة بعد أن ماتت أمها .

– هل ماتت المرأة ؟

– نعم .. وكم بكى العجوز عليها مر البكاء .. فقد كان المسكين لايزال يهيم بها رغم ماجرّته عليه من سوء ووبال !

وسكت الرجل ، وقام من مكانه ، وعدنا أدراجنا إلى الفندق .. ونظرت خلفى فوجدت القصر الشاهق يطل على الكوخ كأنى به يهمس إليه : متى يعود السيد ؟ ! متى يقلع عن استخذائه ؟ . متى يترك جوفك المظلم ، ويصعد ليطرد ذلك الغريب الدخيل ؟ !!

وبعد سنتين من ذلك التاريخ ، أى فى الصيف الماضى .. ضمنى ذلك المكان مرة أخرى .. وكان كل ماحولي .. كما عهدته لم يتغير ولم يتبدل .. حتى عم منصور بمشيته البطيئة المتثاقلة .. فكأن عجلة الزمن هناك قد أصابها العطب فكفت عن الدوران !!

وفى ذات ليلة خرجت للسير فى الطريق .. وسألت عم منصور أن يصحبنى .. وكان النزلاء قد صعدوا إلى غرفهم .. وقادتنى قدماى

إلى تلك البقعة التى جلسنا فيها منذ عامين ، والتى قص علىّ فيها قصة ساكن الكوخ وبحثت في الظلمات عن الذبالة التى كانت تتراقص فى الكوخ ، فلم أجد لها أثراً ، فظننت الرجل قد مات .. وسألت في غير اكتراث :

– أين صاحبك ؟ . إنى لا أكاد أتبين كوخه .

– لقد صعد .

– صعد إلى ربه ؟

– لا .. بل إلى القصر !

وضحك الرجل ضحكة عالية ، ورأيت وجهه يشرق بالابتسام ، ثم أردف :

– لقد تبادلا المأوى مرة أخرى ، فصعد السيد إلى القصر ، وهبط الرجل الآخر ، ليس إلى الكوخ هذه المرة ، بل إلى باطن الأرض .

وظننت الرجل يهزل .. ولكنه كان جاداً فى قوله .. وأخذ يفسر لى ما حدث ، فقال :

– لقد عاد ابن أخيه فجأة .. وكان طوال هذه المدة مهاجراً فى مصر وساعده الحظ فأصاب بعض الثراء .. فلما عاد إلينا نزل فى الفندق ، وسأل عن عمه فقدته إليه ، وحاول أخذه معه إلى الفندق .. فرفض العجوز .

والتقى الفتى بابنة الرجل .. أو على الأصح بابنة عمه .. وبدأ الهوى يتسلل إلى قلبيهما .. ووجدت بذور الحب فى نفسيهما أرضاً خصبة فأينعت وازدهرت .. ولم يدهشنى قط أن يقع كلاهما فى هوى

الآخر ، فقد كان الفتى وسيما أنيقاً ، حلو التقاطيع ، جذاب الملامح ، تمتلىء نفسه قوة وأملا .. وكانت الفتاة نموذجاً للجمال فياضة السحر والفتنة .. لطيفة المعشر حلوة الحديث .

وكان يلذ لى أن أترقب تطور الغرام بين هذين العاشقين الرقيقين .. وأتتبع تلك النظرات الخفية المختلسة . وذلك الاضطراب الذى يعرو كليهما إذا ما التقت الأبصار وتحدثت الأعين .

وكان أول لقاء لهما فى كوخ الرجل .. عندما خرج الفتى يتبعها ، ذات مرة ، فأدهشه أن يراها تنحدر من الطريق وتدلف إلى الكوخ .

ترى أى شىء دفع الساحرة لزيارة عمه فى كوخه الحقير ؟ أتراها قد تعوّدت زيارته من قبل ؟ .. أتراها تعرف أنه عمه ؟

واغتبط الفتى .. وسرّه أنه يستطيع أن يجلس إليها ويتحدث معها فى الكوخ ، ولكنه كان يخشى أن تحتقره عندما تعلم أن ذلك الرجل الفقير هو عمه .

ولم يطل به التفكير .. فقد اندفع إلى الكوخ ، وأبصرته الفتاة فبدرت منها صيحة دهشة .. وازدادت دهشتها عندما أبصرته يعانق العجوز فى عطف وحنان .

ومن ذلك اليوم بدأ الهوى يشد وثاقه على العاشقين ويطويهما فى تياره الجارف ، وبحره الفياض ، وأصابتهما نشوة الحب .. فما عاد يبصر أحدهما فى هذه الدنيا سوى صاحبه .

ولم يعد غرامهما يخفى على أحد .. وسمع به أبوها فأوجس منه خيفة فقد كان يكره كل ما له علاقة بسيده القديم .. ونهر الفتاة ،

وحاول أن يثنيها عن حبها بكل ما لديه من طرق وأساليب .. ولكنه كان كالصائح في بيداء ، وأخيراً قرر أن يرحل بفتاته بعيداً عن الفتى .

وذهب العاشقان إلى صاحب الكوخ وقد ملأهما الحزن .. وسألهما فأنبآه بجلية الأمر .

وصمت العجوز برهة .. ثم ربت على كتفيهما بحنان .. وطلب منهما ألا يحزنا فإنما يقضى الله أمراً كان مفعولا .

وفى اليوم التالى لم يعد صاحب القصر إلى قصره . وظلوا يبحثون عنه عبثاً طوال الليل .. وفى الصباح وجدت جثته ملقاة فى أسفل الجبل ، أعضاء محطمة ، وأشلاء مهشمة .. ولايدرى أحد حتى الآن أزلفت قدم الرجل مصادفة فهوى .. أم أن أحداً دفعه فى ظهره دفعة كان فيها حتفه ! الله وحده أعلم بذلك .. !

وعلى أية حال لقد تزوج الفتى من الفتاة وأصبح هو صاحب الضياع والقصور .. وبذلك صعد بساكن الكوخ ، مرة أخرى إلى القصر ! .. وفى مكان الكوخ حفر قبر وضعت فيه حطام الجثة .. وهكذا كان الكوخ للرجل أول مأوى وآخر مثوى !!

* * *

المرأة الأخرى

كان الوقت بين الظلمة والضياء .. فالشمس جرت لمستقر لها ، تاركة حواشيها الحمر كأنها ستار أسدل على الضوء والحياة ، وبدت النجمة الأولى في أقصى الأفق تسطع في لألاء وبريق ، وقد اجترأت على الظهور ، ولم يختف ضوء النهار بعد ، فكأنها معتدة بنورها ، واثقة من أن نور الشمس الغائبة لن يطغى عليه ، أو كأنها تدرك أنها في مستهل الحياة ، وغيرها يغيب ويضمحل .. وأسندت السيدة الشابة ظهرها إلى الشجرة الضخمة القائمة أمام الدار ، وسبح بصرها في الحقول الخضر المترامية الأطراف ، وهب نسيم المساء البارد فلفح وجهها .

كان كل شيء كما عهدته ، من زقزقة عصفور إلى نقيق صرصور .. وقد عاد الفلاحون إلى دورهم يترنمون بأغانيهم المرحة .. لم يتغير شيء ألبتة مما تعوّدت رؤيته كلما وقفت وقفتها هذه .. حتى هذه النملة الضئيلة ما زالت تكرر محاولتها للصعود على جذع الشجرة الأملس .

كان كل شيء كما هو .. عدا قلبها ، فقد كان حزيناً ، كسيراً .. وكانت تتوجس فى نفسها خيفة وتتوقع شراً .. فللمرة الأولى منذ سبع سنين تقف وقفتها تحت الشجرة الضخمة وحيدة منفردة ، وقد تعوّدت من قبل أن يصاحبها زوجها المحبوب .

أما الآن فقد شعرت ، وكأن بينها وبينه مابين السماء والأرض ، وأحست كأن أمرهما معاً قد شارف النهاية ، وأن كل ما بينهما خلال تلك السنين السبع الطوال قد أصبح كأن لم يكن .

قلبت البصر قليلا فيما حولها بين هذه الأرض الخضراء الطيبة .. وتلك الدار الجميلة الهادئة ، التى نعمت بها حيناً من الدهر ، ثم سألت نفسها هامسة :

هل الزمان معيد فيك لذتنا
أم الليالى التى أمضته ترجعه ؟

وبسطت كفها أمام عينيها ، فإذا بها جافة خشنة .. ذهب برقتها العمل المضنى فى الدار ، وأضرّت بها الحياكة والطهو ، وتربية الصغار .. وبدأت تقارن بين هاته الكف ، وكف المرأة الأخرى الغضة البضة ، الجميلة الناعمة ، التى عادت إلى زوجها بعد سبع سنين طوال ، فاستطاعت أن تلتهمه بين فكيها ، وأن تخرجه من حظيرتها ، بنظرة من عينيها الساحرتين وإشارة من بنانها الحلو الجميل .

وعادت بها الذاكرة إلى عدة سنين خلت ، حين قال لها زوجها ذات مرة :

– لاشك أنها لو عادت إلىّ فى أية لحظة ، فسأعود معها .

واليوم ، بعد هذه السنين الطوال .. بعد أن ظنت أن المرأة الأخرى لن تعود أبداً .. إذا بها تهبط إليه لتنتزعه من داره الهادئة .. وزوجته الوفية وولديه الجميلين .. نعم سيعود معها وتحت إبطه لوحاته الزيتية الجميلة ، إلى الدنيا الصاخبة التى كان يعيش فيها قبل أن تتزوجه وتضمه إلى وكرها الهادىء .. نعم ، سيعود إلى الدنيا التى كان يجب أن يعيش فيها لو لم تعترض هى طريقه .. سيعود إلى دنيا الشهرة .. ودنيا المجد .

ورنت فى أذنيها ضحكة المرأة الأخرى ، وقد ذهب زوجها معها ليقودها ، ويوصلها إلى أول الطريق ، ثم سمعت أقدامه وهو يعود وحيداً ، واقترب الصوت منها رويداً رويداً .

وكانت حمرة الأفق قد بدأت تتحوّل إلى لون قاتم داكن .. والنجم اللامع الوحيد لم يعد بعد وحيداً ، فقد رصعت السماء بالكثير من أمثاله .

وأغمضت عينيها .. كانت تعلم أنه سيأتى إليها ، فقد تعوّد دائماً أن يفضى إليها بدخيلة نفسه فى هذا المكان .. وسمعت هذه الشجرة الكتوم كل أسرارها وأحاديثها فلابد أن يأتى الآن ليخبرها ما انتوى فعله ، وما أجمع عليه أمره .. وتساقطت عبرتان من بين أهدابها المغلقة وهمست لنفسها :

— إذا عاد إلى المرأة الأخرى ، فليس لى أن أشكو ، لقد أخذته منها من قبل ، فلها أن تسلبنى إياه .. وكفانى متعة تلك السنين الخوالى فلن يستطيع كائن ما أن يسلبنى متعة ذكرياتها .

* * *

ومرّ الماضى فى مخيلتها .. تتتابع صوره فى سرعة البرق ..

فى ذات يوم منذ سبع سنين كانت تجلس جلستها هذه تحت الشجرة المعهودة .. حين سمعت صوت عربة تقف فى الطريق أمام الدار الكبيرة المجاورة ، ثم نزل منها شاب غريب عن الناحية ، وتقدم إلى الباب .

وظنت الرجل يحتاج لبعض الماء لنفسه أو لعربته .. فهمّت بالتقدم من الفتى لتخبره أن الدار مهجورة لايقطنها سوى الحارس العجوز .. ولكن لشد ما أدهشها أن رأته قد دفع باب الحديقة بيده وتقدم فى ثقة كأنه صاحب الدار .. ثم نادى الحارس باسمه .. فتقدم منه العجوز ، وحيّاه بشوق ، وسأله فى لهفة :

– خيراً ياسيدى .. ترى ماذا جاء بك فى مثل هذا الوقت ؟ .. ماذا دفع بنا فى ذاكرتك بعد طول هجر ونسيان ؟ .. إنى لم أرك منذ كنت تصطاد على شاطىء الترعة «بالبنطلون القصير» !!

وقهقه الفتى :

– مازالت ذاكرتك قوية «ياعم محمد» إنى أنوى أن أقضى هنا بضعة أيام لأنى فى حاجة إلى الراحة وإن كنت أخشى أن يقتلنى الملل .

– لاتخف .. لدينا الكثير من وسائل محاربة الملل ، وخصوصاً إذا كانت المسألة بضعة أيام .. سأجهز لك «سنارة» لصيد السمك .. وبندقية لصيد الطيور ، ولدينا كذلك نوع آخر من الصيد .. أغلب ظنى أنه هو الذى سيبعد عن نفسك الملل .

ثم تقدم العجوز وهمس فى أذن الفتى بضع كلمات لم تستطع هى أن تميزها ، ولكن الفتى صاح مقهقهاً :

– يا لك من خبيث .. ألا تعلم أنني خاطب الآن ، وأنني على وشك الزواج .. إن هذا النوع من الصيد محرّم علىّ .

وسار الفتى متجهاً نحو الدار ، وكان بمشيته عرج خفيف ، فسأله العجوز :

– ولكن ماذا أصابك ياسيدى ؟ إنى أراك تعرج ! .. وأرى بيدك أثراً لجرح ! .

– حادث سيارة بسيط .. لا أرى أن تخبر به أحداً .. لقد أتيت إلى هنا لأنقه منه ، لأننى لا أود أن يعلم به إنسان .

واختفى الفتى داخل الدار .. وجلست هى تفكر فى أمره .. لاشك أنه ابن الرجل الثرىّ صاحب الدار ، وصاحب تلك الأملاك الواسعة .. وأغلب الظن أنه فتى مدلل عابث .. ولاشك أنه قد أصيب فى حادث عربة مع إحدى الفتيات العابثات ، وهو على وشك الزواج ، ولايرغب فى إثارة فضيحة حوله .. ولذا فقد حضر إلى هنا ليخفى آثار الحادث ، ثم يعود بعد ذلك إلى خطيبته .

هذا هو ما استطاعت أن تستنتجه من حديث الفتى .. على أية حال هو لايهمها فى قليل ولا كثير .. فهى تكره هذا النوع من الرجال .

كانت الفتاة تقيم وقتئذ مع أمها .. فقد توفى أبوها تاركا لهما بضعة أفدنة كان ريعها كافياً لأن يهيىء لهما حياة متوسطة هادئة .. فلم تحاولا أن تتركا الدار ، واستمرتا على الإقامة فيها دون تغير يذكر فى حياتهما .

وعادت الفتاة إلى دارها فقصت على أمها قصة الفتى وأنبأتها أنه

قد أضحى لهما جار جديد لبضعة أيام .. ولم يبد على المرأة شيء من الاغتباط بجارهما الجديد وقالت لها فى شبه تحذير :

– إياك وهذا النوع من الرجال .. فهو أنانى أحمق .. لا يأبه إلا لمتعته ، ولا يهمه إلا إرضاء نفسه .

وأحست الفتاة ببعض الخجل ، وندمت على إظهارها الاهتمام بمجيء الفتى وعزمت فى نفسها على أن تعتبره غير كائن .

وفي اليوم التالى صادفت جارها الجديد وجهاً لوجه فحياها فى أدب ورقة ، فردّت عليه باقتضاب .. ولكنه أقبل عليها يحدثها كأن بينهما وداً سابقاً وصداقة قديمة .

وكان الفتى حلو الحديث ، لطيف المعشر .. فلم يسعها إلا أن تنصت إليه .. ولم تجد هناك مبرراً لصده ما دام سيرحل بعد أيام معدودات .. وما دامت لاتحس له خطراً على نفسها فهى تعلم أنه على وشك الزواج .. وأن كل ما يطلبه هو أن يذهب عن نفسه الملل والسآمة .

ومرت الأيام فازدادت أواصر الصداقة بينهما ، وأصبح كل منهما ، يجد سروراً في لقاء الآخر ، ولم تعد الفتاة تحاول تجنبه أو الحذر منه وخاصة بعد أن التقت به أمها فلم تجد فيه ذلك الفتى العابث الذى كانت تخشى منه على ابنتها بل وجدت فيه فتى مهذبا رقيقاً قويم الخلق سليم القلب .

ولم يحس الفتى – كما كان يتخيل – بأى ملل يتطرّق إلى نفسه .. فقد سرّه كل شيء فى حياته الجديدة ، وأعجبه كل ما حوله : ذلك الهواء النقى وتلك الخضرة التى لايكاد يدرك البصر مداها ،

والحرية التى يتمتع بها وأخيراً هذه الفتاة الصديقة التى تبين فى نفسها رقة وعذوبة لم يتبينها فى كل من صادفهن من الفتيات .

وكانت الفتاة قد تعوّدت أن تجلس فى كل مساء تحت هذه الشجرة العجوز .. وفى جلستها هذه كانت تحس أن هموم يومها قد بدأت تتطاير وتتلاشى كما يتلاشى الدخان فى أجواز الفضاء .

ففى ذات مساء .. بينما كان الفتى عائداً من جولة فى الحقول اقترب من الشجرة فإذا به يحس بشبح يقف أمامه فجأة ، وعندما تبين من خلال الظلمة أنها الفتاة .. صاح ضاحكا :

– لشد ما أفزعتنى .. لقد ظننتك والله جنياً قد خرج من جوف الأرض ، فلقد خيل إلىّ أنك قطعة من الشجرة .

وابتسمت الفتاة وقالت :

– ومن قال لك إنى لست قطعة منها .. لقد تعوّدتها ، وتعوّدتنى ، حتى أصبحت لا أكاد أحس بالهدوء والطمأنينة إلا فى جوارها .

– إذن لشد ما يؤسفنى أنى أزعجتك فى وحدتك ، وأنى قد أفسدت عليك هدوءك وطمأنينتك .

– الأمر لايستحق الاعتذار .. فلا أنا بأنانية ولا الشجرة ببخيلة ، وكلانا يسمح للغير بمشاركتنا فى أحلامنا الهادئة إن كانت تمتعه الأحلام .

وضحك الفتى ثم جلس بجوار الفتاة .

وقالت الفتاة إن أباها قبل أن تفقده قد اخبرها أن الحياة ليس فيها مايستحق أن يحزن المرء من أجله ، وأن عليها كل يوم قبل أن تنام أن

تحضر إلى هذه الشجرة الحنون وتدفن همومها في جوفها .. وبعد أن تناجي النجوم تذهب إلى فراشها قريرة العين ناعمة البال .

ولم تكن الفتاة تعرف أنه يجيد الرسم بمثل هذه المهارة إلا عندما رأته ذات يوم وقد أتم رسم الشجرة العجوز .. فما كادت تنظر إلى الصورة حتى شعرت أنه لابد أن تكون أكثر من صورة فقد كان الناظر إليها يكاد يحس ضخامتها ويسمع حفيف أوراقها ، ولم تتمالك الفتاة أن صاحت :

– بديعة !

وضحك الفتى.. ثم قال :

– ليتك تخبرين أبى بهذا .

وتعجبت الفتاة :

– أباك ! هل ينكر عليك فنك ! ؟

– إن حياتي أمامه مزدوجة .. فالدكتور جيكل يقوم أمامه بدراسة القانون حيث يرغب هو فى أن أكون خليفته فى المحاماة ، والمستر هايد غارق من خلفه فى لوحاته الزيتية وفى دراسة الرسم .

وصمت لحظة .. ثم قال فى حنق :

- لا أدرى لِمَ كل هذا الإصرار من جانبه ؟ لعن الله القانون ودراسته .. هو سبب شقائى فى هذه الحياة .. ولولا تهديد أبى إياى عندما رسبت فى الامتحان السابق ، لما شربت حتى ثملت ، ولما حدثت لى هذه الحادثة التى كادت تودى بحياتى .. على أن كل هذا لايهمنى .. فسأعود بعد أسبوعين أو ثلاثة وسأقذف فى وجهه بكتب القوانين وأخبره أنى لن أفعل شيئاً سوى الرسم وليفعل بعد ذلك مايشاء .

ومد يده فى جيبه ثم أخرج حافظته .. وأظهر منها صورة فتاة ساحرة شقراء ثم قال :

– هذه خطيبتى .. ما رأيك فيها ؟

– آية فى الجمال .

– ماذا تقولين إذاً لو أبصرت بالمخلوقة ذاتها ، لأدرى أثر غيابى عنها بهذه الكيفية .. لقد أرسلت لها خطاباً أخبرها بما حدث ، ولكنها لم ترد علىّ كعادتها دائماً .. فهى أبداً فى رضا وغضب .. على أية حال ! لن يأخذ الأمر منى أكثر من قبلة تعيد إليها الرضا مرة أخرى .

★ ★ ★

وفى ذات يوم افتقدته فلم تجده ، ودخلت عليه حجرته فإذا به قد دفن رأسه بين كفيه ، وقد أطرق فى حزن مخيف .. وعجبت له وهو الطروب الذى لاينقطع صفيره إلا لضحك أو غناء .. وهزت كتفه متسائلة عما أحزنه .. فرفع رأسه صامتاً وقال :

– لاشىء .

– لايمكن .. لابد أن هناك شيئاً خطيراً .

وقبل أن يجيبها وقع بصرها على إحدى المجلات الموضوعة أمامه وقد نشرت بها صورة خطيبته بمناسبة عقد زواجها على رجل ثرى شهير وسألته فى حزن :

– هل تحبها كثيراً ؟

– فوق مايتصوّره عقل بشرى .. لقد لفظتنى لفظ النواة ، ومع ذلك لو عادت إلىّ مرة أخرى فلن أحجم لحظة عن الذهاب معها .

وفى ذات صباح .. دخلت الفتاة على أمها لترتيب حجرتها فإذا بها مازالت نائمة ، وهى التى لم تتعوّد قط أن تتأخر فى النوم إلى مثل هذا الوقت .. ولم يكن هذا شذوذاً من الأم لأنها لم تتعوّد الشذوذ .. وكل مافى الأمر أنها قد عجزت عن الاستيقاظ .. فقد فارقت الحياة .

وفى اليوم التالى عندما جلست الفتاة حزينة تحت الشجرة ، حضر إليها الفتى وجلس بجوارها فى صمت ووجوم .

وكانت تحس بالرهبة تملأ نفسها إذ لم تكن تتصور كيف تعيش وحيدة فى هذه الدنيا الموحشة وكانت تود لو أطال الفتى بقاءه .. فقد كانت تشعر فى جواره كثيراً من الهدوء والاطمئنان . ولكنها كانت تعلم أن رحيله قد بات قريباً .

ولم يكن لها أن تطلب منه البقاء ، فمثله لم يتعوّد هذه الحياة الهادئة المملة ، ومهما أعجبته الحياة هنا .. فلن يكون ذلك إلا لمدة قصيرة ، يعود بعدها إلى حياته الصاخبة .

وتحدث الفتى فى صوت يملؤه الحنان :

— الواقع أنى لاأتصور كيف يمكننى أن أغادر هذا المكان الذى ملأ كل قلبى .. لقد استطعت فى هذه المدة القصيرة أن تملئى فراغاً كبيراً فى نفسى ، وإنى لأحس من فرط ما تعوّدت رؤيتك كأننا قد ولدنا معاً .. إنى أشعر بضرورتك لى ، ولا أكاد أشك لحظة أن مغادرتى هذه الدار ستفجعنى كل الفجيعة .

وكانت صامتة لاتتحدث .. ولكن صمتها كان بليغاً ..

وأردف هو :

– إني سأوجز القول وأكون فيه صريحاً كل الصراحة ، فذلك خير لنا وأبقى ، لن يمكنني أن أغادرك الآن . لقد حدثتك عن فتاتى الأخرى ، والواقع أنى لن يمكننى أن أعطيك ما أعطيها .. ولكن إذا قَبِلْتنى زوجاً ، فسأجتهد أن أكون زوجاً صالحاً .

وشعرت الفتاة أن هذا غاية ماتتمناه ، فأطرقت ثم همست :

– وسأكون أنا الأخرى كذلك .

★ ★ ★

ومرت الأيام سراعاً .. وأنجبا طفلين ، وتعوَّد هو حياة الريف ، وكان يقضى فراغه فى الرسم ، فأنتج بذلك عدة لوحات .. منها بضع صور لفتاته القديمة وصورة عجيبة لزوجته بجوار الشجرة .

وكانت حياتهما هادئة سعيدة .. حتى كان ذلك اليوم الذى فؤجئت فيه بسيارة تقف فى الطريق وتنزل منها سيدة ، استطاعت أن تميز لأول وهلة أنها خطيبة زوجها التى صرفت عنه ، وتبعها صديقان لها : رجل وامرأته .

وشعرت بقلبها يعتصر فى جوفها .. وأمضوا عندهم اليوم ، وكان زوجها شديد الغبطة والمرح كأنه قد عاد عشرات السنين إلى الوراء .

وكانت قصة مجيئها فى هذا اليوم .. هى أنها قد طلقت من زوجها ، وأنها كانت فى نزهة إلى الريف مع صديقتها وزوجها الذى أقام معرضاً للرسم فى القاهرة ، وأنهم قد مرّوا على هذا المكان فأخبرت صاحبيها أن لها صديقاً قديماً ماهراً فى الرسم ودعتهما إلى زيارته لأنه على ماتذكر قد تزوج فى هذه البلدة .

وفي نهاية اليوم شعرت صاحبتنا أن النهاية قد حلت ، فقد كان زوجها متلهفاً إلى صاحبته القديمة ، وكانت فتاته قد أصبحت خالية . وقد شاهدوا لوحاته ودعوه لعرضها بالمعرض الذى أقامه الرجل ، فقبل ، ووعدهم باللحاق بهم .

وشعرت الزوجة أن الفتاة تحتقرها .. وأحست بالحزن يفيض فى جوانحها ، وبالهموم تملأ نفسها .. فتركت الجميع ، وتسللت إلى حيث عوّدها أبوها أن تدفن همومها تحت الشجرة الحنون .

* * *

وبعد أن ودّع زوجها المرأة الأخرى وصديقيها .. سمعت وقع أقدامه تقترب منها ، فأغمضت عينيها ، وشعرت بالأقدام تقترب رويداً رويداً ، وأعدت نفسها لاحتمال ما تنتظر من حديث قد يعصف بحياتها فتذهب مع الريح .. وسمعت صوت زوجها ، وشعرت بيده تربت على كتفيها ، ففتحت عينيها ، ورأت زوجها وقد انبسطت أساريره ، وتهلل وجهه ، وقد أمسك بيده بعض زهرات مما كانت المرأة الأخرى قد وضعتها فى صدرها .

وجلس جانباً كما تعوّد أن يجلس ثم قال :

– ما رأيك فيها ؟

– جميلة ولاشك ..

– إنها لم تتغير بتاتاً .. هذا السحر فى عينيها لم يبطل بعد .. سأذهب معهم غداً لعرض لوحاتى هناك .. فقد وعدتهم بذلك .

وصمتت الزوجة .. ثم ألقت سؤالها فى خفوت وصمت :

– وهل ستعود ؟

وضحك الرجل ، ثم لف ذراعه حولها ، ودفع إليها الزهور التى كانت فى صدر المرأة الأخرى وقال :

– هذه الزهور يعشقها المرء لجمالها ورونقها ، ولكنها عندما تذبل يتحول عنها القلب سريعاً .

ثم رفع بصره إلى الشجرة الضخمة وأردف :

– ولكن هذه الشجرة التى لن تخذل المرء على مر الأيام ، ولن يدب فيها الذبول على مر السنين ، أبقى فى النفس وأكثر استقراراً . وكذلك أنت والمرأة الأخرى .. أنت أشبه بشجرتك ، وهى أشبه بزهورها .. لقد ظلت عالقة بنفسى هذه السنين السبع الطوال ، ولكن عندما عادت وجدت أن حبها لايعدو أن يكون وهماً من الأوهام .. وتطاير من نفسى كالهشيم تذروه الرياح .

★ ★ ★

الأماني الفانية

علّلاني فإن بيض الأماني فنيت والظلام ليس بفان

فنيت بيض الأماني .. وقد كانت زاده في سود الليالي ، ومتعته في الحياة وسلواه .. وكانت ملجأه عندما يحرم الملجأ ، وملاذه عندما يفتقد الملاذ .

أمانيه الحلوة قد ذهبت هباء .. وكيف تذهب أو تفنى وهو صانعها ومبدعها من نسج تفكيره وخيوط أوهامه .

كان الفتى شاعري النفس ، مرهف الحس .. وكان يعشق في الحياة كل مايثير كامن الشعور ويوقظ هاجع الإحساس .. وكان فناناً بطبيعته ، وإن لم يبد للناس أنه فنان ، إذ لم تكن نفسه موجهة إلى نوع معين من الفن ، فلم يكن رساماً ماهراً ، أو أديباً عبقرياً ، أو شاعراً ملهماً .. ولكنه كان يعشق كل تلك الفنون ، ويجيدها بعض الإجادة .. ولو تفرغ لواحد منها لوصل فيه إلى الإتقان .. ولكنه هو نفسه لم يكن يحس أن لديه القدرة على التفرغ لأحدها ، إما لأنه كان يحبها جميعاً

بقدر واحد ، وإما لأنه كان يعتقد أن قدرته فى أى منها محدودة فلا يمكن أن تصل إجادته لها مهما حاول التفرغ إلى أكثر مما وصلت إليه ، لأن هذه المقدرة قد وزعت فيما بينها جميعاً .

كان يسمع الغناء الجيد فيحس أنه قد حمله إلى عالم جميل ناء ، ويطرب منه إلى حد البكاء .. وكانت له قدرة على محاكاته ، وكان يجد متعة فى ذلك .. فلا يكاد يكف عن «الدندنة» والغناء حتى فى أشد أوقاته ضيقاً وحرجاً .

وكان يرى الرسم الجميل فيبعث فى رأسه نشوة ويملؤه طرباً .. وعندما كان يرسم يبشر عمله بالنجاح لو أكب عليه ، ولكنه لم يعرف الإكباب إذ كان سريع الملل .

وكان يقرأ الشعر والأدب ، فيلذ له الطيب منهما كما يلذ للنهم الأكول أطيب الطعام ، وكما تلذ الراح لمدمن الخمر ، وحاولهما كثيراً فلم يخفق فيهما .

كل ذلك اجتمع الفتى فجعل منه كتلة من شعور رقيق وإحساس فياض ، وكان الأمر الطبيعى الذى يحتمه كل ما ملأ نفسه من شعور وإحساس وحب للفن .. هو أن يصبح الفتى عاشقاً مستهاماً وصباً مولعاً .

وهذا هو بالفعل ما صار إليه أمر الفتى بعد .

كان الفتى يعتبر الحب فناً جميلا كالشعر والرسم والغناء .. وكما أنه كان يجد فى نفسه القدرة على الاستمتاع بلذة الغناء من عشرات المطربين .. مادام الغناء جيداً . فكذلك كان يجد فى نفسه القدرة على الاستمتاع بحب عشرات الفتيات ، مادام نوعهن كذلك جيداً .

وعندما التقى بها أول مرة .. كان بقلبه بضع حسناوات من اللاتى يستطيع حشرهن فيه مهما ازداد عددهن .. ونظر إليها لأول وهلة ، فوجدها على حد قوله «مش بطالة» فأفسح لها ركناً من قلبه لتقبع فيه بجوار زميلاتها من المعشوقات .

ولكن الفتى كان خاطئاً فى ظنه .. إذ لم تكن الفتاة من نوع يقنع بركن من القلب ، بل كانت أشبه بالدول المستعمرة الكبرى التى تحاول التوسع والتمدد حتى يضيق بها العالم على سعته .. وكذلك استمر مكان الفتاة يتسع فى قلب الفتى .. وفى كل لقاء كانت تطرد منه إحدى ساكناته حتى انتهى الأمر بالفتى إلى أن وجد قلبه قد خلا إلا منها إذ ملأته واستحكمت فى جوانبه .

وجد فى الفتاة أنشودته العذبة ولحنه الجميل .. ورأى أن غيرها قد بدا بجوارها نشازاً لايطربه ولايشجيه .

وكانت أحب الأوقات إليه تلك التى كان يخلو فيها إلى نفسه بعد العشاء ، فيضطجع فى إحدى الشرفات ويمدد ساقيه ويسبح ببصره نحو السماء .

كان الفتى يحس فى ذلك الوقت أنه ليس من أهل الأرض .. إذ يحمله خياله الشاعرى الرقيق ، ويطوف به محلقاً فى سماء المتعة والنعيم .

إنه يجد فى ساكنة قلبه الجديدة نوعاً لم يألفه من قبل .. فقد كانت ساكنة مجهدة مضنية .. فى أمورها عجب .. وفى تصرفاتها معه غرابة وشذوذ .. كان الفتى قد تعوّد أن يرى فيمن استطعن التسرب إلى قلبه نوعين : نوعاً يعرض ، ونوعاً يقبل .. نوعاً يمنح ، ونوعاً يمنع .. نوعاً يبعث الأمل فى النفس .. ونوعاً يحرقها باليأس .. وكان ينتهى به

الأمر إلى أن يعمل تصفية لما فى قلبه .. فيطرد منه-أولئك المتعبات مكتفياً باللاتى منحنه من قلوبهن الخصبة ما أمسك رمقه ، وروى ظمأه .

أما هذه الساكنة الجديدة التى لم تقبل الاستقرار فى قلبه إلا بعد أن أجلت عنه جميع ساكناته جلاء تاماً .. فقد كانت من نوع استعصى عليه فهمه ، وعسر عليه إدراكه .

كانت الفتاة لاتمنح ولاتمنع ، ولاتعرض ولاتقبل .. كانت تملأ النفس بالأمل ، وتحرقها باليأس .. كانت فى كل أحوالها غير مفهومة .. كانت ترق له بلا سبب ، وتتجهم بلا سبب .. تدنيه مرة وتقصيه مرات .. وكاد اليأس يتملكه فهم بطردها من قلبه شر طردة .. إذ لم يكن من النوع الذى يبكى على غرام .. وكان غرضه الأول من الحب هو إسعاد نفسه فإذا ماأوشك الحب أن يشقيها قتله فى مهده ، ولفظه لفظ النواة .

همّ الفتى أن يقصيها عن نفسه فيتجاهلها كما تتجاهله ، وينكرها كما كانت تنكره ، ولكنها — لشدة دهشته — أبت عليه ذلك .. فقد جلس إليها مرّة فإذا بها تقبل عليه ، وإذا به يكتشف فى نفسها رقة وعذوبة جعلته ينسى كل ما كان من إنكارها له . فأقبل عليها بنهم وشغف ، وانسجما فى الحديث ، فتحدثت إليه كأن بينهما قديم صحبة .. ووجد الفتى نفسه يندفع فيقص عليها مبلغ إعجابه بها ولهفته عليها ، ولم تنكر الفتاة منه ذلك الحديث ولم تنهه عنه ، بل كان يبدو عليها الرضا والقبول ، وكان أكثر مايثمله منها ابتسامة عذبة يرى هو فيها ألف معنى .. ابتسامة تعلو شفتيها الرقيقتين كلما التقت نظراتهما ، ولعلها كانت تطفىء بالابتسامة ماتشعله فى قلبه بنظراتها المحرقة .

وحدثته عن نفسها فأدهشه أن يعلم منها أنها تعالج من مرض أوشكت أن تبلّ منه .. فقد كان لايبدو عليها أى أثر لمرض ، اللهم إلا تلك اللمحة البسيطة من الحزن التى تبدو فى أفق نفسها ، وذلك الأثر الخافت من الضعف الذى يلمحه فى عينيها ، والذى لايستطيع المرء أن يميزه إلا عن قرب ، وبعد طول تحقيق .

وافترقا والفتى يحس للفتاة بنوع من الحب لم يعهده فى نفسه .. حب أسمى بكثير من ذلك الحب الذى يباشره على سبيل التسلية ، مجرد من كثير من الأنانية التى كان يتسم بها الحب الذى تعوّده ، فكان يحس أنه فى حالته الجديدة يود أن يعطى أكثر مما يأخذ ، وهو الذى كان يأخذ ولايعطى .. وكان شعوره نحو الفتاة مليئاً بالرغبة فى إسعادها ، وفى إزالة تلك اللمحة الحزينة من نفسها .. كان يتمنى أن تكون لديه القدرة على تهيئة أسباب الهناءة لها ، وإبعاد السوء عنها .

ولكن الفتاة العجيبة أبت أن تهيىء له فرصة إسعادها ، فقد صدته فى المرة التالية فى غير رفق ، وتناست ما كان من أمره وأمرها ، فكأنها ما حدثته ، وما ابتسمت له تلك الابتسامة التى حوت معنى وألف معنى .

ما أغباه ، وأضيق عقله ! لقد كان حسن الظن بالفتاة فخدعته بسراب حديثها ، لقد أخطأ حين وهبها من قلبه ماوهب ، فهى لاتستحق إلا الإهمال والنسيان .

والتقى بها مرة أخرى !!

هذه الفتاة لابد أن يكون بعقلها شىء ؟ خبل .. جنون .. يدرى فقد يكون ذلك هو المرض الذى تعالج منه وتدعى أنها برئت ..

لقد أقبلت عليه فى هذه المرة إقبالا لم يخطر له على بال ، وأدنته من نفسها وقلبها بقدر ما أقصته فى المرة السابقة .. لقد ملأته بالأمل العذب ، ووجد نفسه قد جلس أمامها وهو يود لو يغرق يديها وقدميها بقبلاته .. إذ لم يكن يرجو منها أكثر من ذلك .

والتقيا بعد ذلك كثيراً .. فكانت الفتاة غامضة كل الغموض ، مبهمة كلّ الإبهام .

تحبه ! .. أو لاتحبه ؟ .. هذا هو السؤال الذى استعصى عليه أمره ، وأعيته إجابته .

وبدأ الفتى يتخبط فى ظلمة الشك والحيرة ، ويحس بالضيق والشقاء ، وبدأت خلوته إلى نفسه بعد العشاء تصبح ضرورة من ضرورات حياته وأصبحت ملجأ يلجأ إليه ليفرغ من هم نفسه ، ويستعيض عنه بسعادة من صنعه ، ونعيم من نسجه .

واكتفى من الفتاة بالنظر .. أما الباقى فكان يناله فى أحلامه وأمانيه عندما يضطجع فى الشرفة كعادته كل مساء ، ويسبح ببصره وذهنه فى أعماق السماء ، ثم يذكر الفتاة بقوامها الفارع الممشوق ، وبشرتها الصافية النقية ، وشفتيها الرقيقتين الممتلئتين عذوبة وحلاوة ، وابتساماتها .. ذات المعانى ، وبعينيها اللتين يلمح فيهما بعض الألم وبعض الضعف .

وينساق الفتى مع أحلامه وأمانيه ، فيمنح نفسه من الفتاة ما قد حرم ، ويعطيها من متع الخيال ما قد منع ، فيبصرها بعين الوهم أقبلت عليه وقد شع من وجهها ذلك السحر الهادىء الذى يشمله وينشيه .. وبدت بذلك «التيربون» الأبيض وقد عقصت به شعرها ، كأنها أميرة

شرقية من أميرات ألف ليلة تحيط بها هالة من الفتنة العجيبة .. وبدا جسدها بديع الصنع كأنه من فرط استوائه وتناسقه قد ركب فيه مغناطيس يجذب إليه الأبصار فهى لاتتحول عنه ولاتحيد .

ويرى الفتى نفسه وقد أقبل عليها فى لهفة وشوق .. ولكنها تنظر إليه نظرة عابرة ، وتكتفى بإيماءة خفيفة من رأسها ونصف ابتسامة .. فقد كانت ضنينة عليه حتى بالسلام والابتسام .. ثم تأخذ مكانها وحيدة فى ركن هادىء وتتصفح كتاباً فى يدها .

ويراها الفتى وحيدة فيتجرأ على الذهاب إليها ويستأذنها فى أن يجلس معها قليلا .. وقبل أن تأذن له يكون قد جلس ، ويطلب منها أن تغلق الكتاب لأنه يود أن يسرّ إليها شيئاً فى نفسه .. فتغلق الكتاب وتنصت إليه .. ويقترب منها بعد أن يزيح معطفها الأحمر الذى وضعته بجوارها .. ثم يهمس إليها أنه يود أن تسمح له بأكثر من تلك النظرات العابرة ، لأنه يحس أن له حقاً عليها ، بل أكثر من ذلك يحس أنها شىء يخصه وحده دون غيره من الناس ، أن الله لم يخلقها فى الحياة إلا لتمنح حبها نفسه لأنه يبصر فيها من الجمال مالا يستطيع سواه أن يبصره ، حتى هى نفسها .. ولأن صورتها المطبوعة فى نفسه والمعكوسة على فؤاده أروع من أن يستطيع كائن فى هذه الحياة أن يتخيلها مهما بلغ به التصور .. فحرام عليها أن تترك عمرها وعمره يذهبان سدى .. وحرام عليها أن تضيع لحظة واحدة فى غير وصال ولقاء .. وحرام عليها أن تمنع عابداً من أداء فريضته نحو معبوده .

ويبدو فى عينى الفتاة نظرة استسلام ، وتمد يدها فتضغط على يده فى رفق .. وينظر الفتى حوله فإذا بالمكان قد خلا إلا منهما ، وإذا بعينيها تخاطبان عينيه تقولان : «هنا لاتقع العين على غيرى وغيرك» .

ويمسك الفتى يدها بين يديه ، ثم يرفعها إلى شفتيه ليمسها مساً رقيقاً .. وتقترب الفتاة منه لتسند رأسها إلى صدره .. ويمد أصابعه فيتحسس وجهها برفق كأن أعمى يتحسس وجه عزيز لديه .. ثم ترفع الفتاة وجهها إليه ، فيحس عبير أنفاسها الحارة يلفح وجهه .. ويبصر شفتيها جمرتين ملتهبتين فيطبق عليهما بعنف كأنه يخشى أن تفلتا .. ثم يحس بيدها تحيط عنقه لتزيده ضمّاً إليها .. ثم يروح فى نشوة عجيبة .

هذه بيض الأمانى تُفْنِي الظلام ولاتَفْنى ، فقد يغمض الفتى عينيه على هذه الصورة الساحرة ويروح منها فى سبات عميق ، حتى يوقظه واحد من أهل الدار ليدخل من الشرفة فيستلقى فى مضجعه حتى الصباح .

وكانت للفتاة غيبات طويلة تختفى فيها عن بصره ، ويتفقدها هنا وهناك فلا يلقاها ، ثم تبدو له فجأة فيقبل عليها متلهفاً ويسألها عن سبب غيبتها فتخبره أنها كانت مريضة ، فيشعر بالأسى يتملكه لأنه لايملك زيارتها أو مواساتها فى مرضها وهو الذى لو خيرّ لافتداها بنفسه وروحه .

واختفت الفتاة ذات مرة كعادتها ولكن الغيبة هذه المرة طالت .. وأصاب الفتى ضيق وقلق ، وحاول السؤال عنها فلم يفز بطائل .. وفى ذات يوم كان يجلس حيث تعوّد أن يراها ، فوصل إلى سمعه حديث بين اثنين جلسا بجواره ، قال أحدهما للآخر :

– أتذكر تلك الفتاة اللطيفة التى كانت تضع على رأسها «تيربون» أو «أشارب» .. تلك الفتاة ذات المعطف الأحمر .. أتصدق أنها ماتت ؟

— أحقاً ؟ .. مسكينة .

واستقرت لفظة «مسكينة» فى أذن الفتى كأنها دوى قنبلة انفجرت فى رأسه . ترى أحقاً ما قاله الشقى ؟؟ أيمكن أن يكون حديثه صادقاً ؟ أيمكن أن تكون فتاته هى التى يتحدثان عنها ؟ الفتاة ذات التيربون والمعطف الأحمر ؟

وقفز من مكانه فقبض على ذراع الرجل بشدة وسأله كأن به مساً من جنون .. وتعجب الرجل ودهش من حمق الفتى ، ولكنه أكد له ببساطة أن ما قال هو عين الصدق .

★ ★ ★

ودهش أهل الفتاة من ذلك الفتى الواجم الحزين ، الشارد اللب ، التائه الفكر ، الذى انتحى ناحية من المقبرة وانهمك فى بكاء صامت . بكاء يكاد يفنى فيه نفسه .. ولكن واحدة فقط لم يدهشها الفتى ، إذ كانت تعرفه تمام المعرفة كأنها أبصرته مائة مرة ، تلك هى العجوز «مربية» الفتاة الراحلة وموضع سرها . وكانت العجوز تعلم كل شىء عن الفتى ، إذ لم يكن أحب إلى الفتاة من أن تقضى الساعات الطوال فى التحدث إليها عنه وعن حبها له .

وأحس الفتى بيد رقيقة تربت على ظهره ، والتفت فإذا بالعجوز تهتف باسمه ، ودهش الفتى ، ولكن العجوز أسرت له هامسة والدموع تتدفق من عينيها كأنها صنبور ماء .

— أعرفك تمام المعرفة .. لم يكن يسعدها شىء قدر أن تتحدث عنك ، كانت تخبرنى أن أكثر ما يؤلمها أنها كانت تجبر نفسها على صدك والإعراض عنك . كانت تحس أن الخير هو فيما تفعل .. كانت

تعرف أنها مريضة ، وكانت تكره أن نراك مندفعاً وراء سراب خلاب أو أمل ذاو ، لقد كانت تقول لي إنها لاتتمنى شيئاً مثل رؤيتك ، والجلوس إلى جوارك وسماع حديثك ، كانت تحب منك ألفاظ الرقة والعطف ، وتحس بحبك الفياض يغمرها .. كانت موقنة أن فسحتها قصيرة الأجل . فوجدت من الخير أن تزهدك في نفسها وتصدك حتى لاتتعلق بها فتترك في نفسك بعد ذلك فراغاً يوجعك .. ولكنها عندما أشرفت على النهاية أحست بالندم وتمنت لو أنها لم تصدك فاستمتعت بذلك الجزء القصير من حياتها قدر ما استطاعت .. كم تمنت أن تراك .. مسكينة .

★ ★ ★

وعندما حلّ المساء ، وسقط الظلام ، خرج الفتى إلى شرفته فاضطجع في سكون وصمت ، وكان يحس بكل ما حوله كأنه غريب عنه ، بل أحس بأنه هو نفسه لم يكن هو من فرط ما كان يصطخب في فؤاده من أحزان وأشجان .

وكان الفتى يستعين على الشقاء فيما مضى بأمانيه البيض التي كانت تسلب المر مرارته ، والسيء سوءته وألمه ، وتضيف إلى اللذيذ الممتع متعة فوق متعته .

ولكن أمانيه في تلك الليلة قد فنيت .. نضب معينها وجف نبعها ، فأصابها الفناء كما أصاب صاحبته ، وأحس بحلكة الليل تشتد ، وأرق ليلته فلم يغمض له جفن ، وطال به الظلام ، وقد كان لايحس به في سابق لياليه .. وذكر بيت أبي العلاء .. ولم يدر أيهما الذي قاله ، أهو أم أبو العلاء :

علِّلاني فإن بيض الأماني   فنيت والظلام ليس بفان

حلم ليلة

الليل ليل قر .. والريح ريح صر .. وقد جلس ثلاثتنا داخل الحجرة .. لانكاد نشعر بغضب الطبيعة وثورتها ، إلا بقدر ما نسمعه من صفيرها وزئيرها من خلال زجاج النافذة المحكم الإغلاق .. فلا يكاد يصل إلى آذاننا من ذلك الصفير والزئير ، إلا همسات خافتة ، وأنات كأناة الثكلى .

وقادنا الحديث إلى ذكر الجنون والمجانين .. وأخذ كل منا يقص مايعرفه من طرائف مسلية عن بعض المجانين وأسباب جنونهم ، وصمت أحدنا عن الحديث وحدق ببصره فى النيران المتراقصة ، وبدا عليه الوجوم ، كأن ذكرى أليمة قد أخذت عليه تفكيره .. وخيل إلىّ أن حديثنا عن الجنون قد أثار كامن شجونه .. فجذبته من يده وقلت مداعباً :

– لعلك قد أصبت بالجنون فى يوم من أيام ماضيك المظلم ؟ ولكن خفف قليلا من حزنك ، فمن منا لم يصب بالجنون ؟

وكل الناس مجنون ولكن
على قدر الهوى اختلف الجنون

فرفع رأسه وقال فى حزن :

– نعم .. على قدر الهوى اختلف الجنون .. وإنى لأذكر الآن قصة رجل ، جن من حلم رآه ذات ليلة .

وصحنا فى دهشة :

– حلم ؟ ..

– نعم .. حلم .. وإليكم القصة :

كنت أعرفه منذ كان صبياً ، وكنت أعرف فيه خفة الروح والمرح الدائم ، والاستهتار بالحياة ، وعدم الاكتراث بشىء .

ودارت الأيام فخلقت من صاحبى رجلا ، ولكنها لم تستطع أن تسلبه مرحه واحتفاله بالمجون واللهو والدعة .

وكانت له ابنة عم نشأت معه فى داره ، وكانت تتمتع بكل ما يحبب فيها صاحبنا من قلب جميل ووجه أجمل ، ولم يكن هناك من يشك فى أن الفتى والفتاة سترابطهما الأيام برباط الحياة .

وكانت الفتاة من جانبها قد شغفت به حباً .. وجعلت منه أملها فى الحياة ، ولم تكن تهتم كثيراً أن يعلم الناس عنها أنها تحبه .. وما دامت ستتزوجه فعلا ، فأى ضير عليها من هذا الحب .

ولكن صاحبنا كان مركز الخطأ ، ومحور الشذوذ ، فقد كان بعيداً كل البعد عن التفكير فى الزواج ، وعندما كان يمزح معه أبوه قائلا : «إن الزواج هو الخطأ الذى لابد منه» كان يجيبه الفتى ضاحكا : «بل هو الخطأ الذى لابد من الحذر منه» .

وكانت طبيعته اللاهية تجعله أقرب لحياة العبث واللهو منه لحياة الاستقرار والهدوء .

وفوق ذلك كله ، فإن شعوره نحو الفتاة لم يكن ليتعدى ذلك الشعور الذي يحس به نحو أختيه وأمه ، ولم يكن يتصور قط أنها قادرة على أن تملأ ذلك الفراغ من نفسه الذى تملأه صاحباته العابثات اللاهيات ولا بمستطيعة أن تبعث فى رأسه تلك النشوة التي يبعثها فى رأسه والحرارة التى يملأن بها جسده .

وكان من مبدأ الأمر يأخذ أحاديث من بالدار عن زواجه بها ، على أنها أحاديث لاتعدو الهزل والتفكه .. ولكنه عندما بدأ يدخل دور الرجال ووجد أن الأمر قد بدأ يتخذ صبغته الجدية ، لم يجد بداً من أن يوقف الأمر عند حده .

ففى ذات يوم انفرد بأبيه ، وأطلعه على دخيلة نفسه ، وأفهمه أنه لن يتزوج أبداً ، فلا داعى لأن تتعلق الفتاة بوهم من الأوهام .

وعلمت الفتاة بالحديث ، فصدمت به .. وتحطمت أمانيها وآمالها العذبة على صخرته .

وحاولت أمه أن تخفف من لوعتها ، فكانت تكثر من السب فيه أمامها ، وتكثر من ذكر عيوبه ونقائصه كى يتحوّل عنه قلبها ، ويذهب حبها له :

وخطبت الفتاة بعد ذلك لقريب آخر ، وبدت كأن الأيام أعادت السكينة إلى قلبها ، وأنها بدأت تتسلى عن صاحبها القديم بخطيبها الجديد ،

وفى ذات يوم شعرت الفتاة بتوعك خفيف ، ازداد على الأيام ثقلا ، ثم تطور فأصبح داء عضالا .

وهزل القدر .. فيما هزل .. فخطف الفتاة ، وترك النفوس بعدها مشدوهة حيرى .

وكانت صدمة لصاحبنا .. ولكن خفف من هول الصدمة ، تأكده فيما بينه وبين نفسه ، أنه لم يغرر بالفتاة قط ولم يخدعها ، وأنه لم يذكر لها مرة كلمة غرام ، أو لفظة حب ، وأن ضحكه معها ومرحه لم يزد عن ذلك الذى كان يفعله مع أختيه .. وأنه على النقيض قد صارحها بالحق ، فى الوقت الذى عزّ فيه الحق ، وسادت الخدع والأباطيل .

* * *

ومرّت الأيام .. وفى ذات صباح طرق بابى طارق مبكر ، فظننته بائع الجرائد ، ولكننى سمعت من خلف الباب صوتاً أجش يصيح :

— افتح .

وميزت فيه صوت صاحبى ، فأسرعت إلى الباب وأدخلته .

وكان شاحب الوجه ، فى عينيه احمرار السهاد ، وانزعجت من مرآه .

فبادرته بالسؤال :

— خيراً ؟!

فأجابنى فى صوت مضطرب :

— هل تعرف من تستطيع أن تركن إليه فى تفسير الأحلام ؟ .

وكدت أذهل وظننت أن صديقي قد أصابته لوثة فرددت قوله :

– تفسير الأحلام ؟ وما الداعى إلى هذه اللهفة ، وديك الصباح لم يؤذن بعد ، والناس ما زالوا فى عقر دورهم ؟ .. وأى حلم هذا الذى أقض مضجعك ، وطير نفسك شعاعاً ، وملأ روحك هلعاً ؟

وارتمى صاحبى على مقعد قريب ، وبدأ يتكلم :

– هذا الحلم لايمكن أن يعنى شيئاً ، لابد أن يكون وهماً من الأوهام أو أضغاث أحلام .. هل تظن أن الأحلام كلها عبث فى عبث ؟

– خفف من حدتك ، وهدىء من روعك ، وأخبرنى بذلك الحلم .

– هل تذكر ابنة عمى .. ؟

فقاطعته :

– نعم أذكرها .. وأذكر قصتك معها .

– لقد رأيتها هذه الليلة ، رأيتها وأنا نائم كما لم أرها قط فى اليقظة .. لقد بدأ الحلم بداية عجيبة ، وانتهى نهاية أعجب .. للمرة الأولى تتراءى لى فى نومى بعد موتها .. لقد فجعنى موتها كأخت لى ، وتملكنى الحزن لأننى لم أستطع أن أهنيها فى حياتها ، بعد ذلك الحب الذى كانت تكنه لى .. ولكننى كنت أحس ببعض العزاء .. كنت معها رجلا فلم أغرر بها ولم أعبث بعواطفها .. لقد بدأ الحلم بأن رأيت نفسى أجلس فى البهو مع أبى وأمى وإخوتى ، وكانت جلستى قبالة صورتها الزيتية الجميلة وقد بدت فيها جميلة ساحرة ممسكة فى إحدى يديها ببعض الزهور ، وكثيراً ما كنت أداعبها فى حياتها بقولى : إن الصورة خير من صاحبة الصورة .. ورأت أمى أننى أنعم النظر كثيراً فى الصورة فقالت :

- صورة جميلة .

فرددت عليها :

- جميلة فقط ؟ .. إنها عجيبة !

- والشيء الأعجب .. أنها تتحرك .

- تتحرك ؟!

ولم أعتد من أمي أن تهزل وخصوصاً في مثل هذا المقام ، ولكنني وجدت الجميع يؤمنون على قولها في نفس واحد :

- نعم تتحرك .

ولم أرد أن أكون موضع هزلهم وخصوصاً في مثل هذا الموضوع الذي لايقبل الهزل ، فصحت بهم :

- كفى سخرية .

فقالت أمي بهدوء :

- يابني .. تأمل الصورة !

وحوّلت بصري إلى الصورة وتأملتها قليلا .

وهنا حدثت المعجزة .. أو حدثت الكارثة .. لقد رأيت الصورة وكأنها فتاة حية ، ورأيت يدها تتحرك بالزهور فتضعها أمام أنفها ، كأنها تشم عبيرها .

وظننت أن في الأمر خدعة ، وأن القوم قد أجمعوا أمرهم على السخرية مني والهزء بي .. فقمت من مكاني غاضباً أبغي الخروج من الغرفة ولكن قدمي جمدتا في مكانهما .

لقد تحركت الفتاة داخل الإطار ، ثم تركت الإطار ، وتقدمت نحوى بخطى ثابتة ، حاملة الزهور بيدها ، وقد علت وجهها الابتسامة ، تماماً كأنها على قيد الحياة . وبدأت توجه إلىّ الحديث :

— فيم جلوسك هنا ، لقد برئت من حبك ، ولم أعد بعد فى حاجة إليك ، أو قد ظننت أن الله لم يخلق فى العالم غيرك ؟ لقد كنت بلهاء حين تعلقت بك كل هذا التعلق .

وأحزننى كثيراً أن تكون غاضبة علىّ مثل هذا الغضب ، وأطرقت فى وجل وحزن .

ثم شعرت بأن من فى الحجرة قد بدأوا يتسللون خارجها ، حتى أصبحت وإياها وحيدين .

وأحسست بالطمأنينة تدب فى نفسى شيئاً فشيئاً ، وبدأت هى تقترب منى ، ورقت نبرات صوتها فامتلأت بالحنان والعطف ، ثم قالت بصوت هامس ، وربتت بيدها على كتفى :

—هل أغضبك كلامى ؟ إنى لم أصدق فى حرف منه ، ولكن كان لابد لى من قوله .. على الأقل لكى أحتفظ بكرامتى أمامهم ، وعلم الله أنى كاذبة فى كل كلمة قلتها لك .

وتقدمت منى حتى التصقت بى .. ثم جلست على ركبتى ، وأتمت حديثها :

— نعم .. علم الله أنى لن أبرأ من حبك ، وأنى دائماً فى حاجة إليك ، وأن الله لم يخلق لى فى هذا العالم غيرك .

وشعرت بحب جارف نحوها ، ولم أستطع أن أقاوم ذلك الدافع الخفى الذى يدفعنى إلى احتضانها وتقبيلها .

وعجبت فى نفسى ! لِمَ ضيعت هذه الأيام الماضية دون أن أمتع نفسى بحبها ، وكيف أضعت ذاهب العمر هباءً .. دون أن أرشف قطرة واحدة من كأسها الحلوة ؟

وكانت مناجاة عذبة. لم أذقِ مثلها قط فى حياتى .

وأخيراً ودعتنى باسمة سعيدة ، وتوجهت إلى إطارها فاستقرت فيه ، وتواعدنا على اللقاء .. بعد أن رجوتها أن تجعل اللقاء نهاراً .. بدلا من الليل .. حيث اللقاء فيه يخيفنى .. فوعدتنى بذلك .. وأخبرتنى أنها تعرف أين أكون فى النهار .. وأنها ستحضر إلىّ .

* * *

واستيقظت بعد ذلك .. وقفزت من فراشى وأنا شبه مجنون .. وبى من الشوق واللهفة إلى فتاتى مالم أشعر به نحوها فى إبان حياتها .. وكان أول ما فعلته أن ذهبت إلى الصورة وجلست أمامها .

ولكنها كانت ثابتة جامدة .. لاروح فيها ولاحياة ..» .

* * *

وهنا صمت صاحبى .. ورأيت عينيه تدمعان .. ثم همس :

– إنى أريدها ياصاحبى .. إنى أعبدها .

وربت على كتفه .. وقلت له بعض الكلمات على سبيل التهدئة .. ولكنها لم تجد معه شيئاً .

وغادرنى .. ولم أره بعد ذلك قط .

ولكنى قابلت أباه ذات يوم ، فإذا به قد دبّ فى وجهه الفناء وأصبح كأنه شبح من الأشباح ، وسألته عن ابنه فتشنج وجهه ولم يستطع أن يغلب دمعه الذى أخذ يتساقط من عينيه ، وقال :

– مسكين .. لقد جن ..

وعلمت بعد ذلك أن جنونه لايزيد على أنه كان يجلس دائماً أمام صورة الفتاة الراحلة ، ينتظر تحركها ، لتوافيه فى الموعد المضروب .. وأنه مايزال ينتظر اللقاء ..

★ ★ ★

خريف امرأة

كان صاحبنا محامياً فى الخامسة والثلاثين ، وسيما أنيقاً . ولم يزل بعد أعزب .. فقد أحب الهدوء فى بيته ، ولم يشأ أن تعكر صفو هدوئه امرأة أياً كانت ، ولم يكن يدرى معنى أن يقيد الرجل نفسه بامرأة معينة بمحض إرادته واختياره .. فى حين أنه يمكنه أن يتخذ لخدمته ، أو لمتعته ، امرأة يغيرها حسبما شاء .. ووقتما يريد .

وكان صاحبنا فى مكتبه يقلب بعض أوراق أمامه .. حينما دخلت عليه صاحبتنا للمرة الأولى ، وكانت نموذجاً لأرملة فتية ، فى شحوب الوجه ، وذبول العينين ، ولمحة الحزن والأسى التى كست وجهها . ولكن كان يطغى على كل هذا .. سحر وفتنة .. كانا يكفيانها أن تشير بأطراف أناملها فتجاب إلى كل ما تطلب .

ونهض ليحييها ، وأجلسها على مقعد بجانبه ، وكان يعلم عن زوجها أنه قد توفى من شدة إدمانه الخمر ، وكان يدرك أيضاً بالرغم مما كان يسمعه عنه من مرح شخصيته ولين جانبه ، فلاشك أن موته قد وضع حدّاً لحياته المخمورة ، وحياتها المضنية المرتبكة .

وكانت قد تحدثت معه تليفونياً قبل هذه الزيارة ، وقصت عليه في نبرات حزينة مجمل ماتطلب .. فرجاها التكرم بزيارته حتى يستطيع أن ينهي لها المسألة .. وحتى تستطيع أن تسرد له بعض التفاصيل التي كان يرغب في الاطلاع عليها .

وعندما رآها تبين له تماماً أن الصورة التي كان قد كوّنها في مخيلته عنها عندما خاطبته في التليفون تختلف عن الحقيقة جد الاختلاف . فقد رآها جميلة فتية ، لاتكاد تتجاوز الثلاثين من عمرها . وكان جمالها في بساطته ورقته يجعلها كثيرة الشبه بصورة الجيوكندا .

وبدأت هي الحديث في موضوعها رأساً دون مقدمات . واستغرق حديثها مايقرب من نصف ساعة . قامت على أثره قائلة :

– وعلى ذلك . فلابد من الحضور مرة أخرى للتوقيع على هذه الأوراق عندما تتكرم بتجهيزها ؟

– نعم ياسيدتي .. يجب أن تكون زيارتك في مثل هذا اليوم من الأسبوع القادم .. لأني سأكون قد أنهيت كل شيء .

★ ★ ★

وعجب صاحبنا لنفسه عندما وجد صاحبتنا قد شغلت حيزاً كبيراً من تفكيره . وهو – كما يعتقد في نفسه – المحنك المدرّب في أمور النساء . فقد أحب الكثيرات منهن . فكان معهن كالصبي يلعب بالكرة ، لاتشغله إلا بقُدر مباشرته باللعب بها ، فإذا ما تركها لم تعد تستحق منه التفكير .

ولكن هذه السيدة كانت من نوع آخر لم يره من قبل .. لقد تسللت إلى نفسه . وتسرّبت في دمه كأنه حقن بها دون أن يشعر ،

وكان يظن أن فى بساطتها .. وهدوئها .. وفى حديثها الممتلىء ليناً ودعة ما يجعله فى أمن من الوقوع فى مشكلات غرامية معها .. ولكنه دهش حين تركته .. إذ كان صريعاً بلا حراك دون أن توجه له أى سلاح من أسلحة الهجوم النسائية .

وهكذا بات صاحبنا ينتظر الزيارة التالية بصبر نافذ . ونفس متلهفة .

وفى تلك الزيارة لم يستغرق إنجاز العمل فيها أكثر من خمس دقائق انتقلا بعدها إلى أحاديث أحب إلى النفس من أحاديث العمل .. واتضح لهما أن كليهما قد زار باريس .. فتحدثا عن ذكرياتهما هناك .. فطال الحديث .. ووجد كل منهما لذة فى حديث الآخر .. وقال صاحبنا :

– يخيّل لى أنى قد رأيت شبيهتك فى اللوفر قبل أن ينهبه هتلر ؟

– شبيهتى ؟ لاأدرى ! ماذا تقصد ؟

– الجيوكندا .. الموناليزا .. ألم يخبرك أحد قبلى أنك تشبهينها تمام الشبه ؟ .

فضحكت ضحكة خافتة عذبة وقالت :

– على أيه حال .. لم تكن أنت أول من قالها .. فكثيراً ما كان يحلو لزوجى أن ينادينى بهذا الاسم .

وعندما انصرفت فى هذه المرة لم ينس صاحبنا أن يطلب إليها العودة مرة أخرى لتكملة بعض البحوث التى لم تتم بعد .. ورجا ألا يضايقها تكرار هذه الزيارات .

فقالت باسمة :

– تضايقنى .. الواقع أنك أنت الذى يمكن أن يثقل عليك لتضييع وقتك فى مثل هذه الأعمال المرتبكة .

★ ★ ★

وفى الزيارة الثالثة لم يستغرق العمل أكثر من ثوان دعاها بعدها إلى تناول الغداء معه وكان الحديث ذا شجون ورفعت إليه عينين ترقرقت فيهما دمعتان كأنهما اللؤلؤ ، وقالت :

– إنى أشعر كمن حبس فى ظلمة دامسة ، ثم أخرج من الظلمات إلى النور ، فأحس كأنه بعث من جديد .

ثم عضت على شفتيها حتى كادت تدميهما ، وأتمت حديثها :

– لم أكن أود أن نطرق مثل هذا الحديث ، لأنى لم أتحدث به إلى مخلوق قط ، وماشكوت مرة فى حياتى لأخلص أصدقائى .

– وعلى ذلك إذن يمكننى أن أعد نفسى كأخلص أصدقائك ؟

فردّت عليه ببساطة وهدوء :

– لاشك فى ذلك .. ولكنى أرجوك ألا تعود لهذا الحديث مرة أخرى لأنه يشعرنى بالمرارة والأسى .

وافترقا .. ثم دعته بدورها إلى تناول الشاى معها ، ودعت معه بعض أصدقائها ، وقد تكوّنوا من سيدتين رقيقتين مثلها وكان الثالث ضابطاً فى العقد الخامس من عمره ، ولكن صلابة جسمه ونحافته التى جعلته كعود الخيزران ، كانت تظهره كأنه توءم لشبابه ، فكان من ذلك النوع الصلب من الرجال الذى يخيل للناظر إليه أن الشيخوخة لن تجد إليه منفذاً ، وأن شبابه سيرافقه حتى القبر .

كانت جلسة لطيفة .. عرفت صاحبتنا كيف تنفث فيها من روحها الفياضة ، وحديثها العذب ، حتى تمنى صاحبنا ، وقتذاك ، لو استحوذ عليها فوضعها فى بيته موضع السيدة ، وأحس أن الهدوء الذى كان يبغيه فى بيته لم يكن إلا وحشة وفراغاً . وأحس أيضاً أنه يتمنى لو قيد بها مدى الحياة ، وكره أن يكون حراً طليقاً .

★ ★ ★

وكان الضابط المكتهل يمت لها بصلة قرابة بعيدة ، ولكنه كان لها أكثر من ذلك . فقد كان الصديق الذى تعتمد عليه فى كل شدة وضيق ، وتركن إلى رجولته فى كل مأزق حرج .

ولم يك سرّاً أنه كان يحبها منذ كانت فى الثامنة عشر ، وأنه قد طلب منها الزواج ما يقرب من خمس مرات قبل أن تتزوج من زوجها الراحل وباء فى جميع هذه المحاولات بالفشل .. ومع ذلك لم يتغير نحوها ، واستمر على شعوره .. غير أنه قنع من الحب بالصداقة .

وفى ذات يوم كان قد جلس يتحدث معها على انفراد .. وكان ذلك بعد يومين من تناولهما الشاى مع صاحبنا المحامى .

ورشف رشفة طويلة من فنجان القهوة .. ثم وضعه جانباً .. ونظر إلى السقف .. وقال كالمحدث إلى نفسه :

– لقد غرق محاميك الشاب فى الهوى حتى أذنيه .

–لاتكن شديد التحامل عليه .

– هناك كثير من الحقائق فى هذه الحياة يحاول المرء ألا يواجهها .. فإذا ما واجهه بها أحد اعتبر ذلك تحاملا منه .

— لست أقصد أن أغضبك .. فأنت تعلم أنه لم يعد لى فى الحياة من أركن إليه سواك .

— تماماً .. وأنا أكثر منك علماً بهذا وأشد استعداداً له ، ولهذا عنّ لى أن أجرؤ للمرة السادسة أن أطلب إليك أن تقلبينى زوجاً .

— أتزوج ! ولم يمض بعد أربعة أشهر على وفاة زوجى ! هل يمكن هذا ؟ إذن فلن تتزوجى من هذا المحامى ؟ .

— لا تكن مضحكاً ، وهل لا بدلى من الزواج بكائن من كان ؟ وانتهى الحديث ، ثم ودعها وانصرف .. وقامت بعدها . ثم وقفت إلى المرآة وأمعنت النظر إلى وجهها بدقة . ثم همست لنفسها :

— كلا .. لن يمكن لكائن ما أن يعرف أنى كذلك .

أما الذى تعنيه بلفظة «كذلك» فقد احتفظت به فى صدرها .

★ ★ ★

وشاهد هذا المساء التغير الأول فى العلاقات بين المحامى الوسيم ، وعميلته الفاتنة ، وكان قد دعاها للعشاء ، وفى خلاله تحدثت الأعين أكثر مما تحدثت الشفاه .

كان يرقبها ببصره ، فيخيّل إليه أنه لم ير فى حياته أجمل من هذا الكائن أمامه ، وودّ لو استطاع أن يفر بها إلى بيته ، ثم يحبس نفسه معها مدى الحياة .

وعندما ركبا (التاكسى) ليوصلها إلى المنزل ، شعر كلاهما أن هناك ثورة تضطرم فى صدره ، فالتفت إليها ولف ذراعه حولها فى صمت ، من الخطأ أن نسميه صمتاً فقد كان صمتاً صارخاً يمتلىء

وفي الصباح اتصلت صاحبتنا بصديقها الضابط ، ورجته الحضور إليها سريعاً لأنها فى مأزق تريد أن تستشيره فيه .

وسرعان ما حضر إليها ، ولم يكد يجلس حتى فاجأته بقولها :

– هل يمكن أن أسألك النصح فى أمر ما ، وتخلص لى النصح حتى لو كان في ذلك مساس بك ؟

– لاشك أنى سأفعل ذلك قدر ما أستطيع .

وأسند ظهره إلى المقعد ، ونظر إلى السقف . ثم قال :

– خيراً ؟ ! تكلمى .

– أنى أحب .. أحب .. كأعنف ما يكون الحب .

فسألها بمنتهى الهدوء والسكينة :

– المحامى ؟ .. أليس كذلك .. ؟

وأجابت فى صوت متهدج :

– نعم .. أنا أعلم أنه شىء مريع .. ولكننى مسلوبة الإرادة . فإنى أحبه حباً لم أحبه لشخص من قبل ، وبودى لو قبلت زواجه .

– حسناً .. ماذا يمنعك إذن من زواجه ؟

– إنه فى الخامسة والثلاثين فقط .

ومضت فترة صمت .. كانت فيها كالريشة فى مهب الريح .. فقالت فى ضيق :

– لاتصمت هكذا .. لابد أن تقول شيئاً ؟

– ياعزيزتى .. ما حاجتك إلى قولى وأنت أدرى بالأمر منى !

بالثورة والضجيج ، ومن الإنصاف أن نسميه صمتاً صارخاً ، أو ثورة صامتة ، وضمها إلى صدره فتركت نفسها تنساب فى لين واستسلام ألهب رأسه ، وقبّلها كما قبّلها مئات المرات فى أحلامه قبل ذلك .

ولم ينبس ببنت شفة حتى وقف (التاكسى) أمام منزلها فسألها فى همس :

– هل لى أن أدخل ؟

– كلا .. ليس الليلة .

– ولكن هل لى أن أطلب منك أن تتزوجينى ؟ . طبعاً أنا أدرك موقفك تماماً ، ولك أن تحددى الوقت .

ونظرت إليه نظرة حائرة ثم همست :

– دعنى أفكر .. لابد لى من التفكير .

– لن أدعك تفكرين ، فلابد أنك لم تسمحى بتقبيلك إلا إذا كنت قد وطنت نفسك على الموافقة .

وابتسمت ابتسامة عذبة ، كان فيها منتهى أمله . ثم أمسك بوجهها .. وفى غفلة من سائق التاكسى الذى أدار وجهه إلى الاتجاه الآخر ، سرق قبلة أخيرة . ثم همس :

– ياسيدتى العزيزة . كل ما أرجو ألا تكونى تصغريننى بكثير فإنى فى الخامسة والثلاثين . وأنت ؟

– فى الثانية والثلاثين .

– ومع ذلك تبدين كأنك فى العاشرة .. عمى مساء أيتها الجيوكندا الصغيرة .

– إن الأمر أسوأ مما تظن .. لقد سألنى عن عمرى ، فأخبرته أنى فى الثانية والثلاثين .

– كلكن كذلك فى مسألة السن .. على أية حال .. لاأظنك تبدين أكثر من ذلك يوماً واحداً .. ومع ذلك فأستطيع أن أخبرك أن الأمر يختلف كل الاختلاف بالنسبة لرجل يريد الزواج وهو فى الخامسة والثلاثين .

– وهذا هو الذى يخيفنى .

– يابنيتى لقد طلبت منى النصح ، إذن فها هو .. قد يثقل عليك قولى ، ولكنى لن أقول غيره .. أخبريه بالحقيقة .. فإن استمر على طلبه فاقبلى زواجه لأنه يحبك حقاً .. وإن تراجع فدعيه وشأنه .

وفغرت صاحبتنا فاها ، وارتسمت عليها مرارة الهزيمة :

– هذا شىء يسهل قوله منك .. ولكنه بالنسبة لى مضن .

– إنى أخشى عليك من أتون المستقبل .

★ ★ ★

وبعد يومين التقى الرجلان فى طريقهما لزيارة الأرملة العاشقة .. وعندما دخلا إلى مسكنها قيل لهما إنها غير موجودة ، ولكنها أمرت إذا جاء واحد منهما فعليه أن ينتظرها لحين عودتها .

وجلس الرجلان .. أحدهما قبالة الآخر ، وبعد صمت قصير أطلق الضابط أول طلقة .. فقال دون مواربة :

– هل تحبها ؟

فأجابه المحامى ببساطة :

– نعم .. لاشك فى ذلك .. وأنت ؟

– وأنا كذلك .. لقد خطبتها سبع مرات كانت أولاها وهى فى التاسعة عشر .. وكانت الأخيرة منذ أسبوع .. ورفضت جميعها .

– حظ سيء .. ولاشك .

– على كل حال عندما يكون الحب صادقاً ، تصبح التضحية هينة فى سبيل إسعاد مع تحب .

– لم أصل بعد إلى هذا المستوى ، ولكن قد تغنينى عن الوصول إليه ثقتى من أننى الوحيد الذى يمكنه إسعادها .

– قد تكون مصيباً فى حديثك .. ومع ذلك دعنى أختبرك .

– تختبرنى ؟

– نعم .. ماذا تبغى من الزواج ؟

وكان الأمر هيناً بالنسبة إلى صاحبنا المحامى ، فقد كانت صناعته الكلام ، ولم يخش قط أن تخذله الألفاظ فى تأدية الاختبار فقال :

– أنا لا أبغى المتعة الزائلة ، لقد عرفت الحياة فلست بطائش ولا أحمق .. ولقد صادفت فى حياتى من متعة النساء ما يكفى لأن يجعلنى زاهداً فيهن حتى آخر العمر .. ولكنى أبغى الهدوء والاستقرار .. أريد حياة ناعمة غير مضطربة .. أريد شريكة تعيننى على الحياة ولاتعين الحياة علىّ .. أريد امرأة تذهب عنى الهم وتمسح بيدها الحنون أحزانى وأشجانى .. أريدها تعبّد لى طريق الحياة .. أريد بيتاً هادئاً جميلا ألجأ إليه عندما ترهقنى الأعمال فأحس بمن يلقانى فيه بابتسامة تذهب التعب والضيق .. أريد أمّاً لأولاد يملأون البيت تغريداً وترنيما كأنهم بلابل فى جنة مزدهرة .. أريد قلوباً تحزنها غيبتى وتفرحها

أوبتى .. أريد عيوناً تدمع لحزنى ويؤرقها مرضى وينبعث منها ضوء يهدينى سواء السبيل .. هذا هو ما يعنيه الزواج بالنسبة لى وبالنسبة لأى رجل .

تماماً لقد أجدت الوصف .. وعلى هذا الأساس سأعطيك نصيحة .. لا لشىء إلا لأنقذك من ظلمة دامسة ستعقب هذا الضوء الخاطف البرّاق ، ومن شقاء سيعقب هذه السعادة القصيرة الأجل ، ولكن قبل أن أمضى فى حديثى أود أن أنبهك مرة أخرى إلى أنه لا ناقة لى فيها ولا جمل ، وأنى يئست منها .. فأبعد هذه الفكرة عن رأسك . وخذ نصيحتى خالصة لوجه الله .

ثم صمت برهة وأردف :

— كم تظن سنها .. ؟

— لقد قالت لى إنها فى الثانية والثلاثين .

— كلا .. إنها فى الخامسة والأربعين .

وأفلتت من صاحبنا صيحة دهشة لم يستطع أن يكتمها ، ثم قال :

— لايمكن أن أصدق ذلك .

— إذن فاسألها .

— ولكنها لاتبدو أكثر من ..

— قد تبدو أقل مما ستقول .. وبالرغم من ذلك فلم أقل لك غير الصدق ، وما كنت أود أن أقوله .. ولكننى أعلم تماماً أن هذه الأشياء لايمكن إخفاؤها وخصوصاً إذا كانت المسألة مسألة زواج ، وأخشى عليها من عواقب هذا .. وأنى أدرك تماماً أنه كان يستحيل عليها أن تقوله ، فلم أجد بداً من أن أقوله أنا حتى لا أوردها موارد العطب ،

ولا اطلب منك الآن رداً .. بل كل ما عليك هو أن تسلك أحد الطريقين : إما أن تمكث مكانك حيث أنت .. ثم تخبرها حين تأتى أنك قد عرفت وبالرغم من ذلك ستتزوجها ، أو تولى منها فراراً فتخرج بلا رجعة .

ثم أخذ الضابط الكهل عصاه وغادر البيت ، تاركاً صاحبنا وحيداً غارقاً فى أفكاره .

وبدأت الأفكار تتزاحم فى رأس صاحبنا .. خمسة وأربعون ، أى أنه عندما يبلغ الأربعين ستكون هى فى الخمسين .. وبدأ يتخبط فى أفكاره ، ولم يشعر قط أنه عاجز عن التفكير قدر ما شعر فى تلك اللحظة .

لقد كان يريدها أكثر مما يريد أى شىء فى هذه الحياة ، ولكن هل من الصواب له ولها أن يتم الزواج ؟ .

ولم يشعر إلا وقد وقف فى سكون ، وأخذ معطفه كالهارب من قيد أو كالفار من عاصفة على وشك الهبوب .. وتحرك صاحبنا مغادراً الدار فى صمت وسكون .

* * *

ودهشت كثيراً عندما عادت إلى المنزل ، فقيل لها : إن الصديقين قد حضرا ، وإن الصديقين قد رحلا .. ماذا حدث .. هل يمكن أن يكون قد حدث شجار بينهما ؟

وجلست تفكر فى هدوء .. ودق جرس «التليفون» فقامت إليه وأمسكت بالسماعة فى لهفة ، ولم تقل شيئاً .

ولكن وجهها كان يقول كل شيء .. كانت في شحوب الموتى .. وكانت الشفتان ترتجفان في صمت بليغ ، ولولا أن أرتمت بجسدها على المقعد لمادت الأرض من تحت قدميها .

لقد أخبرها صاحبنا أنه علم .. وأن الأفضل له ولها أن ينتهى الأمر واعتذر لها .

ووضعت السماعة .. وشعرت بقلبها كأن يدين تعصرانه عصراً

لقد برق الأمل مرة فى حياتها ثم خبا إلى حيث لارجعة ولا عودة لأنه قد برق متأخراً .

ورفعت رأسها فإذا بالمرآة أمامها .. فسالت دمعتان على خديها وتمتمت :

— يا للدنيا الهازلة التى تمنحنا الهبات عندما لانريدها ، فلا نحس أنها قد منحتنا شيئاً .. فإذا بتنا فى حاجة إليها سلبتنا ما وهبت واسترجعت ما منحت . وأورثتنا بدلا منه ندماً وحسرة .. كم أبصرت بالشباب يفيض فى هذه المرآة فما شعرت له بمتعة أو نشوة .. لأنه كان وحيداً لايجد من يؤنس وحشته .. واليوم وقد امتدت الأيدى لتقطف زهراته إذا بها قد ذبلت وتساقطت أوراقها .. لقد ولى الشباب وذهب العمر .

وأطربنى الشباب غداة ولى   فليت سنيه صوت يستعاد

وأحنت رأسها على صدرها وأخذت فى بكاء صامت .

وبعد يومين زارها صديقها الضابط . ودخل عليها فتكلفت الابتسام . فربت على يديها برفق ثم قال :

— كيف أنت الآن ؟

– لقد أزيح العبء .. ولكن بقيت العظام المحطمة .

– هوّني عليك .. هذا أفضل كثيراً مما كان يمكن أن يحدث .

– ولكن الوحدة قاسية .. ولم أشعر بقسوتها قط قدر ما شعرت بها الآن .

– إذا كانت المسألة مسألة وحدة قاسية فيمكن حلها فى التوّ واللحظة سأسألك أن تتزوجينى .. وستكون هذه الفرصة الأخيرة لك .. فلن أسألك بعد هذا .. فإياك أن ترفضى .

– ولكن .. هل تحبنى ؟

– نعم .

– بالرغم من كونى فى الخامسة والأربعين ؟

– أنا أيضاً فى الثالثة والخمسين .. أجيبى .. نعم أم لا ؟

– نعم .

وأسند الكهل رأسه إلى المقعد ونظر إلى السقف .. وقال كمن يحدث نفسه :

– ما كان أغنانا عن أضاعة السنين الطوال لو قبلت أول مرة .. على أية حال لا بأس فى ذلك ولا حرج .. لقد فاتنا الربيع .. فلنتمتع بالخريف ..

* * *

العودة

حينما طرق اسمها أذنيه ، خيّل إليه لأول وهلة أنها قد تكون زوجة صديقه القديم .. الطبيب الشاب .. ولكن عندما رفع بصره إليها تبين له أنه قد أخطأ الظن .. وأن المسألة لاتعدو أن تكون تماثلا فى الاسم .. فقد كانت صاحبتنا تبدو وكأنها أكبر من صديقه بعشر سنوات .. وقد بدا عليها التعب والأعياء .. وظهرت بعض شعيرات بيض تتسلل من خلال شعرها الأسود الداكن .

وابتسم لها فى رفق .. ثم أشار لها بالجلوس على مقعد بجوار مكتبه .. فقالت :

– هل تسمح لى بالتدخين ؟

سألته وقد مدت يدها إلى حقيبتها وتناولت منها علبة سجاير فضية وهمت بفتحها .

فأجابها :

– ولكن أجد هذا واجباً علىّ .

ثم دفع إليها بعلبته .. واستطرد :

— وأظن أنها من نفس النوع الذى تدخنين .

وتناولت منه سيجارة . وبعد أن أشعلها لها عاد إلى مقعده ، واضطجع إلى الخلف محدقاً فيها ، منتظراً إياها أن تبدأ الحديث .

وجذبت من سيجارتها جذبة قوية ، ثم نفثت دخانها فى الهواء بشدة كأنها تنفس عن ضيقها ، وظلت ترقب الدخان فى الجو حتى تلاشى .. وبوجه أشبه بالمحموم نظرت إليه ، ثم بدأت تتحدث وكأنما الألفاظ جمرات تحرق صدرها :

— لقد جئت أستشيرك ياسيدى .. بخصوص زوجى .

وأشار برأسه .. طالباً منها التوضيح .. فقالت :

— أريد الطلاق .

ومضت بعد ذلك فترة صمت ليست بالقصيرة .. وبدا عليها كأنها لاتقدر على إتمام حديثها . وسرح هو ببصره خلال النافذة الزجاجية التى أمامه ، والتى بدت من خلفها تلك الأشجار اليابسة التى قد نفضت عنها أوراقها ، فظهرت أغصانها جافة عارية ، تعصف بها الريح .

وتتابعت فى ذهنه ، صورة أولئك المطلقات ، اللائى عمل فى قضاياهن حزينات بائسات ، كسيرة قلوبهن .. تعصف بهن الحياة .. كما تعصف الريح بالأغصان العارية ، لا فرق بينهما إلا أن الأولى قد ذهب ربيعها إلى حيث لا عودة ولا مآب .. والثانية سيعقب خريفها ربيع يعيد إليها النضرة ، ويسكب فيها من جوفه ماء الحياة .

وطال الصمت .. وهى مطرقة واجمة .. فقال مشجعاً إياها على إتمام الحديث :

– ولكن .. أليست هناك وسيلة لإصلاح ذات البين ؟

– لا ياسيدى .. لقد بلغ السيل الزبى ، ولم يعد في طاقتى أن أحتمل .. لقد احتملت كثيراً .. فليست هذه هى المرة الأولى ، التى أحاول الانفصال فيها عنه ، وقد عفوت كثيراً .. ولكن فى هذه المرة لابد أن ينتهى الأمر بيننا .

– ولكننى لم أفهم بعد سبب الخلاف .

– امرأة أخرى !!

أجابته السيدة بحدة .. كأنما لايمكن أن يكون هناك سبب لخلاف بين زوجين إلا إذا كانت هناك امرأة أخرى .. ثم تمتمت :

– لقد كان ذلك دائماً هو السبب .. دائماً كانت لديه أمرأة أخرى .. وفى هذه المرة الأخيرة كانت شقراء حمقاء ، بدأ يطارحها الهوى ، ويبادلها الغرام . غير عابىء بشىء .. مدعياً أن الأمر لا يعدو المرح والتسلية .. جاوز الأربعين .. ويدعى بعد ذلك أن المسألة مسألة لعب وتسلية ؟

وضحكت ضحكة عصبية ساخرة .. ثم استمرت قائلة :

– منذ ستة شهور وهو يعرف أنى على علم بأمره .. وينتظر منى بعد ذلك ألا أعبأ ولا أهتم .

وأخذ الرجل يرمقها وقد عاد الظن يساوره مرة أخرى بأنها قد تكون زوجة صاحبه الطبيب فسألها :

– ولكن ما الذى جعلك تقصدينني ؟

— ياسيدى عندما ناقشته الحساب آخر مرة .. قال : إنه ليس بى مايثيره ويفتنه .. وإنه مضطر أن يبحث عن هذه الاستثارة والفتنة فى الخارج . فلم أطق صبراً .. وصممت على أن أضع حداً للمسألة . فقصدت إليك ، لأن اليأس والقنوط قد ملأ نفسى .

وأطرقت ، ثم قالت فى نبرة حزينة وفى صوت أشبه بالهمس :

— قد يكون على صواب فى قوله .. ولكننى عندما تزوجته لم أكن كذلك ؟

واغرورقت عيناها بعبرات الاستكانة واليأس .

ووجم الرجل ، وقد أحزنه أن تنزل السيدة عن كبريائها وقال :

— الظاهر ياسيدتى . أننى لم أستطع أو أوضح لك سؤالى ، لأنى قصدت أن أسألك عما جعلك تقصدينني .. أنا بالذات .. ولم تقصدى محامياً غيرى .

— فهمت ما تقصد ياسيدى .. كان يجب أن أوضح لك الأمر .. سمعت عنك ، أول مرة ، من زوجى الطبيب .. وكان ذلك منذ عدة سنوات .

إذن فقد كان محقاً فى مبدأ الأمر !! عندما ظن أنها زوجة صديقه القديم .. وقبل أن يتمكن من مقاطعتها ، كانت قد قطعت شوطاً بعيداً فى تكملة حديثها ، توضح جلية الأمر :

— نعم ياسيدى .. كان ذلك من نحو ثلاث سنوات .. وقد اشتد بيننا الخلاف .. وهددته بالانفصال .. وكنت أظن ذلك سيزعجه ، ولكنه كان خبيثاً ماكراً ، فقد أبدى منتهى البرود ، بل وأكثر من ذلك ذكر لى اسمك ووصفك بأنك رجل ماهر ، وأنك خير من أركن إليه

في قضيتي .. وهكذا عرف كيف يسكتني ويوقفني عاجزة ، وصحت به غاضبة : إنني لن أسعى إلى الطلاق بتاتاً ، حتى لا أتركه حراً يصاحب من يهوى . كم كنت حمقى حينئذ . فلو كان الطلاق قد تم وقتئذ ، لما كان هناك ماينغص عيشى كل يوم وكل ساعة .

ودقق صاحبنا النظر فيها فوجد أنها تظهر أكبر من حقيقتها ، وأن آثار الفتنة والجمال مازالا يبدوان من خلال تقاطيعها التى حطمتها السنون الصاخبة ، والحياة القلقة الملأى بالمشاحنات والشكوك . ثم قال :

– هل نصحك زوجك هذه المرة بالمجىء إلىّ ؟

لا ياسيدى .. فهو ليس أبله إلى هذه الدرجة .. إنه لم ينصحنى فى المرة السابقة إلا لعلمه أنى لن آتى إليك ، ولو علم أنى سأقصدك الآن لمنعنى من ذلك بلعبة من لعباته ، أو لأقنعنى بالعدول فهو ماهر فى الإقناع على الأقل بالنسبة لى .. وهو لايسرّه الطلاق قطعاً ، لأنه لا يرغب فى الارتباط بأية واحدة من عشيقاته .. ووجودى معه يجعله بمنأى عن طمعهن فى الزواج منه ، فأنا عنده بمثابة الدرع أقيه منهن ، وهو شديد الثقة فى سيطرته على نفسى ، واستحواذه على قلبى .. وله كل الحق فى ذلك ياسيدى ، فإنى على يقين من أنه حتى فى هذه اللحظة التى صممت فيها على الافتراق عنه أحس أنه قادر على أن يطوينى ببريق ألفاظه كما يطوى السلسلة على أصبعه ، لأنى أحبه ياسيدى كما لم تحب امرأة زوجاً من قبل ، بل إنساناً كائناً من كان ، وسأحبه ما دام فى جسدى عرق ينبض .

ثم عضت على شفتيها فى حنق وهزت رأسها وأضافت :

– وهو يعلم كل هذا .

– ياسيدى .. لشد ما يحزننى ، أن أقف حيالك مكتوف الأيدى عاجزاً عن مساعدتك ، لأن زوجك ليس فقط من زبائنى ، بل هو أيضاً صديق قديم لى ، وإنى لأذكر تلك الساعات الطويلة التي قضيناها فى الريف سوياً ، حيث كان يجد أحدنا من الآخر مؤنساً فى وحشته ووحدته ، ولن يمكننى قط أن أتدخل فى مثل هذا الأمر .. وكل ما يمكننى عمله هو أن أدلك على شخص آخر يمكنه أن يقوم لك بالمساعدة التى تطلبينها .

وصدمت السيدة بهذا الحظ العاثر ، ولم تستطع التحمل ، فأجهشت بالبكاء .. وأحزن الرجل ألا يستطيع مساعدتها . فقام إليها مهدئاً إياها ، وربت على كتفيها برفق وقال :

– ياسيدتى هوّنى عليك .. فى استطاعتى أن أساعدك كصديق .. وفى الوقت نفسه سأدلك على من تستطيعين الوثوق به .. فقط أريد أن أسألك سؤالا .. كصديق ، لا كمحام : هل لديك دليل مادى على خيانة زوجك .. ؟

وكفت السيدة عن البكاء .. ورفعت رأسها . وقالت :

– دليل مادى ؟ لا أظن ذلك .. ولكنى بالرغم من ذلك متأكدة من خيانته ، فكل أحواله تنبىء عن ذلك .. هذا التأنق فى الملبس .. والعودة فى ساعة متأخرة من الليل وتلك المظروفات ذات اللون الجميل ، والخط النسائى ، وصورتها الملقاة فى درج مكتبه ، كل ذلك لايكفى ؟!

– قد يكون كافياً لإثارة شكوكك .. ولكنه لن يكون كافياً لإثبات خيانته ، فليس فى شىء مما ذكرت دليل حاسم . وإنى أرى

أن تهدئي من غضبك ، وتتركي العاصفة تمر ، فذلك خير من الفضائح التي ستدمر حياتك قبل حياته .

فقالت بعناد وإصرار :

– أنا أعلم كل هذا وأعرف نتائجه ولن يثنيني عنه شيء .. فقد علمتني الساعات الطويلة التي كنت أنتظره فيها وهو يتمرغ بين ذراعي عشيقته ، ألا أعبأ بشيء .

★ ★ ★

وفي ذلك المساء كانت عربة الزوج الطبيب قد وقفت في ناحية مظلمة ، وقد جلس بها الرجل الأنيق المنظر ، الوسيم الطلعة ، بادياً عليه القلق وأخذ يتظر في ساعته بين حين وآخر .

وأقبلت الفاتنة الشقراء تسترق الخطى .. تتلفت ذات اليمين وذات اليسار . ودلفت إلى العربة ونفذ عبيرها إلى أنف الرجل فملأه نشوة وغبطة .

وتحركت العربة ، وقد التصق العاشقان ، وأسندت المرأة رأسها على كتفه . وقالت هامسة :

– هذه هي اللحظات المضيئة في حياتي .. اللحظات التي أحس فيها أن الظلمات الدامسة قد انقشعت من حولي ، والتي أحس فيها بالهدوء والاستقرار حينما تمس رأسي كتفك .. وأراني قد رسوت على مرفأ يؤمنني من خوف ، ولكن الحياة ضنينة بهذه اللحظات .. فهي تلوح لي بها كأنها برق يلمع .. كم أود لو قضيت العمر كله جالسة إلى جوارك .. وتسير بنا العربة فلا تتوقف إلا آخر العمر . ولكن الطريق شائك زاخر بالعثرات التي تأبى إلا أن تعيدني إلى الظلمة مرة أخرى ،

وتنزعنى من الأحلام الحلوة فتدفع بى إلى الحقائق المرة ، وتذكرنى بأنى لابد أن أعود إلى الدار بعد نصف ساعة .

ولم يكن الرجل – فيما بينه وبين نفسه – بشديد التأثر بمثل هذه الأحاديث فقد أضحت من فرط ما تعوّد سماعها من مختلف العاشقات ، غير ذات موضوع فى نفسه ، وإن كان يتقن دائماً الظهور بمظهر الهائم الولهان .

وهكذا مرّ بأذنيه حديث المرأة العاشقة مروراً عابراً ، فلم يصل منه إلى رأسه إلا كلمة «عودتها بعد نصف ساعة» ، فصاح فى كثير من الدهش والاستياء :

– لا تكونى حمقاء بلهاء ، فتهدمى تلك القصور التى بنيتها فى رأسى ، وتفسدى علينا ليلتنا الحالمة ، أتراك قد أتيت لتشعلى فى نفسى نيران الشوق والحنين ، ثم تتركيننى أكتوى بشواظها .. أتضنين علىّ بسويعات أطفىء فيها من ظمأ نفسى وأروى منها غلة قلبى .. ثم تدعين بعد ذلك هوى وحباً .

وسرحت المرأة ببصرها قليلا ، ثم قالت كمن تحدث نفسها :

– آه من هذا الكهل ، لشد ما يغيظنى منه أنه كصبية المدارس يريدنى أن أفعل له كل شىء ، أطعمه ، وألبسه ثيابه ، وأوقظه ، وإذهب به إلى الفراش كل ليلة .

ونظرت إلى صاحبها .. وبدأت الأفكار تدور فى رأسها بسرعة البرق .. هذه الدنيا الساخرة .. لِمَ ألقت بها فى أحضان هذا المحامى الكهل ؟ وأبعدت بينها وبين صاحبها هذا الذى تجد فيه كل ما تتمنى ؟

هذا الذى استطاع أن يغمرها فى بحر من السعادة .. لم يستطع زوجها أن يذيقها منه قطرة .

وكان صاحبنا خبيراً بأمور النساء .. فعرف ما يدور بخلدها .. وهمس فى أذنها :

– لشدّ ما تتشابه مشكلاتنا .. فزوجك .. وزوجتى .. هما بيت الداء وأصل العلة .. هذه الفتاة العجوز .. كم تشبه ذلك الكهل الأحمق ؟ .. إنى أعرفه تماماً .. فقد عملت معه فى مبدأ حياتى فى الريف ، وقتما كان يعمل محامياً هناك .. ولا أدرى لعمرى : ما الذى أغراك على الزواج به .. لقد كنت إذ ذاك فى الرابعة والعشرين منذ ست سنين خلت .. وكان لديك مايجعل الدنيا كلها تحت قدميك الجميلتين .

وصمت الرجل لحظة ثم أردف :

– لن أدعك تفسدين علىّ ليلتى .. فلا أظنك قد بلغت بك القسوة هذا الحد الذى تحطمين به الكأس الحلوة التى أذقتنى منها قطرة لم تعد لمس الشفاه .

– ولكنى قد أخبرته أننى لن أتغيب أكثر من الثامنة وأننى ذاهبة لزيارة إحدى صديقاتى !

– لابأس فى ذلك .. يمكنك أن تتصلى به الآن وتخبريه فى التليفون أن صاحبتك قد حجزتك للعشاء .

وفى الساعة الحادية عشرة عندما عادت إلى البيت وقد التهبت وجنتاها كان زوجها قد جلس على أريكة يقلب صفحات كتاب بين يديه .. ورفع إليها رأسه ثم قال :

– سهرة ممتعة ولاشك ؟

– بعض الشيء .. لقد ألحت عليَّ كثيراً .. فلم أستطع إلا البقاء .. وأنت ماذا عندك من الأخبار ؟ .

– عندى قصة طريفة ، تستحق أن أرويها لك .. وإن كنت أراها مبعثاً للحيرة والأسف .. فقد حضرت إلىّ اليوم امرأة فى منتصف العمر قد وخط الشيب رأسها وكسا الحزن وجهها ، وكانت تريد الطلاق من زوجها .. لأنه – كما تقول – مصاب بداء يقض مضجعها ويدمر حياتها .. وهذا الداء هو تلهفه على حب غيرها من النساء .. هو لايقامر ولايشرب ولكنه مدمن نساء .. فما خلت حياته معها فى أى لحظة من امرأة أخرى وهو لاينكر ذلك بل يعتذر لها بأنه فى حاجة إلى من تعطيه المتعة وتهيىء له الفتنة والإغراء .. وأنها لم يعد فى استطاعتها أن تهب له ما يريد .. وقد يكون الرجل على حق .. فأغلب ظنى أن كل الرجال كذلك . فهم يحسون أنهم فى حاجة إلى امرأتين لاتستطيع امرأة واحدة مهما بلغت من القدرة والجمال أن توفرهما لهم .. وذانك هما بيت هادىء ، ومتعة مثيرة ، أو على الأصح ، زوجة وخليلة ، ولا الخليلة تستطيع أن تكون زوجة ، ولذا فلابد منهما معاً .. هذا هو إحساس جميع الرجال بلا استثناء ولكنهم مع ذلك يختلفون فى مسلكهم فى الحياة ، لأننا نجد منهم رجلا استطاع أن يكبح جماح نفسه فشغلها بشئون الحياة عن طلب المتعة وقتل فى نفسه تلك الرغبة الملحة فى التطلع إلى النساء ، ورجلا وجد أن عمره أقصر من أن يضيعه فى كبح جماح نفسه فأطلق لها العنان لتنهب من اللذات جهدها .. فهو يرى أن هذا حق لها ، ورجلا بين هذا وبين ذاك ، فهو يقتنص الفرصة لينهب اللذات المختلسة والمتع المسروقة دون أن يحس به أحد ، فهو يستتر ليوفق بين حقه فى المظهر وحق نفسه عليه ، وهذا الأخير هو خير أنواع

لرجال ، لأن الرجل الثانى طائش أحمق .. أما الأول ، فلو أفلت منه لزمام مرة واحدة ، فسيودى به إلى التهلكة .

لنعد إلى قصتنا ، لقد قالت إن السيل قد بلغ الزبى ، وإنها لم نعد تحتمل . ففى هذه المرة قد رأت صورتها فى مكتبه ، شقراء حمقاء كما وصفتها وقد لايكون فى القصة حتى الآن شىء من الغرابة ، ولكن أغرب مافى الأمر أن روجها صديق قديم لي ، فهو الدكتور (...) الذى كان يعمل فى بلدة (...) وتجدينني حائراً بين الرجل وزوجته ، فقد حاولت تهدئتها فلم أفلح ، على أنها ستحضر إلّى فى الغد ، وسأحاول معها مرة أخرى .

ولو رأى صاحبنا وجه زوجته حين أخذ يقص عليها القصة لهاله الأمر ، ولكن لحسن الحظ كانت الزوجة تخفى وجهها خلف جريدة .. أخذت تقلب صفحاتها .. وبعد أن تمالكت أعصابها سألته فى نبرات حاولت جهدها أن تكون هادئة :

– ولكن هل أمكنها الحصول على الصورة ، أعنى صورة العشيقة ؟

– أغلب ظنى أنها لم تأخذها وإلا لقالت لى .

وكانت إجابته ، كأنها العفو بعد حكم الإعدام .

★ ★ ★

وفي نفس المساء تسللت الزوجة .. ونزلت إلى حجرة التليفون بالدور الأسفل . وأغلقت على نفسها الباب وطلبت صاحبها الطبيب وقصت عليه جلية الأمر .. ولشد ما أحزنها وأوجع نفسها .. أن صاحبها لم يدهش قط . وأجابها ببرود :

— لم يكن هناك داع ألبتة ، لإزعاج نفسك بمثل هذه الكيفية . وماذا بالله عليك كنت فاعلة لو كانت زوجتى مستيقظة وردّت عليك بنفسها .. اذهبى إلى فراشك الآن . وسأعرف أنا كيف أعيدها إلى رشدها فى الصباح . إنى أشد الناس خبرة بها وليس أسهل علىّ من أن أعيدها إلى حظيرتها .. فهذه ليست أول مرة .. أتمنى لك ليلة سعيدة .

وعندما وضعت السماعة كانت كالذى أفاق من حلم معسول .. إذن فهو لايرغب فى طلاق زوجته ولا يهمه كثيراً أن يتزوجها هى .. وأن الأمر على حد قول زوجها : لا يعدو التسلية .

وفى الصباح .. دق جرس التليفون .. فإذا بسيدة تطلب زوجها المحامى .. وردّ الزوج :

— حمداً للّه ، فلا شك أن هذا أفضل بكثير من الخلاف .. وفقكما اللّه .. كلا .. لا إزعاج هنالك ألبتة .. يسرنى أن أسمع عنك كل خير .

ووضع الزوج السماعة ، ثم التفت إلى زوجته ضاحكا :

— مسكينة .. لقد استطاع الماكر أن يقنعها بكلماته المعسولة .. كان اللّه فى عونها .. إن حياتها سلسلة متكررة من الخصام والنضال .. مع هذا اللعين .

خرج صاحبنا إلى مكتبه .. وأحست صاحبتنا كأنما كانت فى بحر خضم عادت منه إلى شاطىء النجاة .. ولم تعد بعد ذلك تطمع فى أكثر من زوجها .. فقد علمت أنه هو المرفأ الذى تستطيع أن ترسو عليه بسفينة حياتها آمنة مطمئنة .. وعلمت أن تلك اللحظات التى ظنتها مضيئة لو تكن سوى أمل يلمع .. وسراب يبرق .

مجنون الهوى

لم يكن فيه عيب – إن صح أن يسمى هذا عيباً – إلا غرامه بالغرام ، وحبه للحب .. لم يهو فى حياته امراة لذاتها ، بل كان يهوى الهوى نفسه .. كان كل ما يطربه هو ذلك الجو الذى يغشى مسرح الحب ، وتلك الهالة المضيئة التى تحيط بالعاشقين ، فتحجب عنها كل بغيض كريه ، وتخلق من القبح حسناً ، ومن المرارة لذة ، ومن الألم متعة .

لم يكن هناك فى الدنيا أكثر عدداً من معشوقاته ، فقد كان يوقع نفسه فى هوى كل حسناء يصادفها ، كأنه الفراش يلف حول الضوء .. غير أنه كان يفضل الفراش بأنه لا يحترق – أو على الأصح – بأنه حتى الآن لم يحترق .

كان يعتبر نفسه ضحية لكل حسناء ، وصريع كل غانية .. وكان يشعر أنه مصاب بداء الحب وأن الداء قد أزمن به ، فلم يعد لديه أمل فى برء ، أو رجاء فى شفاء ، وأن جراثيم الهوى قد توالدت فى قلبه وتكاثرت حتى لم تعد هناك ذرة فى قلبه إلا وقد علقت بها جرثومة

من جراثيمه .. بل لقد خيّل إلّي في نهاية الأمر أن قلبه نفسه قد تحوّل فصار جرثومة كبرى للحب والهوى .

وكانت عل غرامياته تتخذ شكلا واحداً لا يتغير ولا يتبدل ولا يكل هو منها ولا يمل .. يبدأ الدور بأن يرى الفتاة ، فيذهل من فرط حسنها ، أو على الأقل هذا هو ما يخيّل إليه دائما .. ويرى فيها نوعاً من الجمال لم يره في غيرها من قبل ، وتروعه منها شفتاها أو عيناها ، ويدهشه بروز ثدييها أو امتلاء ساقيها أو أى شيء فيها ، فيثبت عليها بصره ، ويظل يتبعها بعينيه كي يشبع نهمه الذى لايشبع ، ويروى غلته التى لاينطفىء لها ظمأ ، ثم يفارقها .. فيبدأ عيشه فى قصور من الأحلام شاهقة شامخة ، ويرتع فى مرعى من الأمانى خصيب ظليل ، ويهيم معها فى جو أتقن هو صنعه من فرط ما عاش فيه .

ثم يبدأ بعد ذلك فى نصب الشراك حولها ، وتلك هى أقصى لذته ، فليس أمتع عنده من الجرى وراءها أو انتظارها ، أو محاولة لقائها ، أو مشاغلتها ومشاغبتها ، لايجد فى ذلك عناء أو تعباً ، إلا كما يجد الطفل فى لعب الكرة أو «الاستغماية» ، وقد يلقى فى هذا الدور من «عملية الحب» شتى صنوف الصد والإعراض ، والسخط والغضب .. ولكنه دائماً يؤولها لصالحه .. فهى إما «لدلال» أو لإخفاء الهوى أو لأى شيء مما يرضيه ويسعد قلبه .

ويبدأ بعد ذلك دور الشك .. أتحبه الفتاة أم لا تحبه ! .. وهو يجد فى شكه هذا لذة أحب إلى نفسه من لذة اليقين .

وقد يعشق فى نفس الوقت اثنتين أو ثلاثاً أو أربعاً . فقد كانت لديه القدرة على أن يقوم بعملية الحب هذه عدة مرات فى وقت واحد ،

دون أن تتعارض إحداها والأخرى – وهو فى كل واحدة منها مخلص تمام الإخلاص .. فهو يستطيع أن يوزع نفسه وعقله وقلبه بالتساوى بين حبيباته دون أن يجد نفسه مقصراً نحو أية واحدة منهن . بل إنه ليجد فى نفسه القدرة على عشق جميع نساء العالم – الحسناوات منهن – فى وقت واحد دون أية مشقة أو تعب .

وهكذا يظل الفتى يرتع وينعم فى جو من الشعر والهوى حتى تحين الخاتمة ، وهى دائماً تنتهى إلى أحد أمرين : إما أن تحبه الفتاة وتلين له ولا يجد صعوبة فى لقائها فتذهب عنها تلك الهالة التى كانت تحيطها وإياه .. وتذهب معها تلك الفتنة العجيبة ، وتنقشع عن رأسه تلك السحب الملونة الشبيهة بالشفق الأحمر فتترك حسناءه مجرد مخلوقة ، وهو لايحب المخلوقة لذاتها ، بل يحب ضوء الهوى الذى يشع حولها ، ويعشق ينبوع الغرام الذى يغمرها ، فلا يكاد ينالها حتى ينطفىء الضوء وينضب الينبوع فيفقد متعته فيها ، ويتركها إلى غيرها ، وسرعان ما ينغمس فى عملية غرام أخرى .

وإما أن ينتهى به الأمر – وهذا ما يحدث غالباً – إلى أن تصده الفتاة ولا تأبه له ، وتستمر فى إعراضها ، لاتكاد تشعر به ولا تحس له وجوداً . ويستمر فى نضاله وجهاده مستعذباً فى ذلك التعب ، مستلذاً الألم حتى يضيق بها ذرعاً ، فينتقل إلى غيرها ، ويبدأ غراماً جديداً .

وهكذا لم يكن رأس صاحبنا يخلو لحظة واحدة من فاتنة تملأ عليه فراغه ، وتشغل تفكيره ، وكان دائم التحليق فى جو لذيذ ممتع مشبع بالهوى ، ممتلىء بالحب .

وفى ذات ليلة عاد الفتى إلى داره موجع القلب كاسف الفؤاد ، عقب فشله فى إحدى عمليات الغرام التى كان يخوض غمارها ، وارتمى

في فراشه في ضيق ويأس ، فقد كانت هزيمة الليلة هزيمة منكرة .. وشعر للمرة الأولى بخسائر المعركة وجراحها ورضوضها ، ولم يجده نفعاً أن يعزى نفسه بتعويضها بالانتصار في ميدان آخر .. فقد كان قلبه يوحي إليه بأن الميدان الذى منى فيه بالهزيمة المنكرة هو ميدان رئيسي لايمكن تعويضه . وبدأ الفتى يستعيد إلى رأسه غرامياته الناجحة علّ في ذكرياتها بعض ما يخفف عنه اللوعة .. واحتشدت في رأسه صوت مئات الفتيات وعصفت به الأفكار ، واستعصى عليه النوم فقام من مضجعه متثاقلا ، واتجه إلى الشرفة وأخذ يتطلع إلى الفضاء الفسيح وملأ بالهواء صدره ثم أخرجه في زفرة قوية .. علّ الهواء يأخذ معه في خروجه بعض أحزان قلبه .

وثاب إلى الفتى بعض هدوئه وأحس ببعض السكينة تعود إلى نفسه . فتراجع إلى مضجعه متثاقلا ، ولكنه لم يكد يقرب الفراش حتى شعر بنور الغرفة قد أضيء فجأة .

ولم يكن الفتى جباناً أو رعديداً ، ولكنه كذلك لم يكن يخطر على باله أن في الحجرة مخلوقاً غيره ، فأصابه الخوف وصاح فزعاً :

— من ؟

ولم يجبه صوت .. بل أجابته ابتسامة !!

ابتسامة ارتسمت على وجه الزائر الذى تطفل عليه في منتصف الليل فاقتحم عليه مضجعه .. ابتسامة تهدىء الروع ، وتذهب الخوف عن أشد الناس خوفاً .. ابتسامة تنزل على القلوب برداً وسلاماً .

وكان أول ما فعله الفتي ، بعد أن رأى زائره ، أن رفع يديه إلى عينيه «ففركهما» حتى تأكد أنه مازال في اليقظة ولم تأخذه سنة من النوم .

كان زائر الليل من ذلك النوع الذى يرضى الفتى التنازل عن نصف عمره فى سبيل أن يزوره ليلة .. فقد كان يعتبرها ليلة القدر .. التى هى خير من ألف شهر .

وذهب أثر الصدمة من نفس الفتى وبدأ يعود إلى وعيه .. وأخذ يشمل الزائر بنظرات فاحصة من أخمصه إلى قمة رأسه .

كان الزائر فتاة .. أى والله فتاة .. مافى ذلك ريب ولاشك . وفتاة من النوع الذى لولا خوف الإنسان أن يتهمه الناس بالوحشية لأكلها .. نعم لأكلها . ولشعر بعد ذلك بالجوع كأنه أكل حفنة من «غزل البنات» أو «البسكويت البانيليا» .

وبدأ رأس الفتى يدور فى سرعة عنيفة ، بعد أن تأكد تماماً أنه فى حالة اليقظة ، وأن التى أمامه هى حقاً فتاة .. وبدأت تتوارد على ذهنه ألوف الأسئلة السريعة الخاطفة التى لايستطيع عليها إجابة ولاتفسيراً .

من تكون الفتاة ؟ .. سارقة ؟ .. غير معقول .. عاشقة ولهى .. برح بها الحب وأقض الهوى مضجعها .. فلم تطق على فراقه صبراً فقامت تتسلل إليه فى جنح الليل وتحت ستر الظلام ؟

شىء لايصدقه عقل ، حتى ولاعقله هو ! .

ضيفة أو صديقة للأسرة ، تقضى ليلتها فى المنزل ، وقد أخطأت الحجرة ؟ . لايظن .. فكل ضيوف الأسرة وأصدقائها قد قبح الله خلقهم . فلم ير فى الدار مرة واحدة خلقة حسنة أو وجهاً جميلا ، وكأن أهله قد اشترطوا فى أصحابهم القبح والدمامة ، حتى يظهروا هم فى نظره أجمل الناس .

إذن من تكون .. خادمة جديدة ؟ «ياليت» !! ولكن ذلك غير معقول أيضاً ، بل هو من رابع المستحيلات .

طافت برأسه هذه الأسئلة فى سرعة البرق .. والفتاة أمامه تبتسم في سحر ودلال دون أن تنبس ببنت شفة .. وأنعم فيها النظر مرة أخرى فأذهله زيها وملأت ملابسها نفسه دهشاً وعجباً .

كانت الفتاة ترتدى زياً عجيباً أشبه بالأزياء التاريخية ، فكأنها على خشبة مسرح أو فى مهرجان .

ولم يطق الفتى بعد ذلك صبراً .. فانطلقت الأسئلة تندفع من رأسه إلى لسانه ، يستفسر عمن تكون الفتاة ، وعن سبب مجيئها ، وعن سر ملابسها ، وعن مدة إقامتها . وعن .. وعن ..

ونظرت إليه الفتاة فى هدوء وأجابته عاتبة فى صوت عذب رقيق :

– أى لقاء هذا الذى تلقون به زائريكم .. أمامن كلمة تحية أو ترحيب ؟

وشعر الفتى ببعض الخجل ، فقد أنساه منظر الفتاة وزيها العجيب أن يحييها ويرحب بها ، فأخذ يعتذر فى كلمات مدغمة مبهمة .. وأردفت الفتاة :

– ولكن الذنب فى الواقع ذنبى .. إذ كان يجب أن أسرع بتقديم نفسى حتى أزيل دهشتك فلاشك أن زيارتى قد أذهلتك حقاً .. لأنك لم تعتد أن تزورك فتاة فى منتصف الليل ، أو بالأحرى لم تعتد أن تزورك روح فتاة عاشت قبلك بأجيال سحيقة منذ عدة قرون خلت .

وقاطعها الفتى ضاحكا فى سخرية :

– لعلك لاتنوين أن تدخلى فى روعى أنك روح أو شبح !!

ولكن الفتاة لم تضحك بل نظرت إليه نظرة ملؤها الجد والرزانة وأجابته :

– أنا لا أنوى أن أدخل فى روعك شيئاً ، ولا أنوى مجادلتك .. لأن المسألة لاتحتاج إلى مجادلة .. وليس عليك لكى تتأكد مما إذا كنت جادة فى قولى أم هازلة .. أى إذا كنت روحاً أو جسداً .. إلا أن تتقدم منى وتحاول إمساكى أو احتضانى .

وضحك الفتى فقد خيّل إليه أن الفتاة العابثة تحاول استدراجه لاحتضانها ، ولم يكن فى حاجة إلى هذا الاستدراج ، فليس أحب إلى نفسه من ذلك .. فتقدم إليها بثقة واطمئنان .. ثم لف ذراعه حولها واحتضنها فى رفق ولين .

وكانت صدمة للفتى لم يلق مثلها فى حياته ، فقد لف ذراعه فى الهواء واحتضن الفراغ !!

لم يجد هناك مايحتضنه ، فقد كانت لاشىء ، وكأنها مصنوعة من دخان أو كأنها خيال فى الماء !!

وتكلمت الفتاة :

– لاترع ، ولاتخف .. كان يجب عليك أن تصدقنى حتى لاتعرّض نفسك لهذه التجربة المضحكة .

وكان الفتى قد أخذ يتمتم فى ذهول كأن به مساً من جنون :

– روح !! .. أنت روح ؟!

وهزّت الفتاة رأسها فى استنكار كأنها قد ضاقت بالفتى ذرعاً وأجابت :

– إذا كنت تنوى أن تمضى الليلة فى مثل هذا الذهول والتعجب ، فخير لى أن أنصرف .

وعاد الفتى إلى وعيه بعض الشيء ، فصاح بالفتاة :

– لا .. لا .. أرجوك .. يجب أن تلتمسي لى بعض العذر .. فإننى فى الواقع لم أتشرف بزيارة أرواح قبل الآن ، بل لم يخطر لى على بال قط أن هناك أرواحاً بمثل هذه الفتنة والإغراء .. فقد كنت أتخيلها أشباحاً ، لايصيبنا منها إلا الرعب والفزع .

وقهقهت الفتاة ثم اتجهت إلى أحد المقاعد فجلست عليه ، وطلبت من الفتى أن يجلس بجوارها ، ثم بدأت الحديث فى صوت تغشاه رنة الأسى :

– ما كان يجب أن أخلق إلا الآن .. هذا هو العصر الذى كنت أود أن أعيش فيه .. عصر الحرية والنور .. عصر الحب والهوى ، لقد كان الزمن الذى عشت فيه غريباً علىّ ، وكنت غريبة عنه .. كان الناس فى ذلك الوقت يحسون بأنى مخلوق شاذ ، وكنت أحس أنا بأنهم سخفاء مجانين .. لقد كانوا فى ذلك الزمن يحرّمون الحب ويعتبرون الفتاة العاشقة مجرمة أثيمة .. وكان على الفتاة ان تتزوج من يحبه أبوها لامن تحبه هى .. تصوّر ياصاحبى أنهم قتلونى بسبب الحب .

وصاح الفتى فى فزع :

– قتلوك !!

ولكنه عاد إلى نفسه وذكر أن الفتاة ليست إلا روحاً ، وأنه ليس هناك عجب فى أن تكون قد قتلت .. فأشار إليها أن تستمر فى حديثها .. واستمرت الفتاة تقول :

– قتلونى لأننى أحببت .. وفى زمنكم هذا يخيل إلىّ أنكم لاتفعلون شيئاً غير الحب .. لقد كان كل ما فعلت هو أننى أحببت ذات مرة ورفضت الزواج إلا ممن أحب ، وهنا كانت الكارثة ؛ لقد أصر أبى على قتلى ، ففررت منه واستغثت بحاكم المدينة . فأغاثنى .. ولكن أبى سرعان ماتبعنى إلى هناك .. فقص على الحاكم القصة .. فلم يكن من الحاكم نفسه إلا أن أمر بقتلى .. لقد كانوا وحوشاً فى ذلك الوقت .. على أية حال دعنا الآن من هذه الذكريات المريرة ، ولنتحدث فيما لايجلب للنفس الحسرة والألم .. لنتحدث فيما نحن فيه الآن ، فلشد ما يسرّنى أن أكرر لك الزيارة ، وأن نكون أصدقاء ، وإن شئت عشاقاً ، لأنى ظمأى إلى الهوى ، وليس هناك ينبوع يفيض بالهوى كما تفيض به أنت .. وإنى أحس أن كلا منا سيسعد بصاحبه ويسعده .. فأنت تريد الحب وجوه المشبع بالسحر .. إنك لاتريد المادة ، ولاتريد شيئاً له نهاية .. وهذا هو ما سأهبه لك .. سأعطيك كل شىء وأعطيك لاشىء .

وتكررت زيارة الفتاة للفتى ، ونشأ بينهما حب جارف فيّاض .. وكانت الفتاة عجيبة حقاً ، عرفت كيف تملك على الفتى مشاعره . وكيف تبعد عن نفسه السآمة والملل ، وتنتزعه من عالم الإنس إلى عالم الروح .. فهيأت له كل ما يسليه ويطربه من بين الأرواح .. فكان الفتى أحياناً يجد نفسه فى حجرته وسط عشرات الراقصات وآلات الطرب وأصوات الغناء من العهود الغابرة والأزمنة الخالية .. حتى إذا ملّ الضجيج وجد نفسه وحيداً مع فاتنته فى جو ساحر شعرى .. وهكذا ظل الفتى ينتهب اللذات من الليالى الحالمة التى أغرقته فيها الفتاة .. وعجب الناس لما أصاب الفتى من زهد فى الغرام ومن تبكير فى العودة إلى مضجعه ، ومما كان يبدو عليه من استغراق فى التفكير وحب

للوحدة ، ومن ذهول وشرود حتى لقد خيّل إليهم أنه تنسك واتخذ مسوح الرهبان .

وفاض الهوى بالفتى .. وبدأ يحس أنه لم يعد يقنع من الفتاة بالروح دون الجسد . ولم يعد يلذ له ذلك الجو الذى كان يلذ له من قبل ، بل شعر أنه يريد الفتاة ذاتها .. يريد أن يطبق عليها بيديه فيحس بحرارة جسدها ويلمس نعومة بشرتها .. لقد ملّ وكره أن يعيش مع لاشىء ، ويعشق الهواء والفراغ .

وصارحها الفتى ذات ليلة بحقيقة شعوره ، فأطرقت فى حزن وأسى وأجابته :

– كم كنت أخشى ذلك ، ولكن كان يجب علىّ أن أتوقعه ، ليس فى استطاعتنا الآن ياصاحبى إلا أحد أمرين : إما أن تصير أنت روحاً فيذهب عنك ذاك الشعور البشرى ، وأما أن أصير أنا جسداً فأستطيع أن أهب لك ما تشاء من اللذة الملموسة .. ويخيل لى أن من الأنانية والجنون أن أسألك أن تقتل نفسك فتكون روحاً ، فلم يبق أمامى إلا أن أحاول أن أكون جسداً .

وسألها الفتى فى يأس :

– ولكن كيف يمكنك ذلك ؟

– سأحاول أن أبادل إحدى الأرواح فلعلها تفضل الصعود إلى السماء وتتنازل لى عن جسدها لأعيش فيه .

واختفت الفتاة فلم يعد الفتى يراها بعد ذلك .. ورآه الناس وقد تبدّل ذهوله وشروده إلى حزن وكآبة وبأس وقنوط ، وبدا كأنه قد جن فعلا .

وفى ذات يوم صادف الفتاة التى كانت آخر من عشق .. والتى منى فى عشقها بالهزيمة المنكرة .. فحاول الابتعاد عنها .. غير أنها استدعته ببصرها ، ونادته بعينيها ، فلم يتردد فى الذهاب إليها .

ودهش الفتى عندما وجد أن هزيمته السابقة مع الفتاة قد انقلبت انتصاراً ، وأن صد الفتاة قد بات لهفة ، وإعراضها قد صار ولهاً وشغفاً .

وانغمر فى غرامه الجديد ، ونسى زائرة الليل التى كاد يجن بها ، وشغلته عنها معشوقته القديمة الجديدة .

وكان غرام الفتى فى هذه المرة من نوع جديد .. نوع ملك عليه نفسه .. وعلمه أن هذا هو الحب .. وأن ما مضى مما كان يظنه حباً .. لم يكن إلا فنون لهو وعبث .

لقد كان الفتى لا يبصر فى دنياه غير فاتنته الجديدة .. وكان رأسه مليئاً بها .. يراها نسيج وحدها .. فما شع السحر إلا من عينيها .. وما تدفقت الفتنة إلا من شفتيها .. وما سطع الجمال إلا من وجهها .

لقد كان تيار الهوى فى هذه المرة جارفاً فياضاً .. فاندفع معه الفتى بلا روية ولا تفكير .. وانتهى به الأمر إلى طلب الزواج من الفتاة .

وفى ليلة الزفاف أبصر عروسه وقد ارتدت ثوباً شديد الشبه بذلك الذى كانت ترتديه زائرة الليل .

ودخلت العروس إلى حجرته فأدهشه شدة الشبه بينها وبين زائرة الليل .. وزاد فى دهشه أنها كانت تبدو وكأنها تعرف كل تفاصيل الحجرة ودقائقها ، حتى بات يخشى إذا ما ضمها إليه أن يجدها روحاً لاتشبع من شوق ولاتروى من غرام وشغف .

وتقدم إليها متردداً .. ومد يده فى بطء وتحسس ذراعها البض وجذبها إليه فى لين ورفق .. كأنما يخشى عليها أن تتطاير في الهواء .. وضم جسدها إلى جسده .. وشفتيها إلى شفتيه .. ليتأكد أنها حقيقة وليست وهماً أو طيفاً .. فأحس من جسدها بدفء .. ومن شفتيها بحرارة .. ومن أنفاسها بلهيب يستعر .. لقد كانت هذه المرة امرأة تشبع من جوع ، وتروى من ظمأ .

وسمع الفتاة تهمس فى أذنه قائلة :

– لا أدرى ما الذى جعل حبك ينشب مخالبه فى قلبى فجأة .. ولا أدرى ما الذى قلب ذلك البغض حباً وولهاً .. !!

وتمتم الفتى بصوت لم تسمعه الفتاة :

– لابد أن صاحبتنا قد وجدت من يبادلها المكان ، فحلَّت هى فى الجسد . وصعدت الأخرى إلى السماء .

ورأى الناس الفتى بعد ذلك قد عاد إلى حالته الطبيعية .. فلم يعد يُرى مشدوهاً أو مذهولا ، ولم يعد يسجن نفسه فى مضجعه .

وذهب كل ما به من يأس وقنوط ، وحزن واكتئاب .

★ ★ ★

جريمة ملاح

.. كان ذلك فى ليلة من ليالى الشتاء والريح تصفر فى الفضاء وتعول وترن .. ولسان من لهب النار يرتجف فى مهب الريح ..

والقمر يظهر بين آونة وأخرى ، فيستقر بضوئه الفضى المتلألىء نواحى «المركب» وجوانبها .

وفى مؤخرها بدا وجه الملاح أغبر مشعثاً ، وخشنا جافاً .. وكان من لحظة إلى أخرى كمن يتمتم كلمات غير مسموعة .

وهبت الريح ثانية صرصراً عاتية ، انكمش لها الملاح ودفن رأسه ركبتيه ، ثم عاد ورفعها وفى عينيه بريق ولمعان .

كانت ترقد هنالك تلك المرأة التى حملها من (البلد) ليذهب بها مصر مع مايشحنه من فول وقمح .. كانت رثة الملابس باليتها ، اها البلى والفقر من صنوفه أثواباً .. ومع ذلك – والحق يقال – ت فتانة مغرية جذابة . ولم يحل ثوبها المهلهل الرث دون إظهار بيتها وإغرائها .

أما ذلك الطفل الذى كانت تحمله فهو لايدرى عنه شيئاً ألبتة .. ربما كان ابنها .. وربما كان أحد أقاربها ، وربما لم تكن لها به صلة .

على أية حال فإن الطفل لايهمه قليلاً ولا كثيراً ، إنما تهمه المرأة .. إنها بيت القصيد .. إنها قنيصة المطاردة وصيد الصائد المكتنز السمين .

وعادت الأفكار تتخبط فى رأسه .. وأخذ الشيطان يهمس فى أذنه :

– ماذا يهمك يارجل ؟ .. قم وأقض منها وطرك .. وخذ منها مأربك .. إن الحياة لذة واستمتاع .. مم تخاف وماذا ترهب ؟ .. أتخاف أن تصيح ؟ لتصح ولتصح ، ولتستنجد وتستغيث .. فلا منجد ولا مغيث .

وكأنما سرّه حديث الشيطان . فنفض عن نفسه ما اعتراه من خمول ، وهب واقفاً ، وأخذ يقترب فى خطوات بطيئة مضطربة .

والطفل !! .. تالله إنه لم يخطر له قط على بال .. تبّاً له ذلك المخلوق الصغير .. لو لم يكن هناك لقضى الأمر .. اللعنة عليه .

ما أغباه وأضيق عقله . ماذا يهمه من الطفل ؟ لينحه جانباً ..

وقهقه ضاحكا وهدأ نفسه . ثم عاد يتقدم .

ونظر فإذا بكتلة مغطاة بلحافه القديم الرث .. عجباً إنه لايدرى أين قدم المرأة وأين رأسها .. بل إنه لا يدرى أين الطفل وأين المرأة ..

وانتظر برهة ، ثم مد يده وأزاح الغطاء قليلا ، فظهر له وجهها .. واستمر فى إزاحته شيئاً فشيئاً حتى ظهر شعر الطفل وقد احتضنته المرأة .

وانتفض قليلا من رؤية رأس الطفل ، فنهر نفسه :

– أتخاف الطفل ؟ .. ما أجبنك .. تقدم يا رجل !

وتشجع الرجل ثم أزاح الغطاء قليلا .. آه .. وخرجت من صدره صيحة مكتومة تشبه الحشرجة .

ما هنالك ؟؟ . إنهما عينا الطفل تبرقان فى الظلمة وتحدجانه فى قسوة ويحه !! أتانك عينا طفل ؟ . كلا وربى . إن عيون الجن لأقل منها إرهاباً وأخف أثراً ! .

وخطر له أن يضع أصبعيه فى العينين وينتهي منهما ، ولكن الجرأة لم تواته .. فأعاد الغطاء ، وتراجع رويداً رويداً .

لو لم يكن هناك ذلك الطفل اللعين ، أو لو كان أعمى .. وضحك بوحشية .. أيخاف من طفل لا حول له ولا قوة !؟

وقال لنفسه :

– اللعنة على ابن الخبيثة .. ماذا علّى لو خنقته ورميت بجثته فى الماء ؟

وللمرة الثانية قام إلى المرأة ، وبيد مرتجفة أخذ فى إزاحة الغطاء حتى ظهر شعر الطفل فوجهه .. وإذا بعينيه تحملقان فى وجه الملاح .

لعنة الله عليه .. ألا ينام ؟ . إذن فسيعرف كيف تخمد أنفاسه إلى الأبد .. ومدّ يده وقبض على عنق الطفل وشدّ عليه حتى لايجعله يصيح أو يصرخ ، وصدرت من صدر الطفل حشرجة ونظر إلى الرجل بغرابة .

وارتجف الرجل وارتعدت أوصاله .. لِمَ ينظر إلىّ هكذا ؟ .. لعله قد أدرك ما يود الرجل إتيانه .

ورفع الطفل من عنقه وسار به إلى آخر السفينة .

وأغمض عينيه ، وضغط على عنق الطفل ، وعاد نفس الطفل يتحشرج فى صدره ، وهبت الريح أشد ما تكون صفيراً وعويلا ، وأنيناً ورنيناً ، وارتفع لهب النار بعد أن كاد يخبو ، وبدا على ضوئه وجه الملاح قاسياً شريراً ، وما زالت يداه تضغطان على عنق الطفل .

وتدلى لسانه حتى آخره ، ومال عنقه ، فتنفس الرجل الصعداء ، ورفع جثة الطفل وألقاها فى لجة البحر ، وطاح الرشاش وانداحت دوائر الماء ثم سكن الرشاش وعاد سطح الماء كما كان أملس هادئاً ، وابتلع اليم الجثة .

والآن ليقدم على ما يريد دون خوف أو وجل ، فقد خبت عينا الطفل ولم يعد هناك ما يرعبه أو يخيفه .. واقترب من المرأة ، ولكن كان يخيل إليه أن رجليه قد ثقلتا ، فأضحى يجرهما جراً ، ثم رمى بقطعة خشب إلى النار فارتفع لهيبها .

ونظر إلى كمه فإذا عليه بقعة حمراء .. «دم» !! وارتجف من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، وعلت بصره غشاوة فحجبت عنه النيران .. وما لبث أن عاد إلى نفسه .. وبسرعة البرق وبمنتهى الشدة أمسك بالقطعة التى عليها بقعة دم ونزعها بجنون فتمزقت وانفصلت عن ثوبه ، ثم رمى بها فى اليم فابتلعها كما ابتلع من قبلها جثة الطفل .

واقترب ثانياً من المرأة .. وأزاح الغطاء رويداً .

يالله !! إنهما ما زالتا هنالك .. تحملقان فيه .. وتحدجانه بقسوة ، وحاول أن يضحك من ذلك الخاطر الثقيل ، ولكن شفتيه تصلبتا ، وأخذت يداه فى الارتعاش .. عجباً ! لماذا يخاف ؟ ومم يرتخف ؟ .. كل شيء على مايرام .

وحاول أن يبعد عن نفسه ذلك الخوف ولكن عبثاً .

وبحركة آلية ازاح الستار ثانياً .

ويل له .. إن عينى ذلك الطفل اللعين ما زالتا تحدقان فيه .. نعم لاشك أنهما تكادان تلتهمانه .

وتقلصت يداه وشفتاه ، وخجل من ذلك الخوف .

لم تعد هناك عينان .. فقد ذهبتا قطعاً وخبا لمعانهما .. ولكنه الوهم .

ولكى يتأكد من ذلك مدّ يده وجس مكانهما ، ولكنه لم يلق شيئاً ، وعاوده الاطمئنان بعض الشيء .. ومع ذلك فإنه لايكاد يبصر مما أمامه سوى هاتين العينين فأعاد الغطاء وابتعد بسرعة هارباً . إنه لايستطيع .. إنه لايجسر .. تلك العينان اللعينتان تكادان تلتهمانه .

رباه !! .. إن العينين تتبعانه إلى حيث يذهب ! ..

وخبأ وجهه بيديه حتى لايراهما . ثم نظر من خلال أصابعه فإذا بالنار قد ارتفعت واستعرت .. ثم انقسمت إلى قسمين ، واستدار كل منهما ، وإذا بهما عينان تحملقان فى وجهه ، وإذا بالسفينة قد أضحت كلها عيوناً وأشباحاً تصرخ فيه صراخاً مفزعاً كأنها صاعقة توشك أن تنقض عليه .

وفجأة ، ودون أن يدرى ماهو فاعل ، رمى بنفسه فى لجة الماء فوق الأمواج كأنما حمله إعصار ، وظل يسبح بجنون ليبعد نفسه عن السفينة وليفر من تلك الأشباح والعيون .. وأخيراً وبعد أن أنهكه التعب وخارت قواه التفت خلفه ، فإذا بالسفينة تعلو وتهبط والنار كما هى .

لعنة الله عليه .. ماذا اعتراه ؟ وماذا أخافه وأرهبه حتى يلقى بنفسه فى الماء ويترك سفينته خاوية خالية ؟ .. وارتجف من برودة المادة وارتعد .. وأخذت الأفكار تتوارد على رأسه بسرعة البرق .. لقد قتل الطفل ، فماذا يقول للمرأة إذا سألته عنه ؟ .. وبم يجيبها ؟ لابد أنها شاكية ، ولابد أن نصيبه القتل والإعدام . إذن ليقتلها هى الأخرى .. كلا .. كلا .. سيكون الجزاء مضاعفاً لاشك فيه .. إذن فليختصر الطريق وليقتل نفسه مادامت هذه هى النهاية المحتومة وليحدث بعد ذلك مايحدث ، وبعض الجرم لاشك أهون من بعض .

وغطس فى الماء .. وظهرت على السطح عدة فقاقيع ، ولكن حب الحياة عاوده ، فرفع رأسه من الماء وهو ينتفض ويرتجف .

لقد عزم على أن يعود ثانية .

إن أقصى ما ينتظره هو الموت .. فلَم يتسرع ويحكم على نفسه به ؟ .. وبكل ما تبقى من قواه سبح تجاه السفينة وقد لاحت له نيرانها عن بعد ، واقترب من السفينة ، فإذا بالمرأة قد استيقظت وأخذت تضج بالبكاء والعويل ، وهنا مرّ بفكره خاطر كاد يطير له من الفرح والسرور .. لِمَ لايقول للمرأة بأن طفلها قد تدحرج ووقع من السفينة ، ثم رمى هو بنفسه فى الماء لينقذه فلم يفلح ! ..

وتقدم الملاح ، كمن حكم عليه بالإعدام ، ثم جاءه العفو .. فصاحت به المرأة قائلة :

– أين ولدى ؟ أجبنى !؟

إذن فلقد كان الطفل ولدها ، لا بأس فى ذلك ولا حرج . لن غير هذا من الأمر شيئاً ، وكل ما يجب عليه أن يكون ثابتاً ، رابط جأش .

وأمسك بحافة السفينة ، ثم وثب إلى الداخل ، وقال :

– لقد ذهب .

– ذهب ! أتعنى غرق ؟ ..

وأمسكت به تهزّه هزّاً عنيفاً ، ثم صاحت :

– خبّرنى أيها الرجل .. لِمَ غرق ؟ وكيف ؟

– هوّنى عليك .. لقد كان هناك (وأشار إلى المكان الذى كانت نام فيه) وكنت جالساً فى مؤخر السفينة .. ولم أشعر إلا وصوت سقوط شىء فى الماء يقرع أذنى .. لم يكن يخطر على بالى قط أنه هو .. صدقينى إنها الحقيقة .. ورميت بنفسى فى الماء .. ولكن الأمواج كانت قد حملته بعيداً .. كفكفى دمعك ، وخففى من حزنك لوعتك ، إنها دنيا فانية .. كلنا إلى التراب نصير .

وأخذت المرأة تبكى فى تشنج ، فأخذ يهدئها .

وفجأة رفعت إليه وجهها وأخذت تقول فى صوت متقطع :

– ويلي .. لقد كان هذا جرمى .. إنى المذنبة الآثمة .. إنك لاتدرى من الأمر شيئاً .. (وحملق الرجل فى وجهها ، لعل المرأة قد جنّت ، وكاد يصيح بها : يا مسكينة ! إنك أنت التى لاتدرين من الأمر شيئاً) .. إن ذلك الطفل لا أب له .

وعادت المرأة تهتز من البكاء واستمرت :

– لاتكن قاسياً في الحكم عليّ .. لم أكن وحدى المذنبة ، فقد أخذنى الرجل بالقوة ، وكنت ضعيفة فاستسلمت ، وأخيراً تركنى .. لقد كان وحشاً ، ولما ذهبت إليه بالطفل صاح بى : اذهبى .. ألقيه على قارعة الطريق .. اقتليه .

وسكتت برهة ثم تابعت حديثها بقولها :

– وانسللت من أهلى وركبت معك حتى ألقيه بعيداً فى غير بلدنا ، وإلا لو عرفوا .. لكان القتل نصيبى .

وقال الرجل :

– وأخيراً ؟!

– وأخيراً !! .. لقد حدث مارأيت .. لقد أنقذنى الله ، وأراد ألا تلوث يدى بدمه فوكل إلى اليم تلك المهمة البغيضة الشاقة .

ومسحت دموعها بكمها ، ونظر إليها الرجل على ضوء النيران المشتعلة فأبصر فيها الكثير من ضروب الفتنة والإغراء .. وبدا له صدرها ممتلئاً مكتنزاً واستطاع أن ينفذ ببصره من خلال ثوبها الأسود الشفاف .. فيرى بعين الوهم تفاصيل جسدها الناضج قطعة قطعة .. فبدأت لهفته إليها تطغى على كل ما عداها من مختلف المشاعر التى تضطرب فى نفسه .. لقد تبخر عن نفسه شعوره بالجرم الذى ارتكب ، وخمدت فيها نار الندم الذى أحس به منذ لحظات ، ولم يعد يحس للمرأة رحمة ولاشفقة .. لقد سيطر على نفسه شعور واحد ، هو رغبته فى اقتناصها طوعاً أو قسراً .

لقد تملكه شيطان الفجور ، وهيأ له الغنيمة هينة لينة ، فودّ لو أمسك المرأة بين يديه ثم مزّق عنها ثيابها ، وتحسس ذلك الجسد الناعم الدافيء وضمه إليه بشدة وعنف ملقياً بشفتيه فى أتون شفتيها .

وتصاعد الدم حاراً فى رأسه وأحس بوجهه على وشك الالتهاب ، وعصفت بنفسه نيران الرغبة التى تتأجج فى صدره ، ونظر إلى وجه المرأة ، والتقت عيناهما ، فارتجفت من نظرته وارتعدت ، وساد السكون برهة ، ثم انقض عليها فجأة ، فقاومت ، ثم استسلمت .. وبين عشية وضحاها كان قد قضى منها وطره .

وتركها وذهب إلى مؤخرة السفينة متظاهراً بإصلاح النار ، والندم يقرع ضميره ، ويخزه وخزاً شديداً . ثم جلس ودفن رأسه بين ركبتيه وأخذ يفكر .

يا لسخرية الحظ وهزؤ الأقدار ! أرأيتم أعجب من هذا !.. لقد أزهق الرجل روحاً .. ثم أتى بأخرى بديلا عنها .. ذنب أعظم من ذنب ، وجرم شر من جرم .. ربما قد أراح بإزهاق الروح الأولى .. ولكنه أجرم على أية حال ، بل إنه أفظع جرم يعتبره الإنسان والقانون ، أما الجرم الثانى فهو فى عرفه أشد وأنكى ، ولو كان الإنسان يتغاضى عنه ويتناساه ظلماً منه وجوراً .. قتل الإنسان ما أكفره وأظلمه .. يصبح ويمسى وهو يرتكب هذا الإثم دون أن يؤنبه ضميره أو يخزه ، بل إنه ليسر به ويفتخر كأنه لايدرى أنه قد ارتكب من الذنب أفحشه ، وأتى من الإثم أشده وأعظمه . لابد أن يكون فى هذه الدنيا خطأ .. وإلا لم يترك القانون ذلك المذنب الذى يأتى بروح لا لشىء سوى ملاقاة الشقاء والتعب والمصائب والخطوب ، ثم يعاقب ذلك الذى يخلص الأرواح من كل ما تلاقيه من أرزاء ونكبات .. هى غباوة من الإنسان

وحمق .. على أية حال فقد أتى الذنبين . وارتكب الجرمين ، فهو مجرم في عرف نفسه ، وفي عرف القانون ، ومع ذلك فسيتمتع بحياته وحريته كأنه ما ارتكب فعلا إدّا ، ولا أتى أمراً نكراً .

ورفع بصره إلى المرأة ، فأخذته الشفقة عليها .. واستمر يحدث نفسه :

– مسكينة تلك المرأة ، لا ذنب لها قط .. فعليها ينصب كل عقاب ، وفي عنقها تقيد كل جريرة .. هي الطريدة .. هي المنبوذة .. لا .

أما المجرم الحقيقي فسيظل يكرر جريمته في كل يوم وفي كل حين ، لا يردّه عن إثمه راد ، ولا يردعه عن غيه رادع . لقد حملها طفلا ، هو في الواقع ابنه ، وبعد سنة يظهر ذلك الطفل على وجه الأرض دون أن يدرك من أمره شيئا .. ومن يدرى ربما تكررت مأساة اليوم ، وربما قتل ابنه رجل آخر .

وهنا عض على أسنانه من الغيظ والحنق .

لابد أن ينقذ ابنه .. إنه ابنه فوق كل اعتبار .

وتذكر منظر الطفل وعينيه فارتجف ، وذرفت من عينيه دمعتان ، ونظر إلى المرأة فإذا بها تهتزمن البكاء .

وانتفض ، ثم قام كمن نوى أمراً .

واقترب من المرأة ، وربت على كتفيها ، فرفعت عينيها إليه ، فقال :

– لا تبكي .. كفي عن هذا الحزن والعويل .. سينتهي كل شيء على ماتحبين وما تشتهين .. سنتزوج .. أيرضيك هذا ؟ .

وتنهدت المرأة ، وفغرت من الدهشة فاها ، فأخذها من يدها وضمها إلى صدره فى رفق وحنو قائلا :

لاتخافى ولاترتعدى هكذا .. اقتربى من النيران .

وغطى كتفيها بثوبه .. وهبت الريح نسيما ، وداعبت لهب النار، فاشتد وهجها .

* * *

وصل المركب إلى ساحل روض الفرج ، وأفرغ ما فيه من شحنة ، ثم قفل راجعاً إلى (البلد) .. وذهب الملاح فخطب المرأة من أهلها . وتم زواجهما .. وبعد سنة رزقهما الله طفلا .. ما نظر أبوه إلى عينيه إلا ارتعد وارتجف ، وتذكر تلك الليلة الليلاء فسقطت من عينيه دمعة حزن وألم .

* * *

أنين

حملت إلينا الريح نغماته ، فما كانت نغمات ، بل هى زفرات وأنات ، وسرى إلينا فى سكون الليل غناؤه ، فما كان غناء ، بل هو عويل وبكاء ، ونفذت إلى قلوبنا ألحانه ، فما كانت ألحاناً ، بل كانت أحزاناً وأشجاناً .

عجبت له كيف تحركت أصابعه على القيثار ، فأسالت الدموع وأثارت اللوعة ، وحركت فى النفس الشجو والشجن .. وكيف اهتزت الأوتار فى يده ، فما انبعثت منها غير همسات خفيضة يملؤها الأسى والألم .

ترى ماروّعه فى الحياة ، فتقطع ما بينه وبين الأمل والرجاء ؟ . وماذا أضنى نفسه فأطار منها البِشر والمرح ، وملأها بالجزع والشقاء ؟

لم أكن قد رأيته بعد . ولم أكن أعرف عنه إلا تلك النغمات العجيبة الحزينة التى كانت تحملها إلىّ نسمات الليل ، فتنفذ إلى نفسى حتى تكاد تبكينى .. وسألت عنه فقيل لى إنه موسيقى عجوز ، مسه

خبل ، وأحنى عليه الدهر ، فهجر الناس والحياة ، وعاش فى كوخ يعزف لنفسه تلك النغمات الحزينة التى أسمعها كل ليلة .

وأصابنى الأرق ذات ليلة ، فخرجت أهيم فى ظلماتها ، وتسللت من الدار حتى لا أزعج أصحابها الذين أنزل ضيفاً عليهم ، وأخذت أسير على غير هدى .. فقد كنت غريباً عن المنطقة ، قليل المعرفة بدروبها ، ولم يطل بى السير حتى بدأت النغمات تتصاعد إلى سمعى ، وكانت فى هذه المرة جلية واضحة . فأدركت أنى لابد قد اقتربت من كوخ الموسيقى العجوز .

وساقتنى قدماى إلى حيث ينبعث النغم ، وكان الصوت كلما ازداد وضوحاً ، يزداد نفوذاً إلى القلب ، وتأثيراً فى النفس .. وبدت لى قدرة صاحبه ومهارته الهائلة .

ولاح لى شبح الكوخ ، ثم أخذ يبدو لى شبح العازف نفسه ، وقد جلس أمامه فوق مقعد حجرى ، ملتفاً بعباءة فضفاضة سوداء ، وقد انحنى على قيثاره منهمكا فى العزف .

واقتربت منه برفق ، وحييته فى أدب .. فما التفت إلىّ . ومارّد التحية ، بل استمر فى عزفه كأن لم يقترب منه أحد !

وأسقط فى يدى ، وشعرت ببعض الحيرة .. وتلفت حولى ثم هممت بالانصراف . ولكن صوتاً أجش صاح بى من داخل الكوخ يستوقفنى :

— من هناك ؟

وأطل صاحب الصوت برأسه ، فإذا به عجوز أبيض الرأس ، معرورق الوجه ، وعاد يسألنى :

- ألك حاجة ياسيدى ؟

- لاشيء ألبتة ، لقد أشجانى اللحن ، وساقتنى قدماى من حيث لا أدرى إلى مبعثه ، وكنت أريد أن أهنىء صاحبه ، ولكنه لا يكاد يحس وجودى !

- هو لايكلم أحداً ، ولايحس وجود أحد .. فخير لك ألا تتعب نفسك معه .

- ولكن أهناك مايمنع من الاستماع إليه ؟

- كلا .. استمع ما شئت .

وتكرر ذهابى إلى الكوخ بعد ذلك ، نشأت بينى وبين العجوز صداقة وألفة .

واستمر الفنان فى شذوذه وغرابة أطواره ، وهو دائب الصمت والوجوم ، شارد النظرات ، تائه الفكر ، لايفعل شيئاً إلا العزف الحزين على قيثاره ، ولم يكن يعيرنى أدنى التفات أو اهتمام ، فكأنى غير كائن . وكنت أعجب فى نفسى لهذه العباءة الثقيلة السوداء التى يتدثر بها ، فقد كان الوقت صيفاً ، وحرارة الجو تجعل المرء لايكاد يطيق ثيابه .. بله تلك العباءة الصوفية التى تزهق الروح ، وتخمد الأنفاس .

وسألت صاحبى العجوز :

- فيم تدثره بهذه العباءة التى يرزح تحتها ؟

- إنه يخشى البرد .

- برد !! .. أفى هذه الليالى يخشى البرد ؟ .. فماذا يخشى إذن فى ليالى الشتاء ؟

– ليست المسألة مسألة صيف أو شتاء .. فهو ينفذ وصية زوجته ، إذ أوصته ألا يخرج دون عباءة حتى لايصاب بالبرد .

وقهقهت ضاحكا ولكن العجوز لم يضحك بل نظر إلىّ وقال في هدوء :

– لو علمت قصته لندمت على هذه الضحكات !

وساد السكونَ برهة ، ثم بدأ الرجل يتكلم فى صوت حزين قائلا :

– منذ بضع سنين ، كان صاحبنا فتى فى عنفوان الشباب ، وكان موسيقياً نابغاً ، وفناناً عبقرياً ، وكانت ألحانه فى كل قلب ، وأغانيه على كل شفة .. إذا غنى ، فكل مافى الكون روح يتغنى .. وإذا صدحت أنغامه ملأت النفوس طرباً ، والأفئدة متعة وحبوراً .. فكأن الدنيا كلها قد مسها سحر .. فإذا الجماد يرقص ، والحيوان ينطق ، والطير نشوان ، والشجر والزهر يثملان .

والنجـوم خافقـــات   مثلما تهفو القلـوب
والغيوم مهجـة كـــا   دت من الوجد تذوب

ونفخ صاحبنا الروح فى الناس ، وصقل الكون فى نظرهم ، وملأ الدنيا أمامهم رونقاً وبهاء ، وعلمهم الحب ، فإذا بالناس جميعاً عشاق محبون .

وأخيراً وقع هو فيما أوقع الناس فيه ، فإذا به فى غمضة عين .. صب هائم !

ولاعجب فى أن يحب الفتى ، ولكن العجب العجاب فى أن يكون غرامه فاشلاً . فبقدر ما كان الفتى يبدو للناس ماهراً فى اقتناص القلوب

عالماً بفنون الغرام وأساليب العشق والهيام ، إذا بالعجز يتملكه ، وبمهارته تخونه ، عندما سقط فى الهوى فعلا ، وإذا به أمام الفتاة التى وقع فى شركها ، قد أضحى كالطفل الأبله الخجول ، وإذا بكل فنون الغرام ، وأساليب العشق ، قد تطايرت من رأسه .

وبات العاشق المستهام يتقلب فى غرامه على جمر الفشل والحرمان .. وأضحت روحه قلقة حائرة تتأرجح بين اليأس والرجاء ، حتى جاء يوم علم فيه أن أمله قد ذرته الرياح ، وأن حياته قد انطفأ سراجها ، وخبا نورها ، إذ جاءه نبأ بأن فتاته ستزف إلى ثرى من أثرياء المدينة .

وفى ليلة الزفاف ، أحس الفتى شيئاً يدفعه إلى الذهاب هناك .. فحمل قيثاره ، وتوجه إلى الحفل الصاخب ، ورآه القوم فضجوا بالهتاف ، وسرت فيهم النشوة والفرحة .

وشدا الفتى فأسكر الناس ، وملأ النفوس طرَبا .. وأمسك بقيثاره فأفنى نفسه فيه ، وسالت روحه من بين الأوتار ، فإذا بها نغمات عذبة رقيقة .

وقبيل الفجر نهض ممسكاً بقيثاره وهمّ بالإنصراف ، ونفسه الملتاعة تجيش بالحزن والأسى .. فإذا بالفتاة العروس تقبل عليه ، وقد حملت بين يديها عباءة من الصوف ، فأعطتها اياه وهمست قائلة :

– أخشى أن يضرّ بك البرد إذا خرجت فى الهواء .. فخذ هذه العباءة تقيك شرّه .

وبهت وجه الفتى وأجاب مشدوهاً :

– ولكن أيهمك أمرى إلى هذا الحد ؟ .

وبدت في عينيها نظرات رقيقة تفيض بالعطف والحنو .. جعلت الفتى يحس كأنه فى حلم ، وأجابت فى صوت هامس :

– بل وأكثر من ذلك !

وكاد الفتى يجن ، فما كان يخطر بباله قط أن الفتاة تحنو عليه أو تحبه ، ولكن أى فائدة فى أن يعرف ذلك الآن ، وقد أصبحت منه على مدى الجوزاء ، وأحس أن رأسه يوشك أن ينفجر ، وهمس فى صوت مبحوح :

– لِمَ لم تخبرينى قبل الآن ؟!

– وماذا كان يجدينى أن أخبرك ، وأنت تعشق كل نساء المدينة ؟!

– يا للحمقاء .. إننى لم أعشق غيرك ، ولم أهو سواك !

وبرق السرور فى عينيها ، ولكن سرعان ما اختفى ، ليحل مكانه حزن عميق .. وهزت الفتاة رأسها ، ثم همست فى يأس :

– لقد ذهب العمر سدى !

ولكن الفتى كان قد اعتزم ألا يترك عمره يذهب سدى ، فنظر إلى الفتاة ، وقد لمعت عيناه ، وقال فى عزم وإصرار :

لا ياصاحبتـــــى ، ولـــــم يـــــذهب سدى .

وفى سرعة البرق حملها بين ذراعيه .. ولم تمض لحظة حتى كان قد وضعها فى عربته ، وانطلقت تسابق الريح !

وابتعد الفتى بغنيمته عن المدينة ، وأخذ يجد فى السير حتى شعر أنه بات بمنأى عن القوم ، ومأمن من مطاردتهم .

وكنت أقطن وحيداً في هذا الكوخ فمرّ بيَ العاشقان ، ووقف الفتى يسألني عن مكان يأوى إليه ، فعرضت عليه أن يستريح برهة حتى أدله على ما يطلب .

وجلسنا نتحدث .. ولم يستطع الفتى لفرط سعادته أن يكتم عنى نبأه فسرد قصته ، والبشر يترقرق في وجهه ، والفرح يبرق في عينيه ، وكنت أسمع عن الفتى الفنان من قبل ، فسرّني أن أراه ، وأسعدنى أن أستمع إليه وأن أصادقه .. وتمنيت لو رضى أن يعيش معى ، فيؤنس وحدتى . ولقد سألته ذلك فقبل على الفور ، وعاش الزوجان الجميلان في كوخى الحقير ، فملأه بهجة وحبوراً وسطع ضوء الحب فيه ، فإذا به كأنه قصر يتلألأ .. وفاض النعيم علينا فإذا بنا في «جنة راق بها الحسن وراع» .

وانغمس الفتى في نشوة من الغرام ، وفيض من المتعة ، وكان ولعه بالفتاة يكاد يبلغ حد العبادة .. فكانت عيناه لاتبصران سواها ، ولسانه لايشدو إلا بها !

ومرت الأيام والشهور ، فإذا بغرام الفتى تهدأ ثائرته ، وتخمد ناره وخيّل إلىّ أنه قد بدأ يمل حياة العزلة والهدوء ، وأنه قد عاد يحن إلى ضجيج المدينة وضوضائها ، ويتلهف إلى هتاف الجماهير وصياحهم .

وبدأ ملل الفتى يزداد وضوحاً ، وأصبح لايحاول إخفاء سآمته وتبرمه ، وأخذ يكثر من الخروج ، ويهمل الفتاة !

وعلمت أنه يتردد خفية على امرأة جميلة عابثة ، تقطن في دار لا تبعد عنا كثيرا ، وأنه قد وقع في حبائلها .. ورأيت مسحة من الحزن قد كست وجه الفتاة ، ولكنها كتمت لوعتها ، وتذرّعت الصبر .

وكثير غياب الفتى ، حتى أصبح يقضى الليالى بأكملها بعيداً عن الكوخ ، وأخيراً ذهب الفتى ولم يعد .

وطال انتظارنا له دون جدوى ، وكانت الفتاة الحزينة قد أضناها الألم .. ولكن أملها فى عودة الفتى لم ينقطع فكانت تقضى الليل جالسة على هذا الحجر الذى يجلس عليه الآن ، وقد شرد بصرها فى الظلمات كأنها تريد أن ترى ماوراء الغيب .. وكنا فى فصل الشتاء والليالى قارسة البرد ، ولكنها كانت تأبى أن تغادر مكانها أو تعود إلى الكوخ .. وكثيراً ما كان نحيبها المكتوم يوقظنى فى الليل ، فلا أملك نفسى من البكاء لبكائها .

وأخيراً حدث ما كنت أخشاه ، فقد أصيبت الفتاة بالتهاب فى الرئة لم يمهلها إلا أياماً ، ثم قضت نحبها !

وعاد الكوخ أشد مما كان ظلمة ، واكثر وحشة ، وعدت وحيداً كما كنت ، وكأن مامرّ بى لم يكن إلا حلماً عابراً .

وفى ذات ليلة سمعت طرقاً على باب الكوخ .. وشد ما أدهشنى أن أجد الفتى قد عاد !

ورأيت عينيه غائرتين ، ووجهه شاحباً ، فكأنه شبح يسرى فى الظلام ، وكان أول ما قاله لى :

- أين هى ؟

- ذهبت ..

- إلى أين ؟

- إلى حيث لا غدر ولا سوء .. إلى الراحة الأبدية !

وجحظت عينا الفتى ، وفغر فاه ، وعقدت الدهشة لسانه فلم ينبس ببنت شفة .

وقصصت عليه القصة ، وقد أطرق إلى الأرض ، فكأنه تمثال لليأس ! ولما انتهيت من حديثي ، رفع رأسه في صوت أجش :

— وماذا قالت عني ؟

— ما قالت عنك كلمة سوء .. وكل ما كانت تفعله ، أن تجلس على هذا الحجر تنتظر أوبتك ساكنة صامتة .. وحينما أوشكت روحها أن تفيض قالت في صوت ضعيف متقطع :

«عندما يعود أخبره إلا يخرج بغير العباءة ، فإني أخشى أن يضر به البرد !»

ومنذ تلك الليلة والرجل كما تراه على هذه الحال .. لايغادر مقعده الحجرى ، ولايخلع العباءة ، ولايتكلم .. وكل ما يفعله أن يحملق في الظلمات ، ويعزف على القيثار .. وأغلب ظني أنه هو الآخر ينتظر أوبتها .. كما انتظرت هي أوبته من قبل .

★ ★ ★

وعادت أصابع الرجل تتحرك على القيثار ، فإذا به ينبعث في زفير حنين .. وبكاء وأنين !

★ ★ ★

للمـــؤلف

اطيـــاف	قصص قصيرة	١٩٤٧
نائب عزرائيل	رواية	١٩٤٧
اثنتا عشرة امراة	قصص قصيرة	١٩٤٨
خبايا الصدور	قصص قصيرة	١٩٤٨
يا امة ضـــحكت	قصص قصيرة	١٩٤٨
اثنـــا عشر رجلا	قصص قصيرة	١٩٤٩
ارض النفاق	رواية	١٩٤٩
فى موكب الهوى	قصص قصيرة	١٩٤٩
من العالم المجهول	قصص قصيرة	١٩٤٩
هذه النفوس	قصص قصيرة	١٩٥٠
انى راحـــلة	رواية	١٩٥٠
مبكى العشاق	قصص قصيرة	١٩٥٠
بين ابو الريش وجنينة ناميـــش	قصص قصيرة	١٩٥٠
اغنيـــات	قصص قصيرة	١٩٥١
ام رتيبة	مسرحية	١٩٥١
هذا هو الحب	قصص قصيرة	١٩٥١
صور طبق الأصل	قصص قصيرة	١٩٥١
بين الأطـــلال	رواية	١٩٥٢
الســـقا مات	رواية	١٩٥٢
سمار الليالى	قصص قصيرة	١٩٥٢
الشيخ زعرب	قصص قصيرة	١٩٥٢
نفحة من الايمان	قصص قصيرة	١٩٥٢
وراء الستار	مسرحية	١٩٥٢
ست نساء وستة رجال	قصص قصيرة	١٩٥٣
هذه الحيـــاة	قصص قصيرة	١٩٥٣

البحث عن جسد .	(رواية
جمعية قتل الزوجات	(مسرحية
فديتك يا ليلى . .	(رواية
ليلة خمر . .	(قصص قصير
همسة عابرة . .	(قصص قصير
رد قلبى . . .	(رواية فى جز
ليال ودموع . .	(قصص قصب
طريق العودة . .	(رواية
أيام تمر . .	(مقالات
من حياتى	(مقالات
لطمت ولثمات .	(مقالات
ناديــة . . .	(رواية فى جز
جفت الدموع . .	(رواية فى جز
أيام مشرقة . .	(مقالات
أيام وذكريات . .	(مقالات
أيام من عمرى .	(مقالات
ليل له آخر . .	(رواية فى جز
أقوى من الزمن . .	(مسرحية
نحن لا نزرع الشوك	(رواية فى جز
لست وحدك . .	(رواية
من وراء الغيم . .	(مقالات
أيام عبد الناصر .	(مقالات
ابتسامة على شفتيه	(رواية
طائر بين المحيطين .	(رحلات
العمر لحظة . .	(قصة

رقم الايداع ٢٣٥٠ / ٨٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه